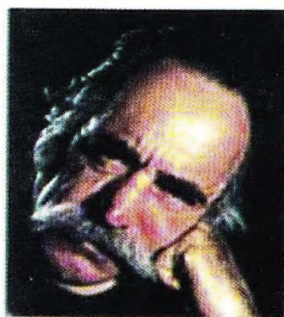


وليم ساروريان

الكوميديا الإنسانية





الكوميديا الإنسانية

الكوميديا الإنسانية

وليم سارويان

ترجمة: **د. عصام المياس**



للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان بلوك ب طابق ٣- شارع الكويت
المنارة - بيروت - 2036 6308
لبنان - تلفاكس: 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني **دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع**
الطبعة الأولى 2008
تصميم الغلاف: مهدي شمص

الكوميديا الإنسانية

وليم سارويان

ترجمة: د. عصام الياس



دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

1



يوليسيس

في أحد الأيام وقف الصبي الصغير المدعو يوليسيس ماكولي عند الجحر الجديد الذي شقه السنجاب في الفناء الخلفي لداره الواقعة على طريق سانتا كلارا بإيتاكا من ولاية كاليفورنيا. وكان سنجاب هذا الجحر قد دفع أمامه شيئاً من الطين الرطب الندي، وراح يختلس النظر إلى الصبي، وقد أدرك تماماً أن الغلام غريب عنه، غير أنه قد لا يكون عدواً. وقبل أن تبلغ متعة الصبيّ ذروتها بتلك المعجزة الماثلة أمامه انطلق أحد طيور الإيتاكا وحطّ على شجرةِ الجوز القديمة في الفناء الخلفي وراح يغني منتشياً، فانتقلت دهشة الصبي من الأرض إلى الشجرة. بعد ذلك أطلّ قطار بضاعة من بعيد

يصفر ويدوي أصاخ. الصبي للصّوت وأحسّ بالأرض تميد تحته. فانطلق يعدو كما بدا له بسرعة لا تدانيها سرعة.

بلغ معبر الخط الحديدي في لحظة مكّنته من أن يُراقب القطار يمر أمامه من أول قاطرة حتى آخر واحدة. لوّح الصبي للسائق ولكن السائق لم يردّ عليه التحيّة. ولوّح لخمسة ركاب آخرين غير أن أحداً منهم لم يردّ عليه. كان بإمكانهم أن يردوا تحيته، لكنهم لم يفعلوا. وأخيراً رأى الصبي زنجياً يقف معتمداً على جانب العربة الأخيرة، وسمعه يوليسيس يغني وكان صوته يُسمع بالرغم من ضجيج القطار:

«كفى بكاء يا فتاتي، أوه... كفى اليوم بكاء، فسنغني أنشودة لبيتنا القديم في كنتكي، لبيتنا القديم في كنتكي، هناك بعيداً...».

لوّح يوليسيس للزنجي، فحدث ما لم يكن يتوقعه. إن هذا الرجل الأسود يختلف عن الآخرين جميعاً، قد ردّ على تحية يوليسيس صائحاً: «إنني عائد إلى بيتي أيها الصبي، عائد إلى حيث أنتمي!».

وظل الصبي الصغير والزنجي يلوّح كلّ منهما للآخر حتى كاد القطار يختفي عن الأبصار.

عند ذلك نظر يوليسيس حوله إلى هذا العالم الذي يعيش فيه في عزلة عجيبة، ذلك العالم الغريب الذي غزته الطفيليات وملأته مخلفات البشر، فبدا وكأنه لا معنى له ولكنه مع ذلك جميل ورائع. وعَبَرَ الممر الضيق رجل عجوز يحمل على ظهره حزمة مربوطة، فلوّح يوليسيس له أيضاً ولكن الرجل كان من التعب والشيخوخة

بحيث لا يستطيع أن يسرّ لتودُّد صبيّ صغير. فألقى على يوليسيس نظرة وكأنما، هو والصبي، قد أدركهما الموت منذ أمد بعيد.

استدار الصبي الصغير وسار بتؤدة صوب بيته وما زال يسمع صوت القطار العابر وغناء الزنجي وكلماته الفرحة يتردد صداها في مسامعه: «إنني عائد إلى بيتي أيها الصبي، عائد إلى حيث أنتمي». وتوقّف يتأمل هذا كلّه ثم راح يتسكع حول شجرة جميز صيني ويسحق بقدمه ثمارها الصفراء المتساقطة. وبعد لحظة تبسّم الصبي، فارتسمت على شفتيه بَسمةُ أسرة ماكولي تلك البسمة الوديعة الحكيمة، الخفيّة التي ترضى بكل شيء.

عندما بلغ زاوية الطريق، استدار ورأى بيت أسرته، بدأ يوليسيس يعدو حَجَلاً وهو يضرب الأرض بأحد عقبيه، تعـثر وأوقع لعبته، ولكنه سرعان ما عاد ووقف على قدميه وواصل طريقه.

كانت أمه في فناء البيت ترمي الطعام إلى الدجاج، ورأته يتعثّر ويقع وينتصب ويعاود حجلاً. وقَدِم إليها خفيفاً هادئاً، ووقف إلى جانبها قليلاً ثم ذهب إلى خم الدجاج يبحث عن البيض. فوجد واحدة فراح ينظر إليها لحظة، ثم التقطها وعاد بها إلى أُمّه وسلمها لها مترفقاً حذِراً وفي نفسه معنى لا يستطيع الكبير أن يدركه ولا الطفل الصغير أن يذكره!!

2



هومير

اعتلى أخوه هومير مِقعد دراجة قديمة، سارت به تجاهد صامدة وسط وَحلِ الطريق الريفي. وكان هومير ماكولي يرتدي حلَّة ساعٍ من سعاة التلغراف واسِعة فضفاضة وقبعة ضيقة صغيرة على رأسه. وكانت الشمس تميل إلى المغيب، هابطة وراء الأفق وقد شاعت حولها سكينة الأمسيات الناعسة التي يعتز بها أهل إيتاكا ويحبونها حباً عميقاً. ومن حول الرسول الساعي نمت أزهار الأوركيد وشجيرات العنّاب في كلّ بقعة على من تلك الأرض العتيقة، أرض كاليفورنيا. وعلى الرغم من أن هومير كان يتحرك ويشق طريقه سريعاً فإنه كان متيقظاً إلى كلّ ما في المنطقة من سحر، لا يفوته مِنه شيء.

لقد ظلّ يقول لنفسه عند كل شيء: «أنظر إلى هذا.. أنظر إلى

الأرض، إلى الشجرة، إلى الشمس، إلى الحشائش، إلى السُّحب... هل لك أن تنظر؟ وبدأ هومير يزيّن الأرض بحركة دراجته وما ترسمه من خطوط، وكأنما أراد أن يُقرنُ هذا الوشي بالنغم، فانطلق فجأة يغني بنشيد بسيط، فيه الكثير من الفكاهة والمرَح. وخُيِّل إليه أنه يسمع هذا النشيد من الأوبرا تعزفه أوتار الأوركسترا بينما يتبعها عزف أمِّه على «القيثارة» وعزف أخته بس على البيانو، ثم تذكر أخاه ماركوس فخيُل إليه أنه انضم إلى المجموعة يرسل النغم بعذوبة باسِمة وحزينة على «الأكورديون» وهكذا التأم شملُ الأسرة.

وتلاشت موسيقى هومير أمام جَلَبة مزعجةٍ صدرت عن ثلاثة أجسام عجيبة راحت تندفع عابرة السماء ورفع الساعي عينيه ينظر إليها، وإذا به يسقط مباشرة بدراجته وسط قناة صغيرة جافة. وقال هومير لنفسه «هذه طائرات»! وعدا كلب أحد المزارعين مسرعاً وراءه وأخذ ينبح نباحاً مزعجاً وكأنه رجل يحمل رسالة. غير أن هومير تجاهل رسالته ولم يفعل إلا أن التفت ناحيته مرة واحدة يضلل الكلب صائحاً «آرب.. آرب». وامتطى دراجته واندفع في طريقه من جديد.

وعندما وصل إلى حدود المنطقة المأهولة من المدينة مرَ بلوحة لم يقرأها كتب عليها :

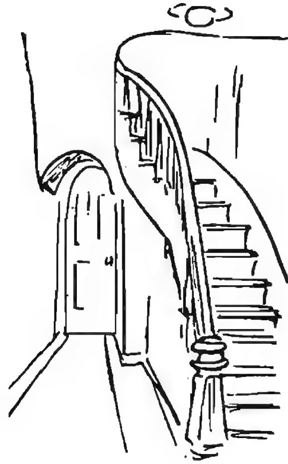
«إيتاكا، كاليفورنيا

إن شرَّقت أو غرَّبت، فليس أفضل من البيت

مرحباً أيها الغريب».

وعلى الناصية التالية من الطريق توقف يُراقِبُ صفّاً من عربات الجيش وهي تمر به مليئة بالجنود. ولوَّح محَيّياً الرجال كما لوح أخوه يوليسيس من قبل لسائق القطار ولأولئك العُمال الذين تسللوا إلى العربات. وردَّ عددٌ كبير من الجنود على الساعي تحيّته.

3



مكتب التلغراف

كان المساء قد هبط على إيتاكا عندما أوقف هومير دراجته أمام مكتب التلغراف. وكانت ساعة الواجهة تشير إلى السابعة ودقيقتين. ورأى هومير السيد سبانغلر مدير المكتب وهو ما يزال يعدُّ كلماتِ برقية ناولها له شاب في نحو من العشرين، يبدو عليه التعب والاضطراب. ولما دخل هومير المكتب راح يستمع الى حديث السيد سبانغلر مع الشاب.

قال سبانغلر: «المجموع، أربع عشرة كلمة» وتوقف لحظة وهو يرمُق الشاب ثم تابع: «أتنقصك النقود؟».

لم يستطع الشاب أن يجيبه فوراً لكنه سرعان ما قال: «نعم

يا سيدي، إلى حد ما... ولكن أمي سترسل لي ما يكفيني لأعود إلى بيتي».

فقال سبانغلر: «طبعاً بكل تأكيد، ولكن أين كنت؟»».

فأجابه الشاب: «لست أدري، لم أكن في مكان محدد» وبدأ يسعل ثم استطرد متسائلاً: «كم ستستغرق البرقية من الوقت لتصل إلى أمي؟»». فرد سبانغلر: «لست أدري تماماً، إنهم الآن في الشرق في ساعة متأخرة، وليس من السهل أحياناً تحصيل النقود في مثل هذه الساعة من الليل، ولكني سأتعجل إرسالها».. وراح سبانغلر ينقّب في جيوبه جميعاً دون أن ينظر إلى الشاب مرة أخرى، وخرج من بحثه بحفنة من العملة المعدنية الصغيرة وورقة من أوراق البنكنوت وبيضة مسلوقة.

وقال «خذ، إذا ما جد جديد» وناول الشاب النقود قائلاً: «إنك تستطيع أن تردها لي عندما ترسل لك أمك النقود»، ثم أشار إلى البيضة وهو يقول «لقد التقطتها في حانة منذ سبعة أيام، إنها تجلب لي الحظ».

ونظر الصبي إلى النقود ثم قال: «ما هذا؟»».

فقال سبانغلر: «إنها شيء زهيد».

ـ شكراً...

وتوقف الشاب مدهوشاً مرتبكاً ثم ردد قوله: «شكراً» وأسرع خارجاً. وأخذ سبانغلر البرقية إلى وليام جروجان عامل التلغراف في نوبة الليل ورئيس عمال البرق قائلاً له:

«أرسلها خالصة يا وللي، سأدفع أنا القيمة».

فوضع السيد جروجان يده حول الآلة العتيقة وبدأ ينقر البرقية حرفاً حرفاً:

«السيدة مارغريت ستريكما

1874شارع بيدل

يورك ـ بنسلفانيا»

«أمي العزيزة.

أرسلي برقياً ثلاثين دولاراً. أريد أن أعود.. أنا بخير. وكل شيء حسن...».

جون

وتفحّص هومير ماكولي مكتب التوزيع بحثاً عن برقيات وإشارات تليفونيةٌ مُعَّدة، وراح مستر سبانغلر خلال ذلك يرقبه في تشُّوقٍ ولذة لا يرتسم على وجهه منهما شيء، ثم خاطبه قائلاً: «كيف وجدت عمل الساعي؟».

فقال له هومير: «كيف وجدته؟! وجدته أفضل الأعمال جميعاً فإنك مضطر فيه أن ترى ألواناً كثيرة مختلفة من الناس وأن تذهب إلى أماكن عديدة متغايرة».

فقال سبانغلر: «نعم». وتوقف قليلاً ينظر إلى الصبي عن كثب ثم سأله: «كيف نمت ليلة أمس؟».

أجاب هومير: «حسناً.. كنت متعباً جداً ولكني نمت نوماً عميقاً».

ـ «وهل نمت اليوم قليلاً في المدرسة؟».

ـ «نعم قليلاً».

ـ «في أيّ من الدروس؟».

ـ «درس التاريخ القديم».

وسأله سبانغلر: «وماذا عن الألعاب الرياضية؟ أقصد أنك لا تستطيع أن تشارك فيها لأنك تعمل؟».

فقال هومير: «ولكني أشترك فيها، إننا نتلقى حصة في التربية كل يوم».

فقال سبانغلر: «حقاً؟. لقد اعتدت أن أعدو في سباق الحواجز أيام كنت أذهب إلى مدرسة إيتاكا العليا. كنت بطل الوادي»... وتوقف مدير مكتب التلغراف قليلاً ثم واصل حديثه: «إنك حقّاً تحب هذه الوظيفة، أليس كذلك؟».

فأجابه هومير: «إني سأكون خير ساعٍ عمل في هذا المكتب».

فقال سبانغلر: «حسناً. لكن لا تقتل نفسك لا تزد. من سرعتك. إذهب سريعاً إلى حيث تقصد، ولكن احتفظ بسرعة معتدلة. كن مؤدباً مع الناس جميعاً، وتعلم أن تخلع قبعتك في المصعد! وقبل كل شيء أياك أن تفقد برقية».

ـ «نعم يا سيدي».

وواصل سبانغلر قوله: «واعلم أن العمل بالليل غيره بالنهار. وأنك قد تحمل برقية إلى حيّ الصينيين أو إلى بيوت المزارعين خارج

المدينة، وقد يكون في هذا ما يفزع البعض، فلا تدع هذا يفزعك أنت. ان الناس هم الناس دائماً.

فلا تفزع منهم. كم عمرك؟».

فابتلع هومير ريقه وقال «ستَّ عشرة سنة».

فقال سبانغلر: «نعم، نعم، أعلم هذا، لقد قلت لنا هذا بالأمس، فمن المفروض علينا ألا نستأجر صبياً حتى يبلغ السادسة عشرة، ولكني رأيت أن أجازف وأجربك. كم عمرك؟».

فقال هومير: «أربع عشرة سنة».

فأجاب سبانغلر: «حسناً، فستبلغ إذن السادسة عشرة بعد عامين».

ورد هومير: «نعم يا سيدي».

فقال له سبانغلر: «إذا مرَّ بك شيء لم تفهمه، فارجع إلي».

فقال هومير: «نعم يا سيدي» وتوقف قليلاً ثم سأله: «ماذا عن البرقيات المغناة؟».

فأجابه سبانغلر: «لا شيء، إننا نتلقى كثيراً منها.. على أن صوتك جميل، أليس كذلك؟».

فقال هومير: «لقد اعتدت أن أغني في أول أحد للمدرسة البرسبتيريَّة في إيتاكا».

فقال سبانغلر: «هذا حسن جداً. إن صوتك إذن هو بالضبط ذلك الصوت الذي نريده لبرقياتنا المغناة. والآن فلنفرض مثلاً أن

السيد جروجان الجالس هناك قد تلقى برقية لتهنئته بعيد ميلاده، فكيف تؤديها؟».

فانتقل هومير إلى حيث يجلس مستر جروجان وبدأ يغني:

عيد سعيد

عيد سعيد

عيد سعيد يا عزيزي جروجان

عيد سعيد

فالتفت إليه مستر جروجان قائلاً: «شكراً».

وقال سبانغلر لهومير: «هذا حسن جداً، ولكن ما كان يجب أن تقول «عزيزي جروجان» يجب أن تقول:

«يا عزيزي مستر جروجان».. ماذا تنتظر أن تفعل بالخمسة عشر دولاراً التي ستتقاضاها في الأسبوع ؟.

فأجاب هومير: «أعطيها لأمي».

فقال سبانغلر: «اتفقنا إذن، منذ الآن أنت موظف دائم، لقد أصبحت عضواً في هيئة هذا المكتب، فأرقب ما يجري، واستمع جيداً.. واجعل عينيك وأذنيك مفتوحة..».

وراح مدير مكتب التلغراف ينظر إلى لا شيء ثم قال:

«ما هو المستقبل الذي رسمته لنفسك؟».

وردّ هــومير: «مســتــقــبــل؟».. وأحس بشــيء مــن الحيرة

والاضطراب! لقد ظل طوال حياته مشغولاً، يوماً بعد يوم، يرسم هذا المستقبل لنفسه ولو كان حتى للغد القريب وحسب. وقال: «حسناً، لست على يقين من شيء، ولكن أظنني أريد أن أصبح رجلاً عظيماً يوماً ما، مؤلفاً موسيقياً مثلاً أو رجلاً عظيماً مثل هذا... نعم يوماً ما».

فقال سبانغلر: «هذا جميل جداً، ومكانك هذا خير مكان تبدأ منه. إن الموسيقى في كل مكان حواليك، نعم تلك الموسيقى الأصلية التي تنبع مباشرة من العالم، ومن قلوب الناس. اسمع مفاتيح هذا التلغراف، أليست موسيقى رائعة؟».

فقال هومير: «نعم يا سيدي».

وسأله سبانغلر فجأة: «أتعرف أين يقع مخبز شاترتون على برودواي؟ خذ هذا ربع دولار، إذهب فاشتر لي من هناك فطيرتين طازجتين بالتفاح وقشدة جوز الهند... الاثنتان بربع دولار».

وقال هومير: «نعم يا سيدي» وأمسك بربع الدولار الذي ألقاه له سبانغلر واندفع خارجاً من المكتب، وراح سبانغلر يتبعه بنظراته وهو يحلم وكأنه يحن إلى أشياء بعيدة متحركاً في تراخٍ لذيذ. وعندما أفاق من حلمه التفت إلى عامل التلغراف وسأله: «ما رأيك فيه؟».

فقال السيد جروجان: «إنه ولد طيب؟».

فقال سبانغلر: «أنا أعقد هذا. إنه من عائلة طيبة فقيرة تسكن طريق سانتا كلارا مات أبوه، وذهب أخوه للجيش، وأمه تعمل في

الصيف في مصانع الطعام المجفف. وله أخت تذهب إلى كلية الولاية، وكل ما في الأمر أن عمره يقل سنتين عن السن القانونية».

فقال السيد جروجان: «وأنا تجاوزتها بسنتين، ولاشك أن الواحد منا سيكمل الآخر».

وغادر سبانغلر مكتبه قائلاً: «أنا في محل كوربيت إذا ما احتجت إليّ.. اقتسم الفطائر أنت و..».

وتوقف يحملق مذهولاً وهو يرى هومير يدخل المكتب حاملاً الفطائر الملفوفة.

ثم سأله وهو يكاد يصرخ فيه:«قل لي.. ما اسمك؟».

ـ هومير ماكولي..

فوضع مدير التلغراف ذراعه حول ساعيه الجديد قائلاً: «حسناً جداً يا هومير ماكولي، أنت الصبي الذي يحتاج إليه المكتب لدورية الليل! يخيل إليّ إنك أسرع إنسان في وادي سان جوكان، وأنك أيضاً ستصبح إذا عشت رجلاً عظيماً يوماً ما.. فاحرص إذن على أن تعيش». واستدار تاركاً المكتب وهومير يحاول أن يتفهم كلماته.

والتفت له جروجان قائلاً: «حسناً يا بني.. أين الفطائر؟».

وضع هومير الفطائر على المكتب إلى جانب السيد جروجان الذي راح يواصل حديثه: «هومير ماكولي.. اسمي وليام جروجان، قد بلغت السابعة والستين وعلى الرغم من ذلك يسمونني وللي.. وأنا من قُدامى موظفي التلغراف، واحد من آخر أفراد هذه الطبقة في العالم. ثم أنا في الليل رئيس هذا المكتب، وأنا

أيضاً رجل مرت في حياته مناظر رائعة وما زالت معه ذكرياتها.. ولكني جوعان.. تعال نحتفل بالفطائر..تفّاح وقشدة الجوز. أنا وأنت من الآن صديقان..

فقال هومير: «نعم يا سيدي».

وتناول عامل التلغراف العجوز فطيرة وقسمها أربعة أقسام وراحا يأ كلان قشدة جوز الهند.

وواصل السيد جروجان حديثه: «وسيحدث أحياناً أن أرسلك في أمر لي أو أن أسألك الغناء معي أو الجلوس والتحدث إلي. أما في حالة السكر فإني أتوقع منك ما لا ينتظر من رجل تجاوز الثانية عشرة. كم سنك؟».

وأجاب هومير: «الرابعة عشرة، ولكن أظن أني أفهم جيداً».

فقال السيد جروجان: «حسناً، سآخذك عند كلمتك وسأتوقع منك أن تتأكد في كل ليلة من أني قادر على القيام بواجباتي في هذا المكتب. وإذا لم أستجب للهز والإيقاظ فقليل من الماء البارد يلقى على الوجه ويعقب هذا فنجان من القهوة من عند كوربيت»!!

نعم يا سيدي.

وواصل السيد جروجان حديثه: «أما إذا حدث هذا في الطريق فالأمر يختلف. إذا رأيتني مكثراً من الخمر التفت إليّ، وألقِ عليَّ السلام ودعني ولا تشر إلى ما أنا فيه من سعادة. إني رجل شديد الحساسية وأؤثر ألا أكون موضوعاً لشفقة الناس.

فقال هومير: «الماء البارد والقهوة في المكتب، والتحية في

الطريق! سمعاً يا سيدي».

واستمر السيد جروجان في حديثه وقد امتلأ فمه بالقشدة: «أتعتقد أن هذا العالم بعد الحرب سيكون مكاناً أفضل؟».

فتردد هومير لحظة ثم قال: «نعم يا سيدي».

ولكن السيد جروجان عاد وقال: «أتحبّ قشدة جوز الهند؟».

فقال هومير: «نعم يا سيدي».

ودق صندوق التلغراف فاستجاب السيد جروجان للإشارة واتخذ مكانه أمام الآلة الكاتبة ولكنه استمر يتحدث:

«أنا أيضاً أحب قشدة جوز الهند. وأحبُّ الموسيقى أيضاً وخاصةً الغناء. لقد سمعتك تقول إنك كنت تغني في مدارس الأحد. هل تسمح فتغني لي أغنية من أغاني مدارس الأحد وأنا أدقُّ هذه الرسالة من واشنطن؟».

وبدأ هومير يغني «صخرة العمر» والسيد جروجان يدق البرقية على الآلة الكاتبة. كانت البرقية للسيدة روزا ساندوفال برقم 1229 شارع ج إيتاكا كاليفورنيا، وكانت وزارة الدفاع تخبر السيدة ساندوفال أن ابنها جوان دوينجو ساندوفال قد مات في القتال.

وناول السيد جروجان البرقية لهومير وشرب جرعة طويلة من الزجاجة التي يحفظها في الدرج إلى جانب مقعده. وطوى هومير البرقية ووضعها في الظرف وألصقه ثم وضعه في قبعته وغادر المكتب وعندما اختفى الساعي رفع عامل التلغراف العجوز صوته مغنياً لنفسه «صخرة العمر» فلقد كان في يوم ما هو أيضاً ـ فتياً كأي رجل.

4



سيغار العالم مني

كانت الموسيقى تسمع من بيت ماكولي على طريق سانتا كلارا، إذ كانت بس والسيدة ماكولي تعزفان على البيانو أنشودة «سيغار العالم مني»؛ إنهما تعزفانها لماركوس الجندي أينما كان، فهي أغنيته المفضلة... ودخلت الغرفة ماري أرينا قادمة من البيت المجاور ووقفت إلى جوار بس عند البيانو وسرعان ما اشتركت في الغناء. إنها تغني هي الأخرى لماركوس، فهو العالم بأكمله بالنسبة لها. ووقف الصبي الصغير يوليسيس يستمع ويراقب. لقد كان في الجو شيء غريب، كان حريصاً، على الرغم من أنه كان شبه نائم، على أن يعرف سر هذا الشيء. واستجمع أخيراً قوّته وقال:

ـ أين ماركوس!

فنظرت السيدة ماكولي إلى الصبي وأخذت تقول: «عليك أن تفهم..». ولكنها توقفت ولم تكمل حديثها.

وحاول يوليسيس أن يفهم، ولكنه لم يكن يدري ماذا عليه أن يفهم.

فقال: «أفهم ماذا»؟.

فقالت السيدة ماكولي: «لقد ذهب ماركوس بعيداً عن إيتاكا».

ـ لماذا؟

وأجابت السيدة ماكولي: «إن ماركوس في الجيش».

فقال الصبي الصغير: «ومتى يعود؟».

ـ عندما تنتهي الحرب.

ـ غداً؟

ـ لا.. ليس غداً.

ـ متى إذن؟

ـ إننا لا نعرف.. نحن ننتظر.

فقال يوليسيس: «وأبي، أين هو إذن؟ هل إذا انتظرنا يعود كما عاد ماركوس؟».

فقالت السيدة ماكولي: «لا.. ليس كذلك. لا، لن يعود يمشي في الشارع ويصعد السلم ويعبر الشرفة ثم يدخل البيت كما اعتاد أن يفعل».

وكان هذا أكثر مما يستطيعه الصبي، ولم يعد أمامه إلا كلمة واحدة قد يأمل من ورائها شيئاً كالصدمة أو الراحة ولم يترّدد أن يقولها:

ـ لماذا؟.

فالتفتت السيدة ماكولي إلى بس و ماري وقالت:

«الموت أمرٌ صَعب لا يستطيع كل إنسان أن يفهمه فما بالك بالطفل، ولكن على الرغم من ذلك فإن لكل حياة يوماً تنتهي فيه».. ونظرت إلى يوليسيس وهي تقول:«لقد جاء أبوك هذا اليوم منذ سنتين».

ثم عاودت النظر إلى بس وماري مواصلة حديثها:

«ما دمنا أحياء، وما دمنا معاً، وما دام اثنان منا على قيد الحياة يذكرانه. فلن يستطع شيءٌ في العالم أن يأخذه منّا .. لقد ذهب جسدُه أما هو فلم يذهب. إنك ستزداد معرفة بأبيك كلما كبرت وإزدادت معرفتك بنفسك!! لقد ذهب الزمن والأحداث والمرض والتعب بجسده، ولكنك أنت رددته له، أعطيته له من جديد فتياً نشيطاً كما لم يكن من قبل أبداً، ولست أتوقع منك أن تفهم شيئاً مما أقول لك، ولكني أعرف أنك ستذكر هذا... ستذكر أن الأشياء الطيبة لا تنتهى أبداً. فلو أنها تنتهي لما كان هناك بشر في هذا العالم.. لا ولا حياة في أي مكان، ولكن العالم مليء بالناس، مليء بالحياة الرائعة».

وفكر الصبي لحظة في هذا، ثم تذكر ما رأى فى الصباح الباكر فسألها:

«ما هو السنجاب؟».

ولم تؤخذ أمَه أبداً بهذا السؤال، فهي تعرف أن له عينين فيهما رؤية، ووراء الرؤية قلب وشعور وحب، لا لشيء واحد فحسب، ولا لجنس واحد فحسب، بل لأي شيء ولكلّ شيء.

فقالت: «جماعة السناجب الحفّارة في الأرض والطيور من فوق والسمك في البحر، ليس هذا كله إلا جزءاً من كل واحد منا بل، تلك الأشياء الكثيرة التي لا تتحرك كما نتحرك نحن، هي أيضاً جزء منا، الشمس جزء منا، والأرض والسماء والنجوم والأنهار والمحيطات، كُلّها جزء منا، ونحن قد خلقنا لننعم بها ونشكر الله عليها».

وتقبّل الصبيُّ كلَّ هذه الأنباء ولكنه سألها: «وأين إذن هومير؟».

فقالت له السيدة ماكولي: «أخوك هومير يعمل.. لقد وجد لنفسه بالأمس عملاً بعد مدرسته فلن يعود إلى البيت إلا في منتصف الليل عندما تكون أنت في فراشك نائماً».

ولم يستطع الصبي أن يفهم ما العمل؟ ولماذا يعمل أخوه؟ وأيّ سرور ينتاب الرجل في أن يعمل؟

فسأل: «ولماذا يعمل هومير!».

وجلست الفتاتان صامتتين فى صبر تنتظران إجابة السيدة ماكولي على أسئلة الطفل:

«أخوك هومير يعمل لأن أخاك ماركوس فى الجيش، ولأنه لابد لنا أن نحصل على نقود نشتري بها الطعام والملابس وندفع أجرة البيت.. ولنعطي منها من له بها حاجةُ أكثر منّا».

فسألها يوليسيس: «من هم؟».

«أيُّ إنسان.. الفقراء مثلاً».

فقال الصبي:«من هم الفقراء؟».

فقالت السيدة ماكولي وهي تبتسم لنفسها: «كل إنسان». وأحس يوليسيس أنه مهما بذل من جهد فلن يستطيع أن يظل صاحياً. ولكنها استمرت تقول:

«تذكر دائماً أن تعطي من أي شيء يكون معك. يجب أن تعطي ولو بحماقة. يجب أن تكون مسرفاً وأن تعطي كل من يمر بحياتك، فعند ذلك لن يكون لأي شيء أو لأحد القدرة على أن يغشك، وإذا أعطيت اللص فلن يسرقك ولن يعود هو نفسه إلى السرقة بعد ذلك. وكلما كثر عطاؤك، زاد ما عندك لتعطيه».

وحوّلت السيدة ماكولي نظرها عن الطفل إلى أختهّ بس وقالت لها: «خذيه إلى فراشه..».

أخذت بس وماري الصبي إلى غرفته فلما ذهبتا وجلست هي وحدها سمعت صوت خطوات، فاستدارت ورأت هناك عند الباب ماتيو ماكولي وكأنه لم يمت.

وقال: «لقد أخذني النوم، كنت نعساناً جداً،!! كاتي هل تغفرين لي؟».

وضحك وكأنما يوليسيس هو الذي يضحك، فلما عادت بس إلى الغرفة قالت لأمها:«لقد ضحك ونحن نلّفه في غطائه».

5



فلتذهب في طريقك، فلي طريقي!

ترجل الساعي من على دراجته أمام بيت السيدة روزا ساندوفال وقرع الباب بخّفة. أحس مباشرة أن ثمة أحداً في داخل البيت! إنه لم يستطع أن يسمع شيئاً، ولكنّه كان واثقاً أن طرقته ستدعو أحداً إليه، وكان متلهفاً أن يرى من تكون هذه المرأة، السيدة روزا ساندوفال التي عليها أن تواجه خبر جريمة قتل وقعت في العالم وتأثرها بهذه الجريمة. ولم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن ينفتح الباب، غير أنه لم يكن هناك لهفة أو تسرع في فتحه، كان في حركة ألواحه اطمئنان وبطء وكأنما الذي من ورائه لا يخشى شيئاً من الدنيا، ثم الفى الباب مفتوحاً تماماً وبرزت هي من خلفه.

لقد بدت المرأة المكسيكية جميلة في عيني هومير. استطاع أن يدرك أن ما ألفته من صبر طوال حياتها قد استحال الآن، بعد كل هذه السنين بسمة لطيفة على شفتيها كبسمات القديسين. غير أنها كغيرها من الناس الذين لم يتسلموا أبداً رسائل برقية. رأت في منظر الساعي معنىً مخيفاً مرعباً، وأدرك هومير أن منظره قد صدم السيدة دوفال، فما إن وقع نظرها عليه حتى بدر منها ما يبدر من كل إنسان عند دهشته. قالت «آه» وكأنما كانت تنتظر شخصاً تألفه لتجلس معه سعيدة فرحة بدلاً من ساعي البريد. وقبل أن تنطق بكلمة راحت تتفحص وجه هومير وعينيه، وأدرك هو أنها فهمت أن البرقية لا يرجى منها خيراً!

قالت له: «هل معك برقية!».

ولم يكن هذا خطأ هومير، فليس عمله إلا أن يحمل إلى الناس البرقيات، ولكن أحسَّ أنه جزء من ذلك الجرم الكبير، فامتلأت نفسه حَرَجاً وكاد يستشعر أنه وحده المسؤول عما حدث. ووَدَّ في الوقت ذاته لو يستطيع أن يصارحها مباشرة قائلاً: «لست إلا ساعي بريد يا سيدة ساندوفال. وأنا آسف جداً أنني مضطر أن أحمل لك هذه البرقية ولكني لم أكن لأفعل ذلك لولا أنه عملي!».

وسألته المرأة المكسيكية: «لمن؟».

فقال هومير: «السيدة ساندوفال 1129 شارع ج».

وقدم البرقية ولكنها لم تجرؤ على أن تمسها.

فقال هومير: «هل أنتِ السيدة ساندوفال؟».

فقالت المرأة: «أرجوك أن تدخل، إنني لا أقرأ الإنكليزيّة، أنا مكسيكية ولا أقرأ إلا جريدة برنسا المكسيكية». وتوقفت لحظة وراحت تنظر إلى الصبي وهو يحاول أن يقف أقرب ما يكون إلى الباب وأن يكون، في الوقت نفسه، داخل البيت.

ثم قالت: «أرجوك، ماذا في التلغراف؟».

تلعثم السّاعي: «سيدة ساندوفال في التلغراف؟».

« نعم من الضروري أن تفتح التلغراف أولاً ثم تقرأه لي.. إنك لم تفتحه بعد؟».

فقال هومير:«لا يا سيدتي.....!» وكأنما يَردُ على مدرَّسة قد صحّحت له خطأه.

ومزّق التلغراف بأصابع مرتجفة، فانحنت المرأة المكسيكية تلتقط القصاصة من على الأرض وانحنت عليها تفرد طياتها وهي تقول له: «من أرسله .. ابني جوان دومنجو؟».

فقال هومير: «لا يا سيدتي. بل من وزارة الدفاع».

فرددت المكسيكية: «وزارة الدفاع؟».

فانطلق هومير فى سرعة قائلاً: «سيدة ساندوفال! لقد مات إبنك. قد يكون في هذا خطأ، فأنت تعرفين أن كل إنسان معرُض لهذا، وربما كان هذا الذي مات ليس ابنك يا سيدة ساندوفال. ولكن البرقية تقول إنه جوان دومنجو وقد تكون البرقية مخطئة!!».

تظاهرت المكسيكية أنها لم تسمع وقالت له: «ادخل.. لا تفزع. تعال معي إلى الداخل لأعطيك حلوى» وأخذت ذراع الصبي إلى منضدة وسط الغرفة وأجلسته هناك.

ثم قالت: «كل الصبية يحبّون الحلوى.. وأنا سأحضر لك بعضاً منها».

وذهبت إلى الغرفة الأخرى وسرعان ما عادت تحمل صندوقاً قديماً فيه شوكولاتة، وفتحته على المنضدة أمام هومير، فرأى فيه نوعاً غريباً من الحلوى لم يعرفه من قبل:

وقالت له:«كُلْ.. خذ من هذا.. كل الصبية يحبّون الحلوى».

فأخذ هومير قطعة من الصندوق ووضعها في فمه وراح يحاول جاهداً أن يمضغها وهي تقول له: «إنك صغير طيّب .. كصغيري جاونيتو عندما كان صبياً.. خذ.. كُل قِطعة أخرى» وحملته على أن يأخذ قطعة ثانية من الصندوق.

وجلس هومير يمضغ الحَلوى المكسيكية الجافة والمرأة تتحدّث:

«هذه الحلوى، حلوانا نحن.. نصنعها من الصّبار. لقد صنعتها لصغيري جوانيتو ليأكلها عندما يعود.. فكلها أنت.. إنك مثله..».

وفجأة انفجرت تنشج وهي تتجلّد وتمنع نفسها أن تبكي كأنما من العار أن تفعل ذلك. وتمنى هومير لو ينهض ويغادر المكان عدواً، ولكنه عرف في قرارة نفسه أنه سيبقى بل إنه ربما سيبقى طوال حياته هنا، فهل هناك ما يستطيع أن يفعله غير ذلك كي يخفف من شقاء هذه المرأة، إنها لو سألته أن يأخذ مكان ابنها لما استطاع أن يرفض

لأنه لا يعرف كيف يستطيع مثل هذا الرفض. ونهض هومير واقفاً كأنما يريد أن يصلح ذلك الخطأ الذي لا مردَّ له، ولكنه سرعان ما أدرك حماقة مقصده فملأه التحرج والاضطراب أكثر من ذي قبل. وراح يردد لنفسه مرة بعد أخرى: «ماذا أستطيع أن أفعل.. ماذا أستطيع أن.. أفعل.. أنا لست إلا الساعي!!».

واتجهت نحوه المرأة فجأة وأخذته بين ذراعيها مرددةً: «صغيري.. صغيري».

لقد أحس هومير حرجاً عميقاً من الأمر كله، ولكنه لم يكن يدري لماذا أصابه دوّار وتملؤه الرغبة في أن يتقيأ. إنه لا يكره المرأة ولا يكره أحداً سواها، غير أن هذا الذي حدث لها جرم شنيع تملؤه البشاعة ويسري في نفسه التقزز والمرض، ويساوره من جرائه التردد في أن يظل حياً.

قالت المرأة: «تعال.. إجلس هنا» وأرغمته أن يجلس على مقعد آخر ووقفت وراءه تقول له: «دعني أنظر إليك!»، وراحت تنظر في وجهه نظرات غريبة والتقزز المتصاعد من نفسه يجعله لا يستطيع أن يتحرك.

إنه لا يحس حبّاً ولا كرهاً بل شعوراً هو أقرب إلى أن يكون تقززاً واشمئزازاً، ولكنه في الوقت نفسه يستشعر لوناً من العطف والإشفاق لا على المرأة وحدها بل على كل ما في الدنيا من أشياء تسلك هذا المسلك الزري المضحك في الحياة والموت.

إنه يتخيلها وهي ما تزال في السنين الماضية شابة جميلة قد

جلست عند مهد طفلها، ويراها تنظر إلى هذا الكائن الإنساني الفريد، لا ينطق ولا يستطيع شيئاً ولكنه مليء بالمستقبل والحياة القادمة وتخيلها تهز المهد وتغني للطفل، ثم غمغم لنفسه: «من الآن فانظر إليها..».

وفجأة عاد هومير لنفسه وهو على دراجته يركبها كالعادة يهبط الطرقات المظلمة وقد تحدرت من عينيه الدموع وفمه الصغير يغمغم لعنات حمقاء لا معنى لها، وعندما وصل إلى المكتب كانت الدموع قد توقفت، أما هذه الأشياء الأخرى جميعاً فقد بدأت واستمرت حيث يعرف أن أحداً لا يستطيع أن يوقفها بعد ذلك. ورفع صوته كأن من يصغي إليه خفيف السمع، لا يحسنه، وغمغم «وإلا.. فكأنما قد مُتُّ أنا أيضاً».

6



أغنية للسيد جروجان

جلس هومير إلى المنضدة في مواجهة السيد جروجان وكانت أسلاك البرق صامتة حينذاك، ولكنها فجأة بدأت تدق، فانتظر هومير أن يجيب السيد جروجان على النداء، ولكن الرجل لم يفعل، فاستدار هومير حول المنضدة وهز الرجل بلطف قائلاً «سيد جروجان.. إنهم ينادونك.. سيد جروجان.. قم.. قم..».

وجرى هومير إلى إناء الماء فملأ كوباً ورقياً وعاد إلى موظف التلغراف الهرم، ولكنه تردد أن يتبع التعليمات التى أعطيت له، فوضع الكوب على المنضدة وراح يهز السيد جروجان من جديد مكرراً: «سيد جورجان.. استيقظ.. قم..».

ونثر هومير الماء أخيراً في وجه الرجل العجوز، فاعتدل السيد جروجان مدهوشاً وفتح عينيه ينظر إلى هومير وإلى صندوق البرق، ثم استجاب للنداء، وهو يقول للصبي: «حسناً فعلت. أسرع الآن... كوباً من القهوة السوداء... أسرع».

وعدا هوميرخارجاً من المكتب إلى محل كوربيت، وعندما عاد كان موظف التلغراف الهرم على وشك أن يعاود النوم ولكنه ما زال على مقعده يؤدي عمله. وبادره قائلاً: «حسناً فعلت يا بُني.. لا تنزعج.. ولا تخف كل الأمور على خير وجه».

وأوقف السيد جروجان العامل عند الطرف الآخر من سلك البرق وراح يرشف قهوته وهو يردِّد:

«انثر الماء البارد أولاً.. ثم أحضر القهوة السوداء..».

فأجاب هومير: «نعم.. يا سيدي.. هل هي برقية هامة؟».

فقال السيد جروجان: «لا.. ليست لها أية أهمية.. مجرد أعمال مالية..تراكم المال. إنها رسالة ليلية ولن تضطر أن توصلها اليوم، فهي تافهة غير هامة..ولكن كان من المهم لي أن أتلقاها!».

ورفع صوته فقد استيقظ الآن واستعاد قوّته وقال صارخاً:

«لقد ظلوا يحاولون سنيناً طويلة أن يأخذوا منّي منصبي. كانوا يريدون أن يقيموا هذه الآلات الجديدة التي يخترعونها الآن في كل مكان.. ملتبلكس وتلتيب.. أنظر.. الآلات بدل الكائنات الإنسانية».

وهدأ صوته ولَطُف وكأنما يحادث نفسه أو يتوجه بالحديث لأولئك الذين كانوا يريدون أن يخرجوه من مكانه في هذا العالم:

«إنني لا أستطيع أن أعرف ماذا أفعل بنفسي لو أنني فقدت هذه الوظيفة... أظنني أموت في سبعة أيام.. لقد ظللت أعمل فيها طوال حياتي ولن أتوقف الآن».

فقال هومير: «نعم يا سيدي..».

رد السيد جروجان: «أعرف أنني أستطيع الإعتماد على معونتك أيها الصبي.. فلقد قدمتها لي فعلاً.. شكراً لك». وراح يدق الأزرار. ولما جاءه الجواب بدأ يكتب البرقية على الآلة ولكنه عاود الحديث من جديد لهومير وفي صوته رنة من كبرياء وزُهو سلكت إلى قلب هومير فأسرته:

«لقد كنت أسرع عمّال التلغراف جميعاً... كنت أسرع من ولنسكي نفسه.. أسرع منه في التلقي والإرسال.. دون أن أخطىء مرة واحدة، أنا وللي جروجان، كل من عمل على التلغراف في العالم يعرف هذا الاسم.. إنهم يعرفون أن وللي جروجان قد فاقهم جميعاً!!».

وتوقف مبتسماً للساعي.. ذلك الصبي الذى قدم بالأمس فقط من أقذر أحياء المدينة ليعمل بالمكتب في الوقت المناسب حقاً.

وقال له: «غَنِّ أغنية أخرى، فأنا وأنت ما زلنا أحياء» وانطلق هومير يغني.

7



إذا ما جاءتني رسالة

كانت السيدة ماكولي في بهو منزلها بشارع سانتا كلارا جالسة على المقعد المتأرجح القديم تنتظر عودة ابنها. ولم يدخل هومير البهو إلا بعد أن انتصف الليل بقليل، واستطاعت أمه أن تدرك أنه ليس متعباً كئيباً ناعساً فحسب، بل فزعاً وقلقاً أيضاً. إنها تعرف أن صوته سيكون خفيضاً مكتوماً إذا ما تكلم كصوت أبيه، فما أشدّ الشبه به. غير أن هومير ظل واقفاً في البهو أمداً طويلاً، وعندما تكلم، لم يمس على الفور ما يهمه من الأمر بل قال: «أماه، إن كل شيء على خير وجه، أنا لا أريدك أن تظلي هكذا مستيقظة كل ليلة...» وتوقف قليلاً ثم أحس أنه

مضطر أن يكرر لها: «كل شيء على خير ما يرام».

فقالت له أمه: «أعلم ذلك.. إجلس الآن».

وتحرك كي يجلس على المقعد المنتفخ بما فيه من حشو. ولكن الصبي لم يستطع أن يمسك نفسه فتساقط متداعياً، وعند ذاك ابتسمت أمه قائلة: «نعم.. أعرف أنك متعب ولكني أستطيع أن أرى أيضاً أنك مهموم مضطرب.. ماذا يشغلك؟».

وانتظر الصبي لحظة ثم بدأ يتكلم بسرعة وعجلة، غير أن صوته بقي هادئاً خفيضاً جداً: «لقد كان علي أن أحمل برقية لامرأة مكسيكية في شارع ج»... ثم توقف فجأة لينهض واقفاً على قدميه.

واستأنف حديثه قائلاً: «لست أدري كيف أقص عليك... لقد كانت البرقية من وزارة الدفاع. كان ابنها قد قتل وهي لا تريد أن تصدق ذلك، كانت لا تريد أبداً أن تصدق!! لم أرَ في حياتي من قبل قلباً كسيراً كقلبها، وجعلتني آكل حلوى.. صنعتها من الصبار. واحتضنتني قائلة إ نني ابنها. ولم يكن ليهمني هذا كله لو أنه جعلها سعيدة، بل أنا لم أهتم حتى بالحلوى!».

توقف قليلاً ثم عاود كلامه: «ظلَت تنظر إلي وكأنني ابنها حقاً حتى ساورتني الريبة في أن أكون فعلاً، وملأني حزن عميق، وعندما عدت إلى المكتب وجدت عامل التلغراف الهرم السيد جروجان وقد ذهبت به الخمرة تماماً كما توقع لنفسه، فقمت بما كان قد طلبه مني.. ألقيت بالماء البارد على وجهه وأحضرت له كوب القهوة السوداء كي يستيقظ! فلو لم يؤدِّ عمله، لأحالوه على المعاش وهو لا

يريد ذلك. وعندما استطعت إعادته إلى وعيه واستطاع أن يؤدي عمله راح يحدثني عن نفسه، ثم بدأنا نغني معاً. وقد أكون أحمق ولكنني أحسست إذ ذاك أنني حزين جداً».

وتوقف عن الحديث ليذرع أرض الغرفة لحظة، ثم واصل كلامه واقفاً عند فتحة الباب منصرفاً بنظره عن أمه:

«أحسست فجأة أنني وحيد، وأن هذه الوحدة لم أستشعرها من قبل. نعم لم أستشعر هذه الوحدة حتى عندما مات أبي... فلقد نظرنا جميعاً إليك أنت ولم تجعلينا نحس أن شيئاً قد تغير، ولم يتغير شيئاً فعلاً، فقد سارت الأمور كلها كما نحب، أما الآن فلست أدري ماذا حدث، لقد تغير كل شيء..» وكررّ بكل ما في شبابه من قدرة على التوكيد «كل شيء!».

ابتعد عن الباب المفتوح ليواجه أمه ثم قال: «في يومين فقط تغير كل شيء وأصبحت وحيداً، دون أن أدري لماذا أنا وحيد» وتحرك مقترباً منها متسائلاً: «أمي؟».

ولم تجب بل ظلت منتظرة أن يستمر في حديثه: «لست أدري ماذا يجري الآن في الدنيا ولا أدري لماذا يحدث هذا كله؟ ولكني لا أريدك مهما حدث لنا أن تجعليه يؤلمك على هذا النحو. فقد تغير كل شيء، ولكني أسألك ألا تجعلينا نحسُّ هذا التغير».

تبسمت المرأة ولكنها ظلت منتظرة وكأنها تعطيه فرصة أن يكمل حديثه، إذا كان ما يزال لديه ما يقوله، فلما لم يتكلم بدأت تتحدث: «لقد تغير كل شيء بالنسة إليك أنت، غير أن كل شيء ما

يزال كما هو . إنك تستشعر الوحدة لأنك لم تعد طفلاً. ولكن العالم مليء دائماً بهذه الوحدة، هي وحدة لم تأتي مع الحرب، فإن الحرب لم تسببها، إنما هي الوحدة التي صنعت الحرب. وهذا اليأس من الأشياء جميعاً لأننا فقدنا نعمة الرب، سنظل نحن معاً ولن نتغير كثيراً. وتأملت لحظة ثم راحت تحدثه كيف يكون لقاؤها بهذا الحدث الذي إذا ما وقع فهو أبشع وأقسى حوادث التغير في دنياهم: «أما أنا فإذا ما جاءتني رسالة كتلك التي جاءت المكسيكية هذه الليلة فسأصدق كلماتها ولا شيء بعد ذلك. لن أكون بحاجة لأن أبكي لأنني أعرف أن ابني لا يمكن أن يُقتل» . وتوقفت لحظة ثم واصلت حديثها وهي تكاد تكون فرحة مرحة: «ماذا تعشيت الليلة؟».

«فطيرة... أجاب هومير تفاح بقشدة جوز الهند اشتراها لنا مدير المكتب.. إنه أكرم شخص عرفته للآن».

فقالت السيدة ماكولي: «سأرسل لك غداً غداءك مع بس».

فأجابها: «لا، لا أريد غداءً، فنحن نفضل أن نشتري شيئاً ونجلس معاً لنأكله. وليس هناك ما يدعوك لتحمّل مشقّة إعداد الغداء وإرساله مع بس، إن من الأمتع لي أن أخرج فأشتري الطعام». وصمت ثم قال:

«إن هذه الوظيفة شيء رائع بالنسبة إلي، ولكنها تجعل المدرسة تبدو سخيفة تماماً».

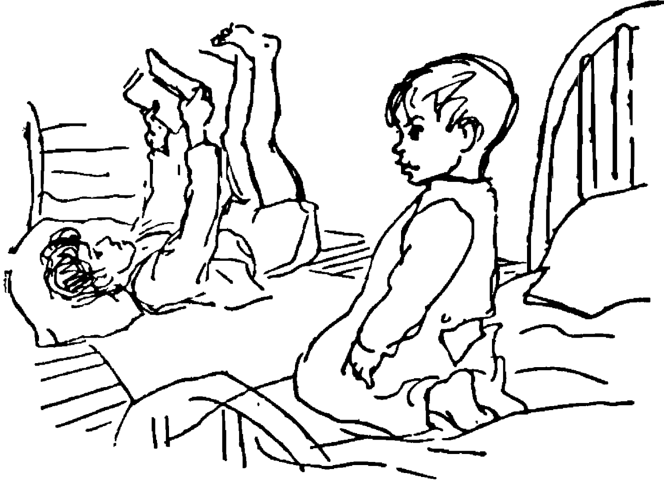
فقالت السيدة ماكولي: «طبعاً، ليست المدارس إلا لتمنع الأطفال من الشوارع، غير أنهم سرعان ما يضطرون للخروج للشوارع

سواء أرادوا ذلك أم لا، وإنه أمر طبيعي أن يخشى الآباء والأمهات على أولادهم ولكن، في الحقيقة، ليس هناك ما يُخشى منه. غير أن العالم ما زال مليئاً بأولئك الصغار المفزوعين، وهم في فزعهم يرهبون بعضهم الآخر ويزدادون فزعاً. فحاول أنت أن تفهم».

وواصلت حديثها قائلة: «حاول أن تحب كل من تلقى. أما أنا فسأنتظرك هنا كل ليلة في البهو، فلا تجعل هذ يضطرك للحديث إلي ما لم ترد أنت ذلك. إنني أفهمك وأعرف أنه ستمر عليك لحظات لا يستطيع فيها قلبك أن يَهِب لسانك كلمة واحدة تقولها..» وتوقفت عن الحديث وراحت تنظر إلى الصبي ثم قالت: «أعرف أنك متعب، فاذهب الآن ونم».

فقال الصبي: «نعم يا أماه». وذهب إلى غرفته.

8



فلتكن حاضراً على مائدتنا أيها الرب

ما كاد جرس المنبه يدق دقته الأولى عند الساعة السابعة صباحاً حتى استيقظ هومير ماكولي وانتصب جالساً، وعدّل الساعة حتى يتوقف رنين الجرس. ثم خرج من فراشه وأحضر دروس بناء الجسم التي تلقاها من نيويورك وبدأ يقرأ تعليمات اليوم. وكان يوليسيس يرقبه وقد استيقظ معه كعادته مع بدء رنين الجرس الذي لم يسمح له هومير أبداً أن يستمر. دروس نيويورك هذه في بناء الجسم هي عبارة عن كتاب صغير مطبوع وآلة من المطاط لفرد العضلات. فتح هومير كتابه على الدرس السابع، على حين زج يوليسيس بنفسه تحت ذراعه ليكون أقرب ما يمكن من الآلة الخرافية. وبعد أن قام هومير

ببعض التمرينات التمهيدية ومن بينها تمرين التنفس العميق، استلقى على ظهره ورفع ساقيه بشدة من على الأرض، فقال له يوليسيس: «ما هذا؟».

ـ تمارين.

ـ لماذا؟

ـ للعضلات...

فقال يوليسيس: «هل ستكون أقوى رجل في العالم؟».

فأجابه هومير: «لا.. لا.».

ـ ماذا ستكون إذن؟

فقال هومير: «اسمع.. عُد إلى نومك».

وعاد يوليسيس طائعاً إلى فراشه، ولكنه ظل جالساً يرقبه حتى بدأ هومير أخيراً يرتدي ملابسه.

وسأله أخوه الصغير: «إلى أين أنت ذاهب؟».

فقال الأخ الأكبر: «إلى المدرسة».

ـ هل ستتعلم هناك شيئاً؟

ـ أنا ذاهب لأجري على الحواجز الاثنين والعشرين...

ـ كيف تجري عليها أو عبرها؟

ـ لن أجري بها إلى مكان ما، إنها حواجز خشبية مقامة كل عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة، وعليك أن تقفز فوقها وأنت تجري.

ـ لماذا؟

فأجابه هومير، وقد كاد صبره ينفذ: «لماذا؟. إنه سباق للعدو، وبه اثنان وعشرون حاجزاً، وكل من ولد هنا يجري في هذا السباق، فهو أهم سباق في إيتاكا، حتى مدير مكتب التلغراف الذي أعمل فيه الآن قد جرى فيه عندما كان في مدرسة إيتاكا العليا، وقد كان بطل الوادي؟».

فسأله يوليسيس: «ومن هو بطل الوادي؟».

ـ أفضل من يجري...

وهل ستكون أفضلهم؟

فقال هومير: «لا أدري... سأحاول.. عد أنت الآن ونم».

فانزلق يوليسيس تحت غطائه وهو يقول: «غداً..» ثم أدرك خطأه وصححه «بالأمس.. رأيت القطار».

وفهم هومير ماذا يريد أخوه أن يقول له، فقد تبسم وهو يتذكر فرحته ودهشته بمرور القطار وسأله:

«وكيف كان؟».

وراح يوليسيس يتذكر في رزانة وهدوء ثم قال: «كان فيه رجل أسود، لوح بيدهَ».

فقال له هومير: «وهل لوَّحت له أنت؟».

فرد يوليسيس: «أنا لوحت أولاً، ثم لوَّح هو، فلوَّحت أنا، ثم لوَّح هو، وكان يغني: كنتكي كفى بكاء».

ـ صحيح؟

ـ لقد قال: «إنني عائد إلى بيتي» ثم نظر يوليسيس إلى أخيه وقال:

ـ متى نعود نحن إلى البيت؟

فقال هومير: «نحن الآن فى بيتنا».

ـ فلماذا لا يأتي هو إلى هنا؟

ـ لكل إنسان بيت غير بيت الآخر، بعضهم بيته في الشرق والآخر في الغرب، وبعضهم في الشمال وبعضهم الآخر في الجنوب... ونحن بيتنا في الغرب.

ـ وهل الغرب أفضل؟

فقال هومير: «لست أدري.. فأنا لم أذهب إلى أى مكان آخر».

ـ وهل ستذهب؟

ـ نعم، يوماً ما.

ـ إلى أين؟

ـ إلى نيويورك.

وأين هي نيويورك؟

ـ في الشرق. وبعد نيويورك لندن، وبعد لندن باريس، وبعد باريس برلين، ثم فيينا فروما فموسكو فاستكهولم.. في يوم ما سأزور كل بلاد العالم الكبيرة.

ـ وهل ستعود؟

ـ طبعاً..

ـ وتكون فرحاً حين تعود؟

ـ لماذا؟

ـ لماذا. سأكون فرحاً لأني سأرى أمي وماركوس وبس.

ونظر هومير إلى أخيه ثم قال: «سأكون فرحاً لأني سأراك، وأرى جارتنا ماري أرينا وأباها السيد أرينا سأكون فرحاً لأني سأعود إلى بيتنا وأجلس لنتحدث وأستمع إلى الموسيقى، ونتعشى معاً».

فتضرع الأخ الأصغر ملحفا: «لا تذهب..هومير..لا تذهب».

فأجابه أخوه الأكبر: «ولكنني لست ذاهباً الآن.. أنا الآن ذاهب إلى المدرسة».

فقال يوليسيس: «لا تذهب أبداً. لقد ذهب أبي ولم يعد، وماركوس أيضاً ذهب.. فلا تذهب أنت أيضاً يا هومير».

فأجابه هومير: «ما زال هناك وقت طويل قبل أن أذهب.. فاذهب أنت ونم».

فقال يوليسيس: «ليكن.. هل ستجري المائتين والعشرين؟».

فصححه هومير: «حواجز المائتين والعشرين ياردة».

وعندما جلس هومير أخيراً إلى مائدة الإفطار وجد أخته بس وأمه تنتظرانه، ولما اجتمع شمل الأسرة انحنت الرؤوس لحظة ثم ارتفعت وبدأوا يتناولون الطعام.

وسألت بس أخاها: «ماذا قلت في صلاتك؟».

فأجابها هومير: «هذه الصلاة التي أقولها دائماً» ثم راح يكرر لها صلاته في نفسها هذه الكلمات التي تعلمها حين كان لا يكاد يعرف كيف يتكلم:

«فلتكن حاضراً على مائدتنا أيها الرب. ولتكن ممجداً هنا وفي كل مكان ولتبارك هذه المخلوقات... امنحنا في الجنة فرحة الوليمة في حضرتك آمين..».

فقالت بس: «أوه... هذه صلاة قديمة، ثم إنك لا تكاد تعي ما تقول».

فرد هومير: «لا، إني أفهمها جيداً، وكل ما في الأمر أني أرددها الآن بسرعة لأني جائع ولكنني أعرف معناها. أليست النية هي التي تحسب على كل حال، ولكن قولي لي ماذا تقولين أنت في صلاتك؟».

فقالت بس: «لا، قل لي أنت أولاً معنى هذه الكلمات».

فأجابها هومير: «ماذا تعنين بمعنى هذه الكلمات؟ إنها لا تعني أكثر مما تقول».

فواصلت بس سؤالها: «حسناً. ماذا تقول؟».

فقال هومير: «فلتكن حاضراً على مائدتنا أيها الرب» هذا يعني، فلتكن حاضراً على مائدتنا أيها الرب، وأيها الرب تعني أشياء كثيرة، ولكنني أعتقد أنها تعني كل خير. و«فلتكن ممجداً هنا وفي كل مكان».. هذا معناها اجعل الأشياء الطيبة الخيرة محبوبة هنا وفي كل

مكان.. و «هذه المخلوقات».. تعني فيما أعتقد نحن.. وكل إنسان آخر.. «بارك».. معناها.. بارك.. قد يكون معناها فيما أعتقد أغفر، أو ربما أحبب، أو إرع، أو شيئاً كهذا، فأنا لست أعرف تماماً ولكني أعتقد أنها تعني شيئاً مثل هذا. اما «امنحنا في الجنة فرحة الوليمة في حضرتك»، فهذه تعني ما تقوله الكلمات بالضبط، امنحنا في الجنة فرحة الوليمة في حضرتك.

فقالت بس: «من هو حضرتك؟».

فالتفت هومير إلى أمه متسائلاً: أليس معنى الصلاة أن الناس إذا كانوا خيرين فإنهم يفرحون بالوليمة في الجنة كل مرة يجلسون فيها إلى المائدة؟ وحضرتك هي كل الأشياء الطيبة، أليس كذلك؟

فأجابته السيدة ماكولي: «طبعاً».

فعادت بس تسأل: «ولكن أليس حضرتك هو الشخص العظيم؟».

فأجابها هومير: «طبعاً.. ولكن أنا أيضاً شخص عظيم، وأمي وأنت وكل إنسان شخص عظيم، فامنحنا أن تكون هذه الأرض جنة وأن يكون من يجلس معنا إلى الطعام شخصاً عظيما.. ثم قال لها نافذ الصبر: «بس إنها صلاة للمائدة، وأنت تعرفين كما أعرف معناها تماماً، كل ما هنالك أنك تريدين أن يختلط علي الأمر، فلا يثيرك هذا فأنت قادرة عليه، بل إني أعتقد أن أي إنسان يقدر أن يخلط علي الأمور، ولكن ما قيمة هذا ما دمت أؤمن، وكل إنسان يؤمن أيضاً، أليس كذلك يا أمي؟».

فقالت السيدة ماكولي «طبعاً إنهم يؤمنون جميعاً، وأنت إن لم تؤمن فلست حياً، بل ستحرم الفرح لا في الجنة فحسب، بل في أية وليمة مهما امتلأت مائدتك بأشهى الطعام! إن الإيمان هو الذي يجعل أي شيء شهياً جميلاً، فليست الأشياء في ذاتها كذلك».

التفت هومير إلى بس قائلاً: «فهمت إذن» وصرف الموضوع برمته نهائياً: «سأجري في سباق حواجز المائتين والعشرين ياردة الذي سيقام اليوم في طريق السبعة».

فقالت أمه «صحيح؟.. لماذا؟».

فأجابها هومير: «لماذا، إنه سباق هام يا أمي، لقد عدا فيه السيد سبانغلر عندما كان في مدرسة إيتاكا العليا، وفي هذا السباق لا يجري المرء فحسب، بل يقفز أيضاً، وهو ما يزال يحمل معه بيضة مسلوقة لتجلب له الحظ».

فقالت بس: «يحمل بيضة مسلوقة لتجلب له الحظ؟.. هذه خرافة».

فأجابها: سواء خرافة أم لا.. ما قيمة هذا؟ إنه يرسلني في كل يوم إلى محل شاترتون أشتري الفطائر المجنونة بالأمس فطيرتين بالتفاح، وقشدة جوز الهند، الاثنتان بربع دولار، أما الفطائر الطازجة فكل واحدة منها بربع دولار، فإذا لم تكوني تنوين أن تصرفي إلا ربع دولار فلن تشتري إلا واحدة منها فقط، أما من فطائر الأمس فإنك تحصلين على اثنتين.. وعند ذلك يعطيني نصف فطيرة والسيد جروجان النصف الثاني، إلا أن السيد جورجان لا يأكل من نصيبه

إلا لقمة أو لقمتين، فآكل أنا قدراً كبيراً من الفطير. إن السيد جروجان يفضل أن يشرب على أن يأكل.

ودخلت المطبخ جارتهم الفتاة ماري أرينا قادمة من الباب الخلفي تحمل في يدها إناء من أواني محل وول وورث الرخيصة ووضعته على المائدة، فترك لها هومير مقعده قائلاً: «تعالي هنا ماري، اجلسي وافطري معنا».

فأجابت ماري: «لقد فرغت الآن من الإفطار مع أبي، وذهب إلى عمله.. شكراً على أية حال، لقد أحضرت معي يا سيدة ماكولي بعضاً من الخوخ الجاف الذي طبخته لأبي».

فقالت السيدة ماكولي: شكراً يا ماري. كيف حال والدك؟

فردت ماري: «بخير.. إلا أنه يغيظني يحب صبحاً ومساءً. ففي صباح كل يوم، ما يكاد يجلس إلى المائدة حتى يسألني قبل أن يقول شيئاً آخر: «ألم تصل خطابات؟» ألم تأت بعد من ماركوس خطابات».

فقالت بس: «لا بد أن يصلنا قريباً منه خطاب». ثم تركت مقعدها على المائدة قائلة «هيا بنا يا ماري، فلنذهب الآن».

فردت ماري: «نعم يا بس». والتفتت إلى السيدة ماكولي: «لكني أقول لك الحق، لقد ضجرت وتعبت من الذهاب إلى الكليَّة، فلا فارق بينها وبين المدرسة العليا، ثم إنني قد كبرت على أن أصرف كل وقتي هكذا في الذهاب إلى المدرسة.. لقد تغير الزمن! وأنا، أريد أن أذهب فأبحث لنفسي عن عمل في أي مكان».

فأيدتها بس قائلة: «وأنا أيضاً أريد ذلك..».

فردت السيدة ماكولي: «هذا كلام فارغ، أنتما مازلتما طفلتين.. ألستما في السابعة عشرة فقط؟ إن لأبيك يا ماري وظيفة طيبة وكذلك لأخيك يا بس».

فقالت ماري: «ولكن ألا ترين يا سيدة ماكولي أنه ليس من العدل ألاّ نفعل شيئاً إلاّ مجرد الذهاب إلى المدرسة في الزمن الذي يذهب فيه ماركوس إلى الجيش ولا يهتم الناس فيه إلا بأن يخرج كل منهم مع الآخر!! تمر بي أوقات أتمنى فيها لو كنت رجلاً فأستطيع أن أكون مع ماركوس في الجيش!!.. لو صح هذا فما أكثر ما كنا سنناله معاً من فرح ومتعة».

فقالت السيدة ماكولي: «لا تدعي هذا يزعجك كثيراً يا ماري، فهذا كله سينتهي وستعود الأمور جميعاً إلى ما ألفناه من قبل».

فأجابت ماري: «نعم، أرجو هذا» ومضت ذاهبة هي وصديقتها بس ماكولي إلى المدرسة. وراح هومير يرقب الفتاتين تنصرفان، ثم سأل أمه بعد لحظة: «أمي! ماذا تقولين في هذا؟».

فردت السيدة ماكولي: «إنه أمر طبيعي تماماً أن ترغب فتاتان مثلهما في الخروج إلى الدنيا وهز أعطافهما».

فقال هومير: «أنا لا أقصد رغبتها في الخروج وهز الاعطاف، إنما أعني ماري».

فأجابته السيدة ماكولي: «إن ماري فتاة لطيفة لا تصنُّع فيها كالأطفال، إنها أقرب الفتيات إلى براءة الأطفال!! وأنا سعيدة جداً

أن ماركوس قد أحَّبها، فلن يستطيع أن يجد ألطف منها فتاة».

فقال هومير نافد الصبر: «أمي! أعرف هذا كله وليس هذا ما أحدثك عنه الآن.. ألا تفهمينني؟».

وتوقف هومير عن الكلام وكأنما أدرك أنه لا جدوى من التحدث عما يعتمل في نفسه الآن من أن هذه الحرب ستجلب الألم والحزن للكثيرين ممن لم يشتركوا فيها أو يقاربوها، فصرف الحديث فجأة قائلاً:

«أوه.. سأراك عندما أعود الليلة إلى البيت.. إلى اللقاء».

ووقفت السيدة ماكولي ترقبه وهو ينصرف متسائلة ماذا عساه كان يريد أن يقول. وعلى حين فجأة لمحت بطرف عينها شخصا صغيراً جداً. كان يوليسيس ينظر إليها وهو في قميص نومه كما ينظر الحيوان الصغير إلى ذلك الآخر من جنسه الذي يجد فيه أقصى سعادته وراحته،وامتلأ وجهه بتعبير جدي عميق آسر إلى أقصى حد. واتجه يوليسيس إليها قائلاً: «لماذا يقول.. كفى بكاء، كفى بكاء؟

فقالت السيدة ماكولي: «من هذا؟».

ـ الرجل الأسود في القطار.

فأجابته أمه وهي تأخذ يده: «إنها أغنية يا يوليسيس. تعال الآن وغيرّ ملابسك».

وسألها الصبي الصغير: «هل سأرى الرجل الأسود اليوم أيضاً في القطار؟».

ففكرت السيدة ماكولي لحظة ثم قالت: «نعم».

9



الأرانب هنا في مكان ما

مر هومير ماكولي في طريقه إلى المدرسة بحاجز من الأعمدة الخشبية المدببة يسيّج قطعة من الأرض مليئة بالأعشاب على طريق سان بنيتو. وكان السياج قديماً بالياً لا نفع منه، إلا أنه يسيّج في عظمة مضحكة، قطعة من الأرض الخراب يحمي أعشاباً ضجرة مملولة لا تحتاج إلى رعاية أو حماية!! ورد تلميذ النهار وساعي الليل دراجته إلى وقفة مفاجئة سريعة وأنزل حمالتها لتقف عليها وأسرع إلى السياج وكأنما سيكتشف خلفه شيئاً خاطفاً سريعاً يخاف عليه أن يضيع إذا لم يسرع وراءه! غير أن السياج كان يزيد ارتفاعه حوالى قدم واحدة على الارتفاع المقرر لحواجز السباق، وهذا الشيء

الخاطف السريع وراءه لا بد أنه، أياً كان، إنما يسير بسُرعة يستغرق معها قرناً كامِلاً قبل أن يختفي. فقد وقف هومير يتفحص السياج ويدرس الأرض من ورائه وتلك المنطقة التي سيعدو فيها من أمامه، ثم راح يقيس ارتفاعه الذي وجده يزيد كثيراً على ارتفاع وسطه، ولكنه بدأ يجرب نفسه ببضع قفزات ثم تراجع عشر ياردات إلى الوراء.. وفجأة، وحتى دون أن يعلن ذلك بينه وبين نفسه، انطلق في تحمس وفورة عادياً ناحية السياج، فلما اقترب منه قفز قفزة رائعة رفس فيها السياج فحطّم جزءاً منه وسقط واقفاً على الأعشاب، ولكنه سرعان ما قام راجعاً إلى تجربة أخرى. وكان خشب السياج يتحطم بسهولة ويُسر محدثاً صوتاً لا يتلاءم وشرخه البالي، فيبدو مضحكاً فكهاً. وبلغ مجموع محاولات هومير سبعاً لم تنجح واحدة منها، غير أنه لم يتوقف إلا بعد تّحّطم السياج إلى حدّ كبير.

وخرج من البيت القائم على الناحية الأخرى من الطريق رجل هرم يسير مستنداً إلى عصا ويدخن غليوناً، ووقف يرقب هومير! وأخيراً، عندما راح هومير ينفض عن نفسه غبار سقطته الأخيرة، تكلم الرجل قائلاً: «ماذا تفعل؟».

فأجاب هومير: «أقفز».

ـ هل أصبت نفسك؟

ـ لا.. لا.. كل ما في الأمر أن السياج عالٍ قليلاً وهذه الأعشاب زلقة أيضاً.

نظر العجوز إلى الأعشاب لحظة ثم قال: «هذه أعشاب لينة كثيرة

العصارة، وهي غذاء ممتع جداً للأرانب، والأرانب تحُبها كثيراً. لقد كان عندي منذ إحدى عشرة سنة بيتاً للأرانب ولكن أحدهم جاء عند منتصف الليل وفتح الباب فوّلت جميعُها هاربة».

فقال هومير: «ولماذا فتح الباب؟».

فأجاب الرجل: «لست أدري، وأنا لم أستطع أن أعرف أبداً من الذي قام بذلك، ولكني فقدت ثلاثة وثلاثين من أجمل ما رأيت من الأرانب. كان بينها البلجيكي والأحمر العين والقططي الوجه ونوعان أو ثلاثة أنواع أخرى.. ولم أستطع أبداً أن أعرف من الذي عمل ذلك».

فسأله هومير: «أتحب الأرانب؟».

فقال العجوز: «إنها حيوانات صغيرة لطيفة، والمستأنس منها وديع جداً».

وألقى العجوز نظرة على أعشاب الأرض الجرداء وقال: «ثلاثة وثلاثون أرنباً ترعى العراء أحد عشرعاما! من ذا الذي يستطيع اليوم أن يحصي عددها وقد توالدت كما تفعل دائماً، أو من ذا الذي يعرف كيف أصبحت متوحشة برية.. إنني لن أعجب الآن إذا ما رأيت المدينة قد امتلأت بالأرانب البرية».

فقال هومير: «ولكننى لم أرَ أبداً ولو واحداً منها».

فردّ الرجل العجوز: «محتمل، ولكنها هنا.. في مكان ما، بل لعلها قد اكتسحت المدينة بأكملها، ولن يمضي عام أو عامان حتى تصبح هذه الأرانب مشكلة عويصة».

ولكن على الرغم من هذه المشكلة امتطى هومير دراجته قائلاً للرجل: «حسناً، أنا مضطر للذهاب الآن، سأراك مرة أخرى».

فقال الرجل الهرم: «عِدني أن تفعل ذلك.. أنا اسمي تشارلز.. ويكفي أن تدعوني شارلي.. تعال في أيِّ وقت وافعل ما بدا لك هنا.. مرحباً بك دائماً».

فقال هومير: «نعم، يا سيدي» وعاد إلى موضوعه الخاص الذي يشغله، فقال يعلن الخبر للرجل العجوز:

سأجري في سباق المائتين والعشرين ياردة للقفز المنخفض الذي سيقام عصر اليوم بميدان سباق المدرسة العليا.

فردَّ الرجل العجوز: «أنا لم أذهب إلى المدرسة العليا ولكني شاركت في الحرب الأميركية الإسبانية».

فقال هومير: «حقاً.. يا سيدي؟.. حسناً!. إلى اللقاء».

فقال الرجل العجوز وقد أصبح الآن حديثه لنفسه: «أوه.. نعم الحرب الأميركية الإسبانية.. وفررت كالأرانب معظم الوقت».

واختفى هومير عند زاوية الطريق، وراح العجوز يسير ناحية بيته المتهدم بخطواتٍ بطيئة، نافخاً غليونه ومتأملاً الأرض من حوله، وغرز عصاه في كومة من الأعشاب وقال: «الأرانب هنا.. في مكان ما.. لقد توحّشت الآن ولم تعد كما كانت».

10



التاريخ القديم

كانت الحواجز قد أقيمت على طريق السباق في أرض الملعب الخاص بالمدرسة العليا، استعداداً لسباق 220 ياردة في العدو والقفز المنخفض. وتجمّع في هذا الصباح أربعة من الصبية يتدربون استعداداً للسباق. وكانوا جميعاً بلا استثناء يعدون عدواً طيباً ويقفزون بأسلوب جميل ونظام محكم. وتقدم المدرب بايفليد وساعة السباق في يده إلى الفائز قائلاً له: «أحسنت هذه المرة يا آكلي».

كان بيّناً أن الصبي ليس من الصبية العاديين، غير أن تميّزه على الرغم من هذا لم يكن بارزاً جداً، كان صبياً من أولئك الذين يتبدى في مسلكهم دعَة أولاد الأُسر التي نعمت أجيالُها القريبة بما تحتاج

إليه من ملبس ومطعم ومسكن، وأصبح في قدرتها أحياناً أن تتزاور وأن تحتفل بمن يزورها من أمثالهم ذوي الحظ السعيد.

وعاد المدرب يقول للصبي: «ما زال أمامك أن تتعلم الشيء الكثير ولكني أعتقد أنك ستفوز اليوم في هذا السباق».

فأجابه الصبيّ: «سأبذل جهدي يا سيدي».

رد المدرب: «نعم، أعرف ذلك، إنك على أية حال لن تلقى منافسة، ولكنك بعد أسبوعين ستجد كثيرين ينافسونك في سباق الوادي، إذهب الآن واغتسل واسترح حتى العصر».

فأجابه الصبي: «سأفعل يا سيدي»، وتحرك منصرفاً ولكنه توقف فجأة يسأله: «معذرة يا سيِّدي، كيف وجدت زمني الذي سجلته؟».

فأجاب المدرب: «ليس بالرديء ولا بالحسن جداً، ولو كنت مكانك لن أشغل نفسي الآن بالزمن، كل ما عليك هو أن تجري كما علمتك، وأعتقد ستكون في المقدمة».

وكان العداؤون الثلاثة الآخِرون قد تجمّعوا في ركن واحد يرقبونهما ويسمعون حديثهما، والتفت أحد الصبية قائلاً للآخرين: «قد يكون في مسلكه ما يشبه أخواتنا البنات، ولكن ها هو يأتي دائماً في المقدمة، ماذا جرى لك يا سام؟».

فقال سام: ماذا جرى لي؟ ماذا جرى لك أنت! لِمَ لَم تغلبه؟ قال الصبي: «كنت الثاني».

فقال الصبي الآخر: «الثاني والثالث سواء».

وقال سام: «أيغلبنا هبرت آكلي الثالث!! ما أحرانا أن نخجل من أنفسنا!!».

فرد الثاني: «طبعاً، ولكن ليس لدينا حجة أو عذر... كل ما في الأمر أنه يجري أفضل منا». والتفت المدرب إلى هؤلاء الثلاثة مخاطباً إياهم بلهجة مغايرة تماماً عن اللهجة الأولى: «هيه.. لماذا تقفون هكذا ساكتين.. تحركوا.. لستم من الروعة بحيث تكتفون بالوقوف هكذا تفخرون بأنفسكم.. هيا قفوا في أماكنكم وحاولوا مرة أخرى».

وعاد الصبية إلى أماكنهم دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، وأرسلهم المدرب مرة أخرى يعدون على طريق السباق، وبعد أن بدأو العدو صمّم في نفسه على أن يجعلهم يقطعون السباق مرتين أخرَيْين قبل اللقاء فيما بعد الظهيرة، فقد كان يبدو أنه يريد ألا يفوز في هذا السباق غير هبرت آكلي الثالث.

كان فصل التاريخ القديم يمتلئ بسرعة، وقد وقفت السيدة هيكس تنتظر أن يدق الجرس الأخير، وأن يسود فصلها ذلك الهدوء والنظام اللذان يعلنان عن بدء محاولة جديدة من محاولاتها في تعليم صبية إيتاكا وبناتها إن لم يكن تسليتهم، في مدرستهم العليا التي تعدُّهم ولو نظرياً، لمواجهة العالم. وجلس هومير ماكولي، وقد أزعجه شعورٌ كاد يصل إلى حد العبادة، يتفحص فتاة اسمها هيلين اليوت وهي تسير داخلة من الباب إلى مقعدها في الفصل. وليس من شك إذن أن هذه الفتاة كانت أجمل فتاة في العالم، إلا أنها كانت إلى

جانب ذلك مغرورة متكبرة، غير أن هومير لم يكن يريد أن يصدق أن هذا الطبع أصيل دائم فيها، وبالرغم من هذا، وبالرغم من هيامه بها، فقد ظل غرور هيلين اليوت هذا أقسى وأمرّ ما في حياته المدرسية بأكملها.

جاء وراءها هيلين هبرت اكلي الثالث، وعندما قاربها تبادل وإياها الهمس لحظة، فأثار غضب هومير كثيراً.

ودق الجرس الأخير، فقالت المدّرسة: الآن أرجوكم الصمت، من الغائب؟

فردّ أحد الصبية: «أنا» وكان هذا هو جو تيرانوفا، مضحك الفصل وشخصيته الفكهة، وسرعان ما استجاب له ولبديهته السريعة الحمقاء أولئك المخلصون الأربعة أو الخمسة الذين يكوّنون أفراد مجموعته المضحكة، ولكن هيلينا إليوت وهبرت آكلي التفتا مقطبين إلى أولئك الحمقى وهذه الشرذمة من سيِّئي التربية أولاد سكان الحارات والأزِّقة الذين جاؤوا يتعلمون معهم في الفصل، وأغضبت هذه النظرة هومير جداً، حتى إنه انفجر وحده، وبعد أن سكت الجميع عن الضحك، في قهقهة مصطنعة أطلقها مباشرة في وجه هبرت الذي يحتقره وهيلين معبودته، ثم تحول بنظره سريعاً إلى جو قائلاً: «أما أنت يا جو فالزم الصمت إذا ما تكلمت السيدة هيكس».

وتكلمت السيدة هيكس قائلة: «الآن لا نريد شيئاً من سخافاتك أنت يا جوزيف» والتفتت إلى هومير: «ولا أنت أيها السيد الصغير». وتوقفت لحظة تشمل الفصل كله بنظراتها ثم قالت: «والآن، سنعود

إلى الآشوريين حيث تركناهم بالأمس، وأريد منكم جميعاً أن تعطوني انتباهكم كاملاً.. من كل واحد منكم أريد انتباهاً كاملاً مركزاً، وسنقرأ أولاً من كتاب التاريخ القديم ثم نتناقش شفوياً بعد ذلك ما قرأنا».

ولم يستطع مضحك الفصل أن يترك هذه الفرصة للمزاح تفلت منه، فقال للمّدرسة وكأنما يقترح عليها:

«لا يا سيدة هيكس، لا نتناقش شفوياً بل نتناقش في صمت حتى أستطيع أن أنام» وانفجر المُخلصون مِن جديد ضَحِكاً للاقتراح وازوّر عنه المغرورون المتكبرون اشمِئزازاً، ولم تستطع السّيدة هيكس أن تردّ على المضحك مباشرة فلم يكن من السهل عليها أولاً أن تمنع نفسها من السرور ببديهته ولا أن تجد من ناحية أخرى، طريقة تتصرف بها معه فلا تمنع روحه الفكهة من أن تستمر. غير أنه، على الرغم من ذلك، كان من الضروري أن تُلجِم رغبته في الخروج على النظام. وتكلَّمَت أخيراً قائلة له: «أليس من الواجب ألاَّ تكونَ قاسياً على هذا النحو يا جوزيف، وبخاصَّة إذا كنت أنت المصيب وأنا المخطئة؟»».

فقال المضحك: «حسناً يا سيدة هيكس، أنا آسف، أظن أنني لم أستطع أن أمنع نفسي! لقد قلت مناقشة شفوية! وهل هناك نوع آخر من المناقشة؟ ولكن، حسناً، أنا آسف» ثم أشار إليها في لون من التهكُّم على نفسه وعلى ادّعائه قائلاً في أستاذيه: «استمري يا سيدة هيكس».

فقالت المدرسة: «شكراً لك.. والآن استيقظوا جميعاً».

فقال جو: «يستيقظون؟.. أنظري إليهم، إنهم نصف نيام».

وعلى الرغم من أن حماقات جو كانت تُسِرّ المدّرسة العجوز، فإنها أصبحت مضطرة أن تقول: «إن قاطعتني مرة أخرى يا جوزيف، سأضطر أن أرسلك إلى مكتب الناظر».

فقال المضحك: «أنا لا أريد إلا أن أحصّل لنفسي شيئاً من العلم، أنظري إليهم، إنهم نصف نيام، أليس كذلك؟» وراح يستعرض وجوه تلاميذ الفصل جميعاً ثم أردف: «بل حتى إن إخوتي جميعاً، من أكبر لاعبي البايسبول».

وتطوع هومير قائلاً لصديقه: «أوه.. جو.. أُسكتْ، ليس هناك ما يدعو لأن تظل تستعرض نفسك هكذا دائماً طوال الوقت، فكلنا يعرف أنك لبق».

فقالت السيدة هيكس: «لن أسمح بكلمة أخرى لأيّ واحد منكما». ثم عادت تقول: «والآن افتحوا ص 117 الفقرة الثانية من الكتاب» وقلب الجميع كتبهم حتى وصلوا إلى هذه الصفحة والمكان الذي أشارت إليه، وواصلت هي كلامها قائلة: «قد يبدو درس التاريخ القديم أمراً مملاً لا ضرورة له. ففي مثل هذا الوقت الذي نعيش فيه ويسجل فيه التاريخ أحداثاً جديدة، قد يبدو للبعض أن درس هذه العصور الغابرة، ومحاولة تفهمها أمر لا فائدة منه، ولكن هذه الفكرة خاطئة تماماً، فمن المهم جداً أن نلم بالأزمان والحضارات القديمة، وأن ندرس حياة الشعوب في عوالم أخرى غير عالمنا هذا. من منكم سيتطوع للمجيء هنا إلى رأس الفصل ليقرأ؟» ورفع هبرت آكلي الثالث وفتاتان أيديهم، فالتفت جو المضحك إلى هومير وقال له:

ـ أنُظر هذا الغلام!!

واختارت المدرسة هيلين إليوت الفتاة الجميلة المتكبرة للقراءة. وراح هومير يُراقبها مسحوراً بها وهي تسير إلى رأس الفصل، فلما وصلت وقفت لحظة، في تمام بهائها، ثم بدأت قراءتها في أحلى ما يتصوره الخيال من صوت جميل عذب. وهومير يتأمل مأخوذاً بتلك المعجزة الخارقة التي جمعت بين جمال الصوت وجمال الجسد.

قرأت هيلين أليوت: «كان الآشوريون، طوال الأنوف والشعر واللحى وقد جعلوا من مدينتهم نينوى في الشمال مركزاً لقوة كبيرة، وظلوا أمداً طويلاً يصارعون الحثيين والمصريين وغيرهم، فينهزمون مرة وينتصرون أخرى، حتى استطاعوا أخيراً أن يغزوا بابل تحت حكم ملكهم تيجلات بيلسر الأول فى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وظلت نينوى التي بنيت بالحجر، وبابل التي بنيت بالطوب تتبادلان السلطة عدة قرون. وليس هناك أية صلة بين الآشوريين والسوريين، فقد حارب الآشوريون السوريين حتى هزمهم تيجلات بيلسر الثالث ونفى منهم قبائل إسرائيل العشر الضالة».

توقفت هيلين لحظة تجذب نفسها النضر استعداداً لقراءة الفقرة التالية، إلا أن هومير ماكولي لم يمكنها من ذلك، إذ قال مقاطعاً: «وماذا عن هبرت آكلي الثالث؟ من غزا؟ وماذا فعل؟». فانتقض الصبي المؤدب على قدميه غاضباً دون الخروج عن التهذيب، وقال في جدية صارمة: «سيدة هيكس، أنا لا أسمح أن تمر مثل هذه

الإهانة المقصودة دون أن يوقف صاحبها ويعاقب. وإني مضطر أن أسألك أن تأمري السيد ماكولي بالذهاب فوراً إلى مكتب الناظر». واكتسى صوته نبرة الإصرار والعزم وهو يقول:

«وإلا فسأضطر أنا إلى التصرف».

قفز هومير عن مقعده قائلاً: «آه.. اخرس ! أليس اسمك هبرت آكلي الثالث، ماذا فعلت إذن في حياتك أو، ما دام الموضوع قد أثير، ماذا فعل هبرت آكلي الثاني أو هبرت آكلي الأول؟».

وتوقف لحظة ثم اتجه إلى السيدة هيكس ثم إلى هيلين اليوت قائلاً: «أعتقد أن هذا سؤالاً جيداً ومفيداً» ثم التفت إلى هبرت آكلي مكرراً سؤاله: «ما الذي قاموا به؟».

فقال هبرت آكلي: «أقل ما في الأمر أن واحداً من عائلة آكلي لم يكن...» وتوقف يبحث عن كلمة قارصة مناسبة ثم قال أخيراً «ألعبانا». كلمة لم يسمعها أحد من قبل في إيتاكا.

فرددها هومير متسائلاً: «ألعباناً» والتفت إلى المدّرسة يسألها: «ما معنى هذه الكلمة يا سيدة هيكس؟» لماذا لا تعرفينها؟ التفت هومير بسرعة إلى هبرت آكلي مواصلاً: «اسمع، أنت أيها الثالث، إياك أن توجّه إليّ، هكذا شتائم لم أسمعها من قبل».

فقال هبرت: الألعبان إذن هو «المهرج» «المتصنع». وتوقف يبحث عن كلمة أخرى أكثر عامية.

فصاح فيه هومير: «إخرس» والتفت إلى هيلين اليوت مبتسماً ابتسامة بيت ماكولي الشهيرة وردد الكلمة:

«ألعبان!! من أي باب هذا من أبواب السباب؟» ثم عاد إلى مقعده وجلس.

وانتظرت هيلين إليوت إشارة من المدرّسة كي تواصل قراءتها ولكنها لم تفعل، وفهم هومير أخيراً مقصدها، فقام واقفاً وقال لهبرت آكلي الثالث: «إني جد آسف وأعتذر منك».

فقال الشاب المهذب: «أشكرك» وجلس.

ولكن مدّرسة التاريخ القديم ألقت بنظرها لحظة على الفصل كله ثم قالت: «هومير ماكولي وهبرت آكلي يظلان على مقعديهما بعد انتهاء الدروس».

فقال هومير: «ولكن يا سيدة هيكس، ماذا نفعل في سباق المدرسة؟».

فأجابت المدرّسة: «سباق المدرسة هذا لا يهمني، وتربية أخلاقكم مهمة كتربية أبدانكم تماماً، إن لم تكن أهم».

ولكن هبرت آكلي قال: «سيدة هيكس، مدرسة إيتاكا العليا تعتمد عليّ في كسب سباق الاثنين والعشرين حاجزاً بعد ظهر اليوم، وفي أن أكون خير ممثل لها بعد أسبوعين في سباق الوادي. وأنا أخشى من إصرار المدرب بايفليد على اشتراكي في السباق».

فقال هومير: «أنا لا أعرف شيئاً عن إصرار المدرب، كل ما أعرفه أنني سأعدو بعد ظهر اليوم في سباق الحواجز. هذا كل ما في الأمر...».

ونظر هبرت آكلي إلى هومير وقال: «أنا ليس عندي أيّ فكرة عن أنك مشترك في هذا السباق».

فأجابه هومير: «حسناً، فلتعلم إذن أنني مشترك».

ثم التفت إلى المدّرسة قائلاً: «أنا أعدك يا سيدة هيكس لو تركتنا نذهب هذه المرة ألا أحدث شغباً مرة أخرى، وأن أكون مطيعاً وألا أفعل شيئاً أبداً، وهبرت أيضاً يعدك هو الآخر، واتجه إليه سائلاً: «أليس كذلك؟»».

فقال هبرت: «نعم يا سيدة هيكس أعدك».

ولكن مدّرسة التاريخ القديم قالت لهما: «كلاكما سيظل هنا بعد الدراسة، أكملي قراءتك يا هيلين».

فعادت هيلين تقرأ: «واستطاعت الجيوش المتحالفة، جيوش الكلدانيين في الجنوب وجيوش الميديين والفرس من الشمال، أن تحطم الإمبراطورية الآشورية، فخضعت ودانت نينوى لسلطانهم. ثم حكم بختنصّر الثامن إمبراطورية بابل الثانية ولكن جاء بعد ذلك كسرى الكبير ملك الفرس وجيوشه الغازية، إلا أن انتصاره لم يكن إلا دورة من دورات الزّمن، فقد قُدّر على حفدة جنوده المنتصرين أن يخضعوا بدورهم للإسكندر الأكبر».

وأحس هومير بالضجر لما حدث وحل به التعب نتيجة العمل ليلة أمس، وتأثر بصوت الفتاة الحلو الذي يعتقد أنه موجه له وحده، فأراح رأسه ببطء على ذراعيه المعقودتين، وبدأ ينعم بحال أشبه ما تكون بالنوم، غير أنه لا يزال قادراً على أن يسمع صوت الفتاة وهي تقرأ.

«ومن انصهار هذه الحضارات كلّها معاً ورث العالم تراثاً كبير القيمة. فشريعة موسى التي جاءت في التوراة تدين في بعض مبادئها لبعض القوانين التي صاغها حمورابي الذي عرف باسم أبي القوانين.

وكذلك طريقتهم في الحساب التي كانوا يستعملون فيها مكعب العدد 12 ونظامنا العشري المألوف، أخذنا عنهم تقسيمنا للساعة إلى ستين دقيقة وللدائرة إلى 360 درجة، وأعطانا العرب الأرقام التي ما زالت تعرف إلى الآن بالأرقام العربية تمييزاً لها عن الطريقة الرومانيّة في الترقيم، أما الآشوريون فهم الذين اخترعوا المزولة الشمسية، وإلى البابليين ترجع رموزنا الطبية الحديثة وعلامات الأبراج الفلكية، وقد أثبتت الكشوف الأثرية مؤخراً أنه قد قامت آسيا الصغرى إمبراطورية عظيمة».

وراح هومير يحلم: «إمبراطورية عظيمة؟ أين إيتاكا؟ إيتاكا بكاليفورنيا؟ ثم ولت هكذا بلا أثر، هكذا بلا شعب عظيم، والإختراعات كبيرة، لا مزاول شمسية ولا أرقام، ولا أبراج ولا حتى فكاهة، لا شيء هكذا على الإطلاق؟ أين كانت هذه الإمبراطورية؟». وقرر أن يعتدل في جلسته وراح ينظر حوله، ولكنه لم ير غير وجه هيلين اليوت ولعل هذا الوجه هو أعظم الإمبراطوريات جميعاً في نظره. ولم يسمع إلا ذلك الصوت الرائع، صوتها وما أجدره أن يكون أعظم ما حققته الإنسانية الجاهدة! وكانت تقول: «وانحدر الحثّيون مع الساحل ودخلوا مصر. ومزجوا دماءهم بدماء القبائل العبرانية، فأخذ العبرانيون الأنف الحِثّي».

وتوقفت هيلين عن القراءة والتفتت إلى مدّرسة التاريخ القديم قائلة: «هذه نهاية الفصل يا سيدة هيكس».

فقالت السيدة هيكس: «حسناً هيلين شكراً على هذه القراءة الممتازة.. إجلسي».

11



خطاب في الأنف الإنساني

انتظرت السيدة هيكس عودة هيلين إلى مقعدها وراحت تستعرض وجوه تلاميذها، ثم قالت:

«والآن، ماذا، تعلمنا؟».

فأجاب هومير: «الناس في جميع أنحاء العالم لها أنوف».

ولم تثر هذه الإجابة السيدة هيكس بل أخذتها على علاتها وقالت: «وماذا أيضاً؟».

فرد هومير أيضاً قائلا: «وإن الأنوف لم تخلق فحسب لننفخها أو لنصاب بالبرد فيها، بل لتحفظ كذلك في سجلات التاريخ القديم».

فانصرفت السيدة هيكس عن هومير قائلة: «غيره، أرجوكم، يبدو أن هومير قد فتن بالأنوف».

فقال هومير: «ولكنها في الكتاب، أليس كذلك؟ ولماذا يذكرونها إذن؟ لا بد أنها مهمة».

فقالت السيدة هيكس: «لعلك إذن يا سيد ماكولي تحب ارتجال خطبة عن الأنف؟»).

فأجاب هومير: «في الحقيقة.. ليست خطبة بالمعنى الدقيق.. ولكن التاريخ القديم يعلمنا شيئاً» وهدأ حديثه وأخذ في إصرار لا يستدعيه الموضوع يواصل كلامه: «كان للناس دائماً أنوف، ولا يتطلب منا البرهان على هذا إلا النظر حولنا إلى كل فرد في هذا الفصل» ونظر حوله إلى كل فرد ثم قال: «فالأنوف هنا في كل مكان..» وتوقف لحظة يبحث عما يمكن أن يقوله أيضاً في هذا الموضوع، فلما استقر رأيه استمر قائلاً: «وقد تكون الأنوف أكثر أجزاء الوجه الإنساني بعثاً على الزراية والاستخفاف، وكانت دائماً مصدراً من مصادر الحرج للجنس البشري، وقد تكون السبب في أن الحثّيين كانوا يوقعون بكل من يتصدى لهم، إن أنوفهم كبيرة مقسومة. فليس الذي اخترع المزاول الشمسية هو العظيم الخطير الشأن، إذ لا بد أن يأتي بعده عاجلاً أم آجلاً من يخترع الساعات، أما العظيم الخطير الشأن حقاً فهو الذي له الأنف»).

وكان المضحك جو يصغي في انتباه وإعجاب عميقين، إن لم يكن بداعي الحسد، هومير يواصل خطابه قائلاً: «وبعض الناس يتكلمون من أنوفهم، وكثيرون يسمع لهم شخير، وقلة قليلة تصفر أو تغني من

خلالها. ومن الناس من يسحبون من أنوفهم، وآخرون يستعملون الأنف في التصيد والتلصص في أماكن عديدة. وكثيراً ما عضت الأنوف الكلاب المجنونة أو الممثلون على الشاشة في قصص الحب العنيف. وما أكثر ما ردت دونها الأبواب، وما أكثر ما أمسكت بها ضرابات البيض أو القلابات الآلية في الحاكي. والأنوف، كالشجرة، شيء ثابت، غير أنه مزروع في الرأس المتحرك، فما أكثر من حل بهم العقاب لأنهم حملوا إلى مكان لم يكن فيه إلا شخصاً واحداً يدسُّ أنفه في شؤون الغير. على الرغم من أن للأنف وظيفة طبيعية هي أن يشم ما في الهواء، فإن بعض الناس يشمخون به استهزاءً بأفكار الآخرين وبمسلكهم أو مظهرهم!».

والتفت بنظره إلى هبرت آكلي الثالث ثم إلى هيلين اليوت التي انحدر أنفها لسبب ما إلى أسفل قليلاً بدلاً من أن يرتفع عالياً ثم قال: «هؤلاء الناس يرفعون عادة أنوفهم إلى السماء وكأنما يحسبون في هذا وسيلة لدخولها. ولمعظم الحيوانات خياشيم تشم بها، فالقليل منها له أنوف بالمعنى الذي نفهمه، غير أن حاسّة الشم في الحيوان قوية متطوّرة أكثر مما هي عند الإنسان الذي له أنف حقّاً، ولا جدال في ذلك».

وأخذ هومير نفساً عميقاً وقد قرر أن ينهي خطابه قائلاً: «وأهم شيء عن الأنف على كل حال أنه يسبب المتاعب ويثير الحروب ويبث الصداقات القديمة ويحطِّم الكثير من البيوت السعيدة، سيدة هيكس هل أستطيع الآن أن أذهب إلى السِّباق؟».

وعلى الرغم من أن مدّرسة التاريخ القديم قد أعجبتها هذه القدرة على الإبداع والتخيل في الحديث عن مثل هذا الموضوع التافه، فإنها

لم تكن لتسمح بهذا النجاح الذي أحرزه أن يتدخل في ضرورة صيانة النظام بفصلها، فأجابته قائلة: «أنت يا سيد ماكولي ستبقى هنا بعد انتهاء الدراسة، وأنت يا سيد آكلي! الآن وقد خلصنا من أمر الأنوف. أرجو أن يعلق واحد آخر على ما قرأنا».

ولكن أحداً لم يخاطر بتعليق، فعادت السيدة هيكس تقول:«هيه.. ماذا جرى.. هيا.. فليعلق أحد غيره.. أي أحد!».

وأجاب جو المضحك دعوتها قائلاً: «الأنوف حمراء والبنفسجة زرقاء، وهذا الفصل ميت، وأغلب الظن كذلك أنت».

فقالت السيدة هيكس: «أليس هناك أحد غيره؟».

فأجابت فتاة: «الملاحون والرحالة المكتشفون لهم عادة أنوف كبيرة».

فقال جو: «كل من له رأسان له أنفان».

وقال أحد المعجبين بجو: «لم يطلع الأنف أبداً في القفا».

فقالت السيدة هيكس: «غيره..» والتفتت إلى صبي ونادت: «هنري!».

فأجابها هنري: «أنا لا أعرف شيئاً عن الأنوف!».

فالتفت جو إلى هنري قائلاً: «حسناً.. دع الأنوف.. من هو موسى؟».

فأجاب هنري: «موسى ذكر في الإنجيل».

فعاد جو يسأله: «هل كان له أنف؟».

فأجاب هنري: «طبعاً كان له أنف».

فقال جو: «حسناً، جداً.. لمَ لا تقول هذا، كان لموسى أنف كبير كأنف الكثيرين. ألا تعرف أن هذا فصل في التاريخ القديم؟ لم لا تحاول بين الحين والآخر أن تكتسب لنفسك شيئاً من العلم؟ موسى والأنوف، والتاريخ القديم.. فهمت.. أكمل».

وحاول هنري أن يكمل، وقال:«موسى والأنوف.. لا.. إنتظر لحظة كان أنف موسى أنفاً كبيرا».

فقال جو: «الله؟!. إنك لن تتعلم في حياتك شيئاً ولا شك أنك ستموت في ملجأ.. كان لموسى أنف كبير كأنف الكثيرين. يجب أن تفهم هذا بوضوح يا هنري.. فكر.. فكر فيه..».

فقالت السيدة هيكس: «كفى هذا الآن.. غيره».

ولكن جو عاد يقول: «اليد أسرع، والعين أبطأ، والأنف وحده يجري».

وتكلم هومير ثانية: «سيدة هيكس لا بد أن تدعيني أجري في سباق الاثنين والعشرين حاجزاً للقفز المنخفض».

فقالت السيدة هيكس: «مسألة القفز هذه لا تخصني أياً كانت.. هيا الآن.. غيره».

فعاد هومير يقول: «ألم أُحيي لك أنا هذا الفصل؟ ألم أجعلهم جميعاً يتكلمون عن الأنوف.. ألم أفعل ذلك؟».

وأجابته مدّرسة التاريخ القديم: «هذا ليس موضوعنا.. غيره».

ولكن الوقت كان قد انتهى وقُرع الجرس، فقام الجميع متجهين إلى السباق إلا هومير ماكولي وهبرت آكلي الثالث.

12



سباق الحواجز

الأثنين والعشرين للقفز المنخفض

وقف مدرب الصبية الرياضي بمدرسة إيتاكا العليا في غرفة مكتب ناظر المدرسة، وكان اسم عائلة هذا الناظر عجيباً هو «اك» وهو اسم لم يفت المحرر الشهير روبرت ريبلي أن يعلق عليه برسم فكاهي في إحدى الصحف اليومية تحت عنوان «صدق أو لا تصدق». أما اسم السيد «اك» نفسه فقد كان أوسكار وهو، كما ترى، لا يسترعي الانتباه.

وقال ناظر مُدّرسة إيتاكا العليا لمدرب المدرسة: «إن السيدة

هيكس تعد أكبر المدرسين هنا. كما أنها تتخطى بمراحل أي مدّرسة أخرى عملت بهذه المدرسة. وكانت مدرّستي عندما حضرت إلى مدرسة إيتاكا العليا، كما أنها كانت مدرّستك أنت أيضاً يا سيد بايفيلد. وأخشى أن أقول إنني لا أحب أن أتخطاها في أمر عقاب تلميذين عاصيين».

فقال المدرّب: «ولكن هبرت آكلي الثالث ليس تلميذاً عاصياً. فيما يتعلق بهومير ماكولي.. حقاً هذا صحيح، أما هبرت آكلي.. فلا. إنه مثال الجنتلمان الصغير».

فأجاب الناظر: «نعم، نعم أعرف أن هبرت آكلي من أُسَرة ثَرِيّة، ولكن إذا كانت السيدة هيكس قد أمرته أن يبقى في المدرسة فذلك يعني أنه محجوز.. محجوز لا شك في هذا. إنه مثال الجنتلمان الصغير، لا أختلف معك في هذا، وكان أبوه كاملاً. نعم أذكره.. بل كان مثال الكمال، كل هذا لا جدال فيه، ولكن السيدة هيكس هي مدرّسة التاريخ القديم، ولم يعرف عنها أبداً أنها عاقبت تلميذاً لا يستحق العقاب، فليقنع إذن هبرت آكلي بأن يُجري السباق في فرصة أخرى».

وأحس الناظر أن الموضوع قد انتهى تماماً، واستدار المدرب مغادراً المكتب. غير أنه لم يذهب إلى أرض اللعب بل اتجه إلى غرفة الدراسة في قسم التاريخ القديم. حيث هومير وهبرت ومس هيكس فانحنى محيياً المدّرسة العجوز وابتسم قائلاً: «سيدة هيكس. لقد تكلمت في هذا الأمر مع مستر «اك»».

وكانت عبارته تتضمن أنه حصل على ترخيص بإطلاق سراح

هبرت آكلي الثالث، إلا أن هومير قفز واقفاً على قدميه وكأنما هو المقصود بالأمر. ولكن المدرب قال له باحتقار: «أنت..لا!» والتفت إلى الصّبي الآخر داعياً السيد آكلي!».

فالتفتت إليه مدرّسة التاريخ القديم وقالت: «ماذا تعني؟».

فأجاب المدرب: «إن السيد آكلي لا بد أن يرتدي الآن مباشرة ملابس اللعب كي يجري في سباق الاثنين والعشرين حاجزاً للقفز المنخفض، فنحن ننتظره هناك!».

فقال هومير وقد عصفت به ثورة ثأراً لكرامته: «صحيح... ! وأنا السيد ماكولي؟!.. ماذا عنه؟» ولم يجب المدرب بل سار خارجاً من الغرفة يتبعه الشاب هبرت آكلي الثالث مضطرباً مرتبكاً.

وصاح هومير: «أرأيت هذا يا سيدة هيكس.. أليس في ذلك محاباة؟».

غير أن مدرّسة التاريخ القديم وقد أربكها وأثارها ما حدث، لم تستطع إلا أن تتكلم هامسة في هدوء: «السيد بايفيلد لا يصلح إلا لأن يعلّم الرياضة للبهائم أمثاله». وتوقفت لحظة لتدرك أنه لم يكن يجدر بها أن تلقي هذه الملاحظة، ثم قالت: «إني آسفة ولكن الرجل ليس جاهلاً فحسب، بل إنه كان كاذباً أيضاً» وكان من الممتع أن يرى المرء السيدة هيكس وقد تملكتها هذه المرارة الطبيعية التي لم تستطع أن تتحكم فيها، فامتلأ هومير إحساساً بأنها أفضل مدّرسة في العالم، وقال: «إنني لم أحبه أبداً. ومن الجميل حقاً أن أعرف أنك لا تحبينه أيضاً».

فقالت: «لقد درّست التاريخ القديم بمدرسة إيتاكا العليا خمساً وثلاثين عاماً كنت فيها الأم التي ربّت المئات من صبيان إيتاكا وبناتها. وقد علمّت أخاك ماركوس وأختك بس، ولو أن لك إخوة أو أخوات صغاراً في البيت فسأعلمهم هم أيضاً يوماً ما».

فأجاب هومير: «نعم لي أخ صغير واحد اسمه يوليسيس. كيف كان حال ماركوس وهو في المدرسة؟».

وردت عليه السيدة هيكس:«كان كل من ماركوس و بس تلميذين طيبين صادقين، مهذبين متحضّرين. نعم.. كانا مهذبين متحضرين». وأكدت هذه الكلمات الأخيرة وهي تكررها في اهتمام شديد:

«إن سلوك الأجيال القديمة قد جعلهم مهذبين متحضرين منذ طفولتهما. وقد كان ماركوس مثلك أحياناً يتكلم من غير إذن ولكنه لم يكذب أبداً. أما الآن فإن هذه الكائنات الإنسانية الدنيا من أمثال بايفليد في هذا الزمن... أولئك الذين لم يكونوا أبداً إلا جماعة من الحمقى.. يحسبونني امرأة عجوزاً لا أفهم... لقد جاء الرجل إلى هنا وكذب علي عمداً، نعم يكذب، تماماً كما كان يفعل مرة بعد أخرى وهو صبي يجلس أمامي هنا في الفصل. إنه لم يتعلم شيئاً إلا أن يتملق بلا حياء أولئك الذين يحس أنهم يعلون عليه».

فقال هومير يستحث مدرّسة التاريخ القديم كي تواصل نقدها: «كذلك إذن؟!».

واستمرت هي تقول: «لقد عرفت في حياتي الكثير من أفاضل

الناس حقاً الذين غمرهم وأساء إليهم أمثال هذا الرجل.. نعم أمثاله الذين يمضون حياتهم يكذبون ويخدعون، فيحجبون أولئك الذين تكبر نفوسهم على مثل هذا السلوك، سباق الاثنين والعشرين حاجزاً للقفز المنخفض؟.. حقاً.. إنه منخفض!» وكان التأثر والألم من الإساءة قد بلغ بمدرّسة التاريخ القديم حداً كبيراً، فنفخت من أنفها وراحت تمسح عينيها، فقال لها هومير:

«أوه، سيدة هيكس، لا تغضبي هكذا، سأبقى أنا محجوزا.. عاقبيني أنا لأني تكلمت بغير إذن، أظن أنني أستحق هذا، ولكنني منذ الآن سأحاول أن أكون طيباً مطيعاً. إنني لم أكن أتصور أبداً أن المدرسين أناساً كبقية الناس، بل إنهم أيضاً قد يكونون أفضلهم جميعاً. سيدة هيكس لا تغضبي وعاقبيني أنا».

فردت مدّرسة التاريخ القديم: «إنني لم أستبقك هنا يا هومير ماكولي لكي أعاقبك، وأنا لم أستبق دائماً إلا أولئك الذين أهتم بهم أكثر من غيرهم.. استبقيتهم كي أكون أقرب إليهم، وما زلت أعتقد أنني لم أخطئ، في تقديري لهبرت آكلي، فإنه لم يعصني إلا لأن السيد بايفليد جعله يفعل ذلك. وقد كان عزمي على أية حال، أن أترككما تذهبان بعد لحظة إلى الملعب. فأنت لم تُستَبقَ هنا للعقاب بل للتربية، إنني أراقب دائماً النمو في نفوس أطفالي الذين يحضرون دروسي. وأمتلئ سعادة بكل دليل جديد على هذا النمو. ولقد اعتذرت أنت لهبرت آكلي. وعلى الرغم أن اعتذارك قد أربكه لأنه جعله يبدو وكأنه لا يستحقه، فإنه قبله في نبالة وأدب.

وقصدت أن أستبقيكما بعد انتهاء الدراسة لأني أردت أن

أحدثكما معاً، فأحدكما من عائلة طيبة غنية والآخر من عائلة طيبة فقيرة. ولقد يكون المضي في هذا العالم والنموفيه أصعب عليه مما هو عليك، ولذا أردت أن تزداد معرفتكما الواحد للآخر وأن تصبح هذه المعرفة أفضل.. إن هذا أمر هام جداً، نعم.. كنت أريد أن أتحدث إليكما معاً».

وقال هومير: «أعتقد أنني أحب هبرت، ولكن كل ما في الأمر أنه يبدو لي كأنه يرى نفسه أفضل الأولاد جميعاً».

فقالت مدرّسة التاريخ القديم: «نعم، أنا أعرف ما تقول وأفهم شعورك تماماً، ولكن، لا بد أن يكون كل واحد في هذه الد نيا أفضل من آخر وأقل من ثالث غيره. فجو تيرانوفا مثلاً أذكى وألبق من هبرت ولا يقل عنه صدقاً وأمانة إنما بطريقته الخاصة، وفي البلد الديمقراطي يتساوى الأفراد جميعاً ما دام كل واحد منهم يؤدي واجبه في حدود جهده، أما وراء ذلك فكل إنسان حر أن يزيد أو لا يزيد من قدرته على عمل الخير وأن ينمّي نفسه كما يريد في النبالة والخير أو في الحماقة والخرق. إني حريصة كل الحرص على أن يجهد أولادي وبناتي في عمل الخير، وعلى أن يصبحوا نبلاء أخياراً. أما مظهرهم وما يبدون عليه لا يهمني على الإطلاق، فأنا لا أخدع بالتأنق في السلوك، ولا أفزع من التصرف الجاف الخشن، وإنما يهمني حقاً ذلك الذي يكمن وراء كل هذا. أنا لا يعنيني أبداً أن يكون أحد أطفالي غنياً أو فقيراً، من الكاثوليك أو البروتستانت أو اليهود، أبيض أو أصفر، ذكياً أو بطيء الفهم، عبقرياً أو ساذجاً.. أنا لا يعنيني أن يكون هذا كله ما دام هو إنسان، وما دام له قلب

يحب الحق والشرف، ويستطيع أن يحترم من هم أقل منه، والحب لمن يعلون عليه. فما دام الأطفال في فصلي أناساً، فأنا لا أريد لهم أن يتشابهوا في إنسانيتهم. كل ما أريده ألا تكون نفوسهم فاسدة، أما غير ذلك، فكل فرق بينهم لا يعنيني، بل إنني لا أريد إلا أن يظهر كل منهم على حقيقته، وألاّ يكون إلا نفسه هو وحسب. أنا لا أطلب منك يا هومير أبداً أن تتشبه بآخر، أو أن تسلك سلوك غيرك، لمجرد إدخال السرور إلى قلبي أو تخفيف عبء العمل عليّ. إنني سأمل وأضجر، لو أنني دخلت فصلي فوجدته مليئاً بفتيات كاملات وفتيان كاملين!! أريد أطفالي أن يكونوا بشراً، وأن يكون كل منهم كائناً خاصاً، مستقلاً منفصلاً له في نفسه جِدّة المغايرة وروعة الاختلاف عن الآخرين جميعاً. كنت أريد هبرت آكلي أن يستمع معك إلى هذا، وأن يفهم معك ألا يحب أحدكم الآخر فهذا أمر طبيعي. كنت أريده أن يعرف أنه لن تكمل لأي منكما إنسانية حقاً حتى تستطيعا أن يحترم كل منكما الآخر رغماً عن الكراهية الطبيعية بينكما. ذلك هو المعنى الحقيقي لأن يكون الإنسان مهذباً متحضراً، وهذا ما علينا أن نتعلمه من دراسة التاريخ القديم».

وتوقفت المدرّسة لحظة وراحت تنظر إلى الصبي الذى كان على وشك أن يبكي لسبب حتى هو نفسه لا يدريه، ثم عادت تقول: «إنني سعيدة لأني تحدثت إليك أنت بالذات وليس لأي واحد آخر من الذين أعرفهم، فأنا عندما تكبر أنت وتترك هذه المدرسة ويمر وقت طويل حتى تكون فيه قد نسيتني، سأظل أراقبك واتابع حياتك في الدنيا، ولن أدهش أبداً لكل ما أعرف أنك ستحققه من أعمال طيبة». ومخطت مدرّسة التاريخ القديم أنفها من جديد ومست

عيونها بمنديلها ثم قالت له: «يمكنك أن تذهب الآن إلى الملعب، وسابق هبرت آكلي في سباق الاثنين والعشرين حاجزاً. وإذا لم يكن لديك من الوقت ما يكفي لأن تبدل ملابسك وترتدي ملابس الملعب، فادخل السباق كما أنت ولو ضحك الناس عليك جميعاً. فلن تصل إلى مرماك في هذه الحياة الدنيا قبل أن تسمع مثل هذه الضحكات كثيراً. ولن تكون هذه الضحكات من الناس فحسب، بل إن الأشياء الجامدة نفسها ستضحك ساخرة منك تريد، أن تربكك وتعوقك.. ولكنني أعرف أنك لن تهتم لمثل هذه الضحكات» وتنهدت المدرسة وقالت متعبة: «إذهب الآن إلى الملعب يا هومير ماكولي فإني سأراقبك».

واستدار الابن الثاني لأسرة ماكولي التي تسكن طريق سانتا كلارا بإيتاكا من كاليفورنيا وسار مغادراً الحجرة.

في الملعب كان هبرت آكلي ومعه الصبية الثلاثة الذين سابقوه هذا الصباح قد اتخذوا أماكنهم بين الخطوط استعداداً لسباق الاثنين والعشرين حاجزاً. ووصل هومير إلى المكان الخامس في الوقت الذي رفع فيه حامل المسدس ذراعه لإطلاق إشارة البدء، وأسرع فوقف مع بقية المتسابقين عند الخط. واستشعر هومير قدراً كبيراً من الرضا ولكنه كان مع ذلك غاضباً جداً، غير أنه على أية حال كان يؤمن إيماناً قاطعاً أن حتى هذا الحذاء وهذه الملابس غير الصالحة للرياضة، وكذلك افتقاره للمرونة والتدريب، كل ذلك لن يعوقه عن كسب هذا السباق... سيفوز لأن هذا أمر طبيعي لا جدال فيه.

التفت إليه هبرت آكلي الواقف في المكان المجاور له وقال: «إنك

لن تستطيع أن تشترك في السباق وأنت.. هكذا..».

فقال هومير: «لا أستطيع؟!... انتظر... فسترى».

والتفت السيد بايفليد الجالس على المنصة العالية وسأل رجلاً بجواره:

«من هذا الذي يقف مستعداً في المكان الأخير دون ملابس اللعب؟».

ولكن دون أن ينتظر الإجابة تذكر من يكون. وصمم على أن يوقف السباق كي يستبعد العداء الخامس، ولكن الوقت كان قد فات، فقد أطلقت الرصاصة وانطلق معها العداءون. وعند الحاجز الأول كان هومير وهبرت يتقدمان الآخرين قليلاً، ثم قفز كل منهما في رشاقة واضحة. وعند الحاجز الثاني كان هومير قد سبق هبرت قليلاً وظل يتقدمه قافزاً مجتازاً قبله الحاجز الثالث والرابع والخامس والسادس فالسابع، حتى الحاجز الثامن. غير أن هبرت آكلي كان وراءه بمسافة صغيرة جداً، فكانا يستطيعان أن يتبادلا كلمات قصاراً وهما يعدوان. فعندما كانا على الحاجز الأول صاح هبرت: «أين تعلمت أن تجري هكذا؟».

وأجابه هومير: «أبدا.. أنا أتعلم الآن».

وعند الحاجز التالي عاد هبرت يقول: «لما العجلة ؟ إنك تجريبسرعة جداً».

وقال هومير: «لأكسب السباق».

وكانا قد وصلا إلى الحاجز الثالث فقال آكلي: «من قال هذا؟».

وأجابه هومير وهو يقفز على الرابع: «أنا».

وعند الحاجز الخامس قال هبرت: «أبطئ، إنه هذا سباق طويل، وستتعب» ثم صاح فجأة:

«أوه.. انتبه.. بايلفيد قادم».

ووصل هومير إلى الحاجز التاسع في الوقت ذاته الذي وصل فيه مدرب مدرسة إيتاكا العليا قادماً من الاتجاه المضاد. ولكن هومير على الرغم من هذا قفز، واستقر من قفزته تماماً في ذراعي المدرب المفتوحتين، فسقط الصبي والرجل معاً على الأرض، وتوقف هبرت آكلي عن الجري والتفت إلى العدائين صائحا: «قفوا حيث أنتم. إنتظروا حتى يقوم، إنه يجري سباقاً طيباً، وقد تعطل» ولكن هومير انتصب من سقطته سريعاً وواصل جريه فوراً، وفي اللحظة التي انطلق فيها معه العدّاؤون جميعاً.

وتعجب كل من فى المدرج حتى هيلين إليوت، مما حدث في السباق.. أما السيدة هيكس فقد كانت عند نهاية السباق تلوح مشجعة للصبية جميعاً واحداً بعد الآخر:

«هيا يا هومير.. هبرت.. هيا.. أسرع يا سام!.. جورج!.. هنري!».

وعند الحاجز قبل الأخير لحق هبرت آكلي بهومير ماكولي وقال له: «المعذرة.. أنا مضطر!».

فقال هومير: «تقدم.. إن استطعت».

وتقدم هبرت آكلي على هومير قليلاً عندما شارف الشوط منتهاه، ولم يعد هناك مجال لتقدم جديد. ولم يقفز هومير الحاجز الأخير ولكنه كاد يلحق تماماً بالعداء الأول، وأنهى الاثنان السباق في وقت متقارب جداً حتى لم يعد أحد يستطيع أن يعرف من الذي كسب السباق، أهو هبرت آكلي أم هومير ماكولي. وبعد وصولهما بقليل إلى غاية السباق قدم سام فجورج فهنري، وجمعتهم السيدة هيكس مدرّسة التاريخ القديم وقالت لهم:

«أنتم جميعا تعدون عدواً مدهشا!».

وقال لها هبرت آكلي: «أنا آسف يا سيدة هيكس، كان من الواجب عليّ أن أظل محجوزاً مع هومير».

فقالت السيدة هيكس: «دع هذا الآن، لقد كان جميلاً منك أن تنتظر هومير عندما تعطّل حتى يقوم».

وقدم مدرب مدرسة إيتاكا العليا غاضباً ممروراً قد أذهلته السقطة التي نالها بعض الشيء، واتجه عادياً نحو المجموعة التي جمعتها السيدة هيكس حولها، وعندما أصبح على بعد خمس عشرة ياردة منهم صاح قائلاً:

«ماكولي.. بناءً على ما فعلت الآن، ستحرم بقية هذا الفصل الدراسي من حق الاشتراك في أي نشاط رياضي تقوم به المدرسة». ولما وصل إليهم أخيراً وقف المدرب ينظر محملقاً في غضب إلى هومير ماكولي. فالتفتت إليه مدرّسة التاريخ القديم وقالت: «لماذا

تعاقب هومير ماكولي الآن يا سيد بايفيلد؟».

فأجابها المدرب: «لا تؤاخذيني يا سيدة هيكس، أظن أنني قادر على إتخاذ قراراتي دون مساعدة قسم التاريخ القديم»، والتفت إلى هومير قائلاً: «أفهمت؟».

فأجاب هومير: «نعم يا سيدي».

فعاد بايفيلد يقول: «والآن اذهب إلى مكتبي وانتظر هناك حتى آمرك بالانصراف».

فقال هومير: «مكتبك؟.. ولكني مضطر أن أذهب إلى..» وتذكر فجأة أن عليه أن يكون في عمله الساعة الرابعة، فسأل: كم الساعة الآن؟

ونظر هبرت آكلي إلى ساعة يده وقال: «الرابعة إلا ربعاً».

ولكن بايفيلد صاح: «اذهب إلى مكتبي».

فقال هومير: «إنك لا تعرف.. يا سيد بايفيلد.. فأنا عليّ أن أكون في مكان ما وسأتأخر».

وقدم جو تيرانوفا فدخل بين الجماعة وقال: «ولماذا يبقى هومير بعد المدرسة؟ إنه لم يرتكب خطأ».

وكان المدرب قد تحمل أكثر مما يستطيع فصاح صارخاً في جو: «أقفل فمك الطلياني القذر!».

ودفع الصبي فراح يتعثر زاحفاً على الأرض، ولكن جو قبل أن يقع صاح مستنكرا: «الطلياني القذر!».

وفي الوقت ذاته هاجم هومير المدرب وكأنهما يلعبان الكرة قائلاً له: «لا أسمح لك أن تشتم واحداً من أصدقائي».

فلما سقط هومير وبايفيلد مرة أخرى على الأرض، كان جو تيرانوفا قد قام واقفاً وقفز في ثورة على بايفيلد فاختل توازن الرجل وتباعدت أطرافه على أرض المكان كله. وجاء ناظر المدرسة السيد أك يعدو مبهور الأنفاس مذهولاً وصاح: «يا سادة.. يا أولادي.. يا أولادي..» وانتزع جو تيرانوفا من فوق المدّرب الرياضي الذي ظل كما كان على الأرض لا يريد أن يقوم!

وسأله ناظر المدرسة: «ما معنى هذا السلوك الشاذ يا سيد بايفيلد!؟»).

ولم يستطع بايفيلد أن يتكلم بل أشار بيده إلى السيدة هيكس، فوقفت هذه عند رأس الرجل وقالت: «لقد نصحتك أكثر من مرة يا سيد بايفيلد ألا تتحكم في الناس على هواك فهم لا يحبون ذلك». والتفتت إلى ناظر المدرسة قائلة: «على السيد بايفيلد أن يعتذر لجو تيرانوفا».

فقال السيد أك: «هكذا إذن يا سيد بايفيلد..؟!».

فعادت السيدة هيكس تقول: «إن أهل جو من إيطاليا ولا يصح أن تنسب إليهم القذارة».

ولكن جو قال: «ليس هو بحاجة إلى أن يعتذر إليّ، لكنه إذا شتمني مّرة أخرى فسأحطم فمه وإن لم أقدر أنا على ضربه فسأستدعي إخوتي..».

فصاحت السيدة هيكس: «جوزيف!!.. يجب عليك أن تعطي السيد بايفيلد الفرصة كي يعتذر. إنه لا يعتذر لك ولا لأهلك، إنه يعتذر لبلدنا نحن جميعاً، ويجب عليك أن تعطيه الحق في أن يحاول مرة أخرى أن يكون أميركيّاً».

وأثنى الناظر على قولها: «نعم هذا صحيح.. نحن في أميركا، والأغراب فيها فقط هم الذين ينسون أنها أميركا» والتفت إلى الرجل الذي ما زال على الأرض وقال آمراً: «سيد بايفيلد!».

فانتصب مدرب مدرسة إيتاكا العليا واقفاً على قدميه، وقال غير موجه الحديث لأحد بالذات: «أنا أعتذر...» ثم انصرف مسرعاً.

واتجه جو تيرانوفا وهومير ماكولي منصرفين معاً، أحدهما، جو، يسير بخطوات عادية لم يصبها شيء، والآخر هومير، يعرج فقد أصيبت ساقه اليسرى عندما كان بايفيلد يحاول أن يوقفه.

أما السيدة هيكس والسيد أك فقد التفتا إلى المجموعة الكبيرة من الصبية والفتيات الذين كانوا قد تجمعوا حولهم وبلغ عددهم الثلاثين أو الأربعين يمثلون نماذج عديدة وقوميات كثيرة مختلفة، ثم قالت لهم السيدة هيكس: «كفى الآن.. انصرفوا.. وعودا إلى أهلكم».

ولاحظت أن الأطفال مضطربون مدهوشون. فقالت لهم: «هيه... ابتسموا.. ولا تنزعجوا... فلم يحدث شيء».

وشدّد ناظر المدرسة من جديد: «نعم.. ابتسموا.. فلن تستمر الحرب إلى الأبد».

وتوزع الأطفال في مجموعات صغيرة وساروا منصرفين.

13



يا إلهي، الفخ! الفخ!

في الوقت الذي كان فيه هومير ماكولي يتأرجح على دراجته مندفعاً به بأسرع ما يستطيع كي يصل إلى عمله، دخل رجل يدعى بيج كريس الضخم إلى مخزن الأدوات الرياضية الذى يمتلكه كوفنجتون في شارع توليڤر. كان الرجل ضخماً طويلاً صلب العود مفتول العضلات، ذا لحية شقراء طويلة، قد نزل حديثاً من الجبال حول ـ بيدرا ـ يتمّون من طعام المدينة ويشتري شيئاً من الرصاص والفخاخ لصيده. وبدأ السيد كوفنجتون صاحب المخزن ومؤسسه يعرض على بيج كريس فخاً جديداً مركباً نوعاً ما، قد اخترعه رجل من فراينت. وكان الفخ كبيراً معقداً قد صنع من الصلب وخشب

الليمون، به أكثر من زنبرك وعدد من الحبال. ويبدو أن الفكرة وراء الفخ أنه يمسك بالحيوان فيرفعه إلى أعلى ويبقيه مربوطاً به حتى يعود الصائد.

وقال السيد كوفنجتون: «إنها فكرة جديدة تماماً ابتدعها رجل اسمه سافرتي من مدينة فراينت. وقد قدم فعلاً طلباً لتسجيل اختراعه، ولم يصنع منه حتى الآن غير فخين فقط، أرسل أحدهما وهو نموذج مصغر مع طلب التسجيل، وأرسل لي الآخر كي أبيعه. والفخ كما ترى يصلح لأي نوع من الحيوانات التي تدبّ على الأرض، وقد أسماه مستر سافرتي» فخ سافرتي لصيد حيوانات الأرض جميعاً، يرفعها إلى أعلى، ويؤرجح أجسامها شمالاً ويمينا، ويظل قابضاً عليها «وهو يطلب عشرين دولاراً ثمنا له. ولا شك أن الفخ لم يجرب بعد ولكنه كما ترى، يستطيع، فيما أظن، أن يرفع دون أدنى صعوبة دباً كبيراً نامياً وأن يمسك به»».

كان بيج كريس يستمع لصاحب مخزن الأدوات الرياضية كما الطفل الصغير، غير أن يوليسيس ماكولي كان يقف وراءه يستمع هو الآخر في لذة لا تقل عن لذته، وقد حشر نفسه بين الرجلين ليحصل على مكان أفضل يتفرج منه على الفخ. وكان السيد كوفنجتون يعتقد أن يوليسيس قد جاء إلى المحل مع بيج كريس على حين اعتقد بيج كريس أنه يعمل لدى السيد كوفنجتون، فلم يكن لديهما معاً ما يدعو للتساؤل أو الاستفسار عن وجود الصبي. أما يوليسيس نفسه فقد كان يعتقد، كما اعتقد دائماً، أنه ينتمي إلى كل مكان يجد فيه ما يتفرج عليه أو يثير اهتمامه!

وعاد كوفنجتون يقول: وأهم ما في هذا الفخ أنه لا يضر بالحيوان أبداً، بل يحتفظ بفرائه دون أدنى إصابة. والسيد سافرتي نفسه يضمن الفخ أحد عشر عاماً، ويسري الضمان على جميع أجزائه.. مرونة الخشب، فهو خشب ليمون، وقوة احتمال كل زنبرك فيه، وصلابة الصلب، ومتانة الحبال... وكل جزء آخر. وهو يعتقد، وإن لم يكن هو نفسه صياداً، أن هذا الفخ هو أضمن فخ في الدنيا وأكثرها إنسانية: إنه رجل هرم قد أشرف على السبعين، يعيش منعزلاً في فراينت، يقرأ الكتب ويخترع أشياء كثيرة. وقد بلغ مجموع ما اخترعه حتى الآن سبعة وثلاثين جهازاً، كل أداة منها نافعة وعملية توقف سيد كوفنجتون عن تحريك أجزاء الفخ وقال: «أظن أن الفخ قد أعد الآن».

وزاحمهما يوليسيس كي يتفرج ولكنه كان قد تقدم أكثر مما يجب، فأقفل عليه الفخ في لطف تام ولكن في سرعة خاطفة، ورفع قدميه عن الأرض وتأرجح به شمالاً ويميناً وأمسك به على ارتفاع ثلاثة أقدام مبسوطاً راقداً في وضع أفقي. ولم يصدر عن الصبي أي صوت وإن بدا عليه شيء من الدهشة والذهول الخفيف. إلا أن بيج كريس لم يأخذ الأمر على هذا النحو من السهولة، فقد صاح في كوفنجتون: «هيه.. احترس أنا لا أريد أن يصيب ابنك ضرر».

فقال كوفنجتون: «ابني؟! كنت أظنه ابنك أنت، فإني لم أر الصبي في حياتي أبداً، وهو قد دخل المحل معك».

فقال بيج كريس: «حقا؟ أنا لم ألاحظ ذلك. وعلى كل حال. أسرع الآن وخلصه من الفخ.. أخرجه».

فقال كوفنجتون: «نعم.. فلنخرجه».

ولكن بيج كريس كان قلقاً مضطرباً وراح يقول للصبي: «ما اسمك يا بني؟».

فقال الصبى من الفخ: «يوليسيس».

فواصل الرجل الذى جاء من الجبال حديثه إلى الصبي: «أنا اسمى بيج كريس. كل ما عليك الآن أن تمسك هنا جيداً، وهذا الرجل سيخرجك وسيضعك سالماً على الأرض». والتفت بيج كريس إلى السيد كوفنجتون وقال: «هيا الآن.. أخرج الصبي.. خلصه!!».

غير أن السيد كوفنجتون كان مضطرباً مربوكاً كبيج كريس تماماً، وما لبث أن قال: «كل ما هناك أنني لا أستطيع أن أتذكر كيف وصف لي السيد سافرتي هذا الجزء من عمل الفخ. فهو لم يجربه أمامي، لأننا.. كما تعرف... لم يكن لدينا ما نجرب الفخ عليه. لقد وصف لي السيد سافرتي عمل الفخ... وأعتقد أن هذا الجزء يتحرك إلى الخارج... لا... يبدو أنه ثابت».

وفي هذا الوقت كان السيد كوفنجتون وبيج كريس قد شغلا معاً بالفخ، فأمسك بيج كريس بيوليسيس كي لا يقع على وجهه إذا ما انفتح الفخ فجأة، وراح الرجل الآخر يعبث بأجزاء الجهاز المختلفة عسى أن يلين أحدها في يده.

وقال بيج كريس: «هيه.. أسرع الآن، هل سنبقي الصبي هكذا معلقاً طوال النهار، إنك لم تصب بشيء يا يوليسيس، أليس كذلك؟».

فقال يوليسيس: «لا يا سيدي..».

فقال بيج كريس: «إذن استمر قابضاً هنا بشدة فسنخرجك من هذا الفخ حالا..».

ثم نظر إلى الصبي وعاد يسأله: «ماذا جعلك تحشر نفسك هنا؟»

فقال يوليسيس: «كنت أتفرج».

فرد عليه بيج كريس: «لك الحق.. إنها آلة مدهشة حقا.. والآن سيخلصك هذا الرجل وأنا سأمسكك حتى لا تقع. كم عمرك؟».

فأجابه يوليسيس: «أربع سنوات».

فقال كريس الضخم: «أربع سنوات.. أنا أكبر منك بخمسين عاماً. إن هذا الرجل سيخلصك الآن حالاً.. أليس كذلك؟». والتفت بيج كريس إلى السيد كوفنجتون يسأله: «ما اسمك؟».

فقال السيد كوفنجتون: «والتر كوفنجتون.. صاحب هذا المخزن».

فرد بيج كريس: «جميل جدا.. والآن، خلص الصبي من الفخ يا والتر.. حاول أن تحرك هذه الخشبة.. فأنا ممسك به. لا تفزع يا يوليسيس، ما اسم أبيك؟».

فقال يوليسيس: «ماتيو».

فعاد بيج كريس يقول: «محظوظ أبوك هذا أن يكون له صبي مثلك، إن عيونه مفتوحة حقاً، فأنا مستعد أن أن أضحي بالعالم كله يا يوليسيس كي يكون لي صبي مثلك، ولكني لم أعثر أبداً على المرأة الصالحة، لقد التقيت بفتاة منذ ثلاثين عاماً في أوكلاهوما لكنها ذهبت مع رجل آخر. هل اهتديت إلى طريقة لفتح الفخ يا والتر؟».

فأجاب السيد كوفنجتون: «لا لم أجدها بعد.. ولكني أظن أنني سأفعل.. أعتقد أن هذا الجزء.. لا. أنا متأكد أن السيد سافرتي قد شرح لي كيفية إخراج الحيوان من الفخ ولكن يبدو أنني لا أستطيع أن أتذكر الحيلة. ألا تظن أن الفكرة في فتح الفخ قد تتغير إذا كان الصيد طفلاً صغيراً وليس حيوانا؟».

وفي ذلك الوقت كان قد تجمع بالمخزن رجلان وامرأة معها طفلة صغيرة وصبيان في التاسعة أو العاشرة، دخلوا جميعاً المحل يشاهدون ما يجري.

وقال أحد الصبية:«ماذا جرى؟».

فأجاب السيد كوفنجتون: «عندنا فخ هنا أمسك بصبي صغير اسمه يوليسيس».

فقال أحد الرجلين: «وكيف دخل فيه.. هل استدعي الطبيب؟».

فأجاب بيج كريس: «لا، إنه لم يصب بشيء.. إن الصبي بخير تماماً وكل ما في الأمر أنه ليس على قدميه».

وقالت المرأة: «أظن من الواجب عليك أن تستدعي الشرطة».

فقال بيج كريس: «لا يا سيدتي.. كل ما في الأمر أن الفخ أمسك به... وهذا الرجل... والتر... سيخلص الصبي».

فقالت المرأة: كم يعاني أولئك الأطفال الصغار من هذه الحيل الميكانكية السخيفة.

فرد بيج كريس «ولكن الصبي يا سيدتي بخير.. إنه لا يعاني شيئاً».

فقالت المرأة: «أرجو هذا، ولكن لو كان ابني لما انتظرت عليك دقيقتين قبل أ ن أستدعي الشرطة».

وانصرفت عنهم بغضب بادٍ وشدت طفلتها وراءها. ولكن الطفلة راحت تبكي وهي تقول: «اتفرج..اتفرج!! كلهم تفرجوا إلا أنا». ولكن المرأة التفتت إليها وهزتها بشدة وسحبتها خارج المحل.

وعاد بيج كريس يقول: «لا تفزع يا يوليسيس أبداً، إننا سنخرجك حالاً من هذا الفخ».

غير أن السيد كوفنجتون كان قد يئس تماما: «أظن أنه من الأفضل أن أتصل بالسيد سافرتي فأنا لا أستطيع أن أخرج الصبي».

فتساءل يوليسيس: «هل سأبقى هنا؟».

فأجابه بيج كريس: «لا يا بني... لن تبقى... سنخرجك».

ودخل المخزن صبي يحمل عدداً من جرائد المساء تحت إبطه، وانضم إلى الجمع ثم نظر إلى يوليسيس والناس من حوله، وعاد ينظر ليوليسيس من جديد ثم تكلم قائلاً: «مرحباً يوليسيس.. ماذا تعمل هنا؟».

فأجاب يوليسيس: مرحباً.. أوجي.. إني حبيس..

فسأله أوجي: «لماذا؟».

فقال يوليسيس: «وقعت في الفخ».

حاول بائع الجرائد أن يساعد بيج كريس ولكنه لم يفعل إلا أن

عاقه ووقف في طريقه، فراح ينظر حوله وقد تملكه الفزع حتى شل حركته، وظل متحيراً مرتبكاً لحظة ثم اندفع فجأة عادياً إلى الطريق. وجرى الصبي إلى مكتب التلغراف، ولكنه لم يجد هومير هناك، فانطلق مرة أخرى في الطريق يعدو في هذا الاتجاه ثم يستدير فجأة ويجري في الاتجاه الآخر مصطدماً بالناس مصراً على أية حال يظل ينادي صارخاً بأسطر الأخبار الأولى.

وقالت امرأة ممن صدمهم أوجي: «قد جُن.. جن من حرصه على بيع الجرائد».

ولكن أوجي ظل يجري حتى وصل إلى مفرق طرق وعبر الشارع حتى منتصفه، ووقف يتلفت حوله في كل اتجاه بحثاً عن هومير. وكان من المعجز أن يظهر هومير في هذه اللحظة، ولكن هذا ما حدث تماماً، فقد رآه أوجي يستدير بدراجته عند الزاوية، فجرى ناحيته صارخاً وراءه بكل ما فيه من قوة: «هومير..!! تعال حالاً.. أمر مهم.. أمر مهم!»).

فترجل هومير من دراجته وقال: «أوجي، ماذا حدث؟».

وظل أوجي يصرخ بأعلى صوته على الرغم من أن هومير قد أصبح إلى جانبه تماما: «قد حدث حادث هومير يجب أن تأتي معي».

وعاد هومير يسأله: «ولكن ماذا حدث».

فقال أوجي: «في محل كوفنجتون.. أسرع، يجب أن تأتي)».

فقال هومير: «آه.. اسمع يا أوجي.. هل أنت تريد أن تريني جهازاً للصيد أو سلاحاً مما يعرضه كوفنجتون في نافذته.. أنا لا

أستطيع أن أذهب معك الآن للفرجة على هذه الأشياء.. فأنا أعمل الآن.. وعلي أن أذهب».

امتطى هومير دراجته من جديد وبدأ يحركها منصرفاً، ولكن أوجي أمسك بمقعده وراح يجري إلى جانبه دافعاً الدراجة إلى ناحية كوفنجتون وهو يصيح: «هومير.. يجب أن تأتي معي.. إنه حبيس.. لا يستطيع أن يخرج».

فسأله هومير: «من الذي تتحدث عنه؟».

وكانا قد بلغا عند ذاك الجانب الآخر من الطريق المواجه لمخزن كوفنجتون، ورأى هومير جماعة صغيرة من الناس مجتمعة أمام المخزن، فبدأ يدب في نفسه شيء من الفزع. وأشار أوجي ناحية الزحمة، فاتجه الصبيان يدفعان الناس حتى دخلا المحل وبلغا الفخ وما زال في داخله يوليسيس أخوهومير وحوله بيج كريس والسيد كوفنجتون وعدد من الأغراب رجالاً ونساءً وأطفالاً.

وصاح هومير: «يوليسيس!».

ورد يوليسيس: «مرحباً هومير».

والتفت هومير إلى من حوله وقال: «ماذا يفعل أخي هنا في هذا المكان؟».

فأجاب السيد كوفنجتون: «لقد وقع في الفخ».

وعاد هومير يقول: «وماذا يفعل هؤلاء الناس جميعاً هنا؟» والتفت إليهم: «اذهبوا.. انصرفوا إلى بيوتكم.. ألا يمكن أن يقع

طفل صغير في الفخ دون أن تنقلب الدنيا هكذا حوله؟».

فقال كوفنجتون: «نعم، معه حق، كل من ليس زبوناً هنا أرجو منه أن ينصرف».. وراح يتفحص الناس من حوله وهو يقول: «تستطيع أنت يا سيد والاس أن تبقى فأنت تشتري من المحل. وأنت كذلك يا سيد سيكرت.. نعم يا جورج.. وأنت يا سيد سبندل.. وشورتي..»

فتقدم رجل وقال: «وأنا أيضاً أشتري من هنا.. قد اشتريت من مدة لا تزيد على أسبوع عدداً من شص السمك» فقال كوفنجتون: «نعم.. شص السمك. على الباقين الآن جميعاً أن ينصرفوا». فلم يتحرك غير رجلين اثنين إلى الوراء قليلاً.

وعاد هومير يقول: «لا تفزع يا يوليسيس.. سينتهي كل شيء على خير، والحمد لله أن أوجي التقى بي. إسمع يا أوجي، أسرع أنت الآن إلى مكتب التلغراف وقل لمستر سبانغلر إن أخي وقع في فخ في مخزن كوفنجتون وإنني أحاول أن أخلصه: لقد تأخرت الآن فعلاً ولكن قل له إنني سأعود مباشرة بمجرد خروج يوليسيس من الفخ.. أسرع».

واستدار أوجي عادياً فاصطدم بشرطي يدخل المحل وكاد يوقعه على الأرض.

وقال رجل الشرطة: «ما سبب هذا الزحام؟».

فأجاب السيد كوفنجتون: «وقع صبي صغير هنا في الفخ. ولا نستطيع أن نخرجه».

فقال الشرطي: «دعني أرى هذا»، وراح ينظر إلى يوليسيس ثم التفت إلى الناس قائلاً: «كفى وقوفاً هنا إذن.. انصرفوا جميعاً. هيا.

هذه حوادث تقع كثيراً ولا بد أن وراءكم ما هو أهم من الوقوف.. تتفرجون على صبي صغير في فخ». ودفع الشرطي الناس أمامه حتى أخرجهم من المخزن وأغلق الباب الخارجي، ثم عاد إلى السيد كوفنجتون وبيج كريس قائلاً: «والآن، فلنخرج الصبي من هذا المكان ليعود إلى أهله».

فقال السيد كوفنجتون: «نعم هذا ما أريده، وأن يكون بأسرع ما يمكن... فقد أغلقت محلي وما زلنا عصراً».

فقال هومير: «قل لنا، كيف يعمل هذا الفخ؟».

فقال كوفنجتون: «إنه فخ جديد جداً، اخترعه أخيراً السيد ويلفرد سافرتي من فراينت وقدم طلباً لتسجيله. إنه يريد فيه عشرين دولاراً».

فرد هومير: «المهم، أخرج أخي أو استدع من يستطيع أن يخرجه. استدع السيد سافرتي نفسه».

فأجاب كوفنجتون: «لقد حاولت فعلاً أن أطلب السيد سافرتي ولكن الهاتف معطل».

فصاح فيه هومير: «معطل!» واستبد به الغضب من الأمر كله، فاستمر صائحاً فيه: «لا دخل لي بالهاتف المعطل.. أحضر الرجل إلى هنا وأخرج أخي مباشرة».

وأيده الشرطي قائلاً للسيد كوفنجتون: «نعم، أعتقد أن من الأفضل لك أن تفعل ذلك».

فقال كوفنجتون: «أنا أيها الشرطي أدير محلاً مشروعاً وأطيع

القانون في كل شيء، وأدفع ضرائبي كاملة، هذه الضرائب التي تقبض أنت منها، ــ معذرة ــ مرتبك. ولقد بذلت كل ما أستطيع كي أتصل بالسيد سافرتي ولكن يبدو أن الهاتف معطل، فهل تتصور أن أترك محلي في منتصف النهار وأذهب لأبحث لكم عنه».

فاقترب هومير من كوفنجتون يحملق في عينيه ويهز إصبعه تحت أنف الرجل مهددا: «طاوعني، إذهب الآن وارجع بمخترع آلة التعذيب هذه وأخرج أخي حالاً».

فقال السيد كوفنجتون: «أولاً. هذه ليست آلة تعذيب إنها أفضل فخ، في السوق الآن، لصيد الحيوانات، ترفع الحيوان من الأرض التي يقف عليها فيصبح لا حول له ولا قوة.. ثم ثانياً.. قد لا يكون السيد سافرتي في داره».

فصاح هومير: «ما هذا الكلام الذي تقوله!؟».

وكان الشرطي قد قرر أن يتفحص بنفسه الفخ، فقال بعد قليل مقترحا: «ألا يحسن بنا أن ننشره ونخرج الصبي؟».

فقال كوفنجتون: «: تنشر الصلب..؟ كيف؟».

واقترب هومير من الفخ يقول: «يوليسيس، هل تريد شيئاً.. أأنت بخير.. ألا تريد أن أحضر لك شيئاً؟».

وراح بيج كريس وقد علاه العرق من جهده مع الفخ، يدير بصره بين الأخوين وقد امتلأت نفسه تأثراً بهدوء الصبي الصغير في الفخ ومحبة أخيه الغاضب لما حدث له.

وقال هومير: «ألا تريد مني أن أحضرلك شيئاً يا يوليسيس؟»

فقال يوليسيس: «بابا».

فرد هومير: «أوه.. وغير بابا.. ألا تريد شيئاً آخر»؟ فعاد الصبي من الفخ يقول: «ماركوس».

فقال هومير: «أنت تعرف أن ماركوس في الجيش.. ألا تريد آيس كريم.. أو شيئاً آخر مثل هذا؟».

فأجاب يوليسيس: «لا.. لا أريد غير ماركوس».

فقال هومير: «ولكنك تعرف.. أن ماركوس فى الجيش» «واستدار إلى كوفنجتون «قلت لك أخرج أخي من هنا وبسرعة أيضاً..».

وقال بيج كريس: «إنتظر لحظة يا بني، تعال وامسك أخاك من هنا ولا تدعه يقع»، وعاد إلى جهده مع الفخ وقد بدا مشغولاً تماماً. غير أن السيد كوفنجتون قال: «ولكنك ستكسر الفخ.. إنه الوحيد من نوعه في الدنيا ويجب ألا تحطمه. سأحضر السيد سافرتي، سأحضر السيد سافرتي.. إنك تحطم اختراعاً عظيما.. والسيد سافرتي أصبح الآن هرماً وقد لا يستطيع أن يصنع آخر مثله.. إن الصبي بخير.. لم يصبه شيء..انتظر.. سأحضر سافرتي.. لن أغيب الا ساعة أو اثنتين».

فصاح فيه هومير: «ساعة أو اثنتين!» ونظر إليه بكل ما يستطيع من احتقار، وتلفت حوله في المخزن قائلاً: «سأكسر لك المحل كله!!». والتفت إلى بيج كريس الضخم وقال: «إكسره يا سيدي.. إكسره...».

واستمر بيج كريس يصارع الفخ بعضلاته كلها وأصابعه

ويجاهد بذراعيه وكتفيه وظهره حتى بدأ الفخ يلين شيئاً فشيئاً لقوته. واستدار يوليسيس على جنبه كي يرقب الرجل والفخ يتحطم أخيراً في يديه. لقد تحرر يوليسيس.

كان هومير واقفاً ممسكاً بأخيه كي لا يقع على وجهه. فلما تحطم الفخ خرج يوليسيس واقفاً على رجليه. وهللت جماعة الناس أمام المخزن، وإن كان تهليلهم متقطعاً ضئيلاً، فقد كانوا جماعة غير منتظمة.

وحرك يوليسيس قدميه يجربهما، فلما اطمأن هومير إلى أن أخاه لم يصبه شيء طوقه بذراعيه، أما الصبي فراح ينظر إلى بيج كريس وقد بدا متعباً مرهقاً تماماً.

وقال السيد كوفنجتون: «من الذي سيدفع ثمن هذا الفخ، إنه لا نفع منه الآن، ولا بد أن يدفع أحد ثمنه».

فأخرج بيج كريس من جيبه عدداً من الأوراق المالية، وراح يعد منها عشرين دولاراً دون أن تبدر منه كلمة واحدة وألقاها على المنضدة أمام الرجل. والتفت إلى يوليسيس آخذاً برأسه وفرك شعره كما يفعل الأب أحياناً بأطفاله، ثم اتجه إلى الباب وغادر المحل.

حدّث هومير أخاه: «أنت بخير.. هيه؟ كيف أوقعت نفسك في هذا؟». ونظر إلى الفخ المحطم ورفسه بقدمه فصاح الشرطي: «احترس يا بني.. هذا اختراع جديد ولا يعرف أحد ماذا يتأتى منه».

وخرج كوفنجتون إلى الناس في الطريق ووقف يخاطبهم: «فتح المحل من جديد، محل كوفنجتون مفتوح يومياً من الثامنة صباحاً حتى

السابعة مساءً ما عدا الآحاد، مواعيد العمل حتى العاشرة ويغلق المحل بقية النهار. بالمحل كل أدوات الرياضة، عندنا آلات صيد السمك والبنادق والذخيرة وأدوات الرياضة البدنية، سيداتي وسادتي، شرفونا بالشراء». ولكن الناس بدأوا يتحركون في بطء منصرفين. وقبل أن يغادر هومير المخزن التفت إلى الشرطي يسأله:

ـ «من هذا الرجل الذي خلص أخي من الفخ؟».

فأجاب الشرطي: «لا أدري، فلم أره من قبل أبداً».

ولكن يوليسيس قال لهومير: «بيج كريس».

فسأله هومير: «بيج كريس الضخم..؟ هذا اسمه».

فأجاب يوليسيس: «نعم بيج كريس».

وفي ذلك الوقت دخل أوجي إلى المحل يجري ثم توقف لحظة ينظر إلى يوليسيس وقال: «هل خرجت؟..كيف خرجت يا يوليسيس؟».

فأجاب يوليسيس: «بيج كريس!».

فالتفت أوجي إلى هومير يسأله: «كيف خرج؟ ماذا حدث؟ ماذا جرى للفخ؟ أين ذهب الرجل ذو اللحية؟ ماذا حدث أثناء غيابي؟».

فقال هومير: «كل شيء بخير الآن يا أوجي. هل أخبرت السيد سبانغلر بما قلته لك؟».

فقال أوجي: «نعم، قلت له، ولكن ماذا حدث يا هومير، قل لي هل انفتح الفخ، وهل يصيد الآن الحيوانات؟».

فرد هومير: «أوه.. هذا الفخ ليس إلا عبثاً لا قيمة له». والتفت إلى صاحب المحل: ما الفائدة في أن تمسك بالحيوان إذا كنت لا تستطيع أن تخرجه. وأنا مندهش جداً يا سيد كوفنجتون لأنك تجرأت على أن تأخذ من كريس الضخم عشرين دولاراً ثمناً لمثل هذه الآلة الخربة».

فقال كوفنجتون: «السعر المحدد عشرون دولاراً».

فصاح فيه هومير: «سعر محدد؟!.. ما هذا الكلام الذي تقوله. أوجي.. هيا.. نخرج من هذا المكان».

وغادر الصبية الثلاثة المخزن سائرين حتى وصلوا إلى مكتب التلغراف. وهناك كان السيد سبانغلر قد جلس منحنياً على المنضدة الطويلة ينظر إلى الشارع، على حين كان السيد جروجان عند الصندوق يرسل برقية. ودخل هومير المكتب وقد ازداد عرجه عما كان من قبل منذ أن تصادم وبايفيلد في سباق المائتين والعشرين الياردة، وتوقف أمام مدير المكتب يحادثه: «هذا أخي يوليسيس يا سيد سبانغلر. لقد خلصناه الآن فقط من الفخاخ عند كوفنجتون. قد خلصه بيج كريس بعد أن اضطر أن يحطم الفخ واضطر بعد ذلك أن يدفع ثمنه عشرين دولاراً، وهذا أوجي، هل أخبرك بسبب تأخري؟».

فقال سبانغلر: «الأمور تسير على خير وجه.. كل ما في الأمر أن بعض البرقيات قد تجمعت وعليك أن توزعها ولكن لم يحدث ضرر على أي حال... هذا إذن أخوك.. يوليسيس؟».

كان يوليسيس قد وقف وراء عامل التلغراف يرقبه وهو يؤدي عمله، على حين وقف أوجي في الناحية الأخرى من المنضدة أمامه يصغي باهتمام إلى صوت الصندوق.

وعاد سبانغلر يقول: «وجاءت أيضاً بعض الإشارات الهاتفية وحملت أنا القريب منها، وما زالت هناك إشارتان أخريان في صفحة المكالمات، فخذ الإشارات أولاً ثم وزع البرقيات».

فقال هومير: «نعم يا سيدي، في الحال، وإني أريد أن أكرر اعتذاري وأسفي الشديد على ما حدث يا سيد سبانغلر، ولكن هل أستطيع أن أترك يوليسيس في رعايتك حتى أعود؟ إني أرجو أن أستطيع إذا ما تأخر الليل وخف العمل أن أحمله على دراجتي إلى البيت».

فأجابه سبانغلر: «نعم، دع أخاك معي هنا، واذهب أنت مباشرة».

فقال هومير: «نعم يا سيدي، وشكراً لك. أن يوليسيس لن يزعجك أبداً، فهو سيتفرج فحسب، ولن يعمل أي شيء آخر».

وغادر هومير مكتب التلغراف مسرعاً وهو يعرج.

14



ديـــانـــا

تحرك يوليسيس مقترباً من السيد جروجان على حين ظل أوجي يستمع لدقات صندوق البرق.

وسأل أوجي السيد سبانغلر مشيراً إلى الصندوق: «ماذا يفعل بهذا الصندوق؟».

فأجاب سبانغلر: «السيد جروجان يرسل البرقيات».

فقال أوجي: «إلى أين يرسلها؟»

«إلى نيويورك».

فعاد أوجي يقول: «تقطع كل الطريق إلى نيويورك!؟ ولكن كيف تصل إلى هناك؟».

«على الأسلاك».

فقال أوجي: «أسلاك الأعمدة؟ هناك أعمدة تلغراف من هنا حتى نيويورك؟ كل هذه المسافة من إيتاكا حتى نيويورك».

«نعم».

واستمر أوجي يسأل: «ومن الذي يرسل هذه البرقيات؟».

«الناس جميعاً».

فراح بائع الجرائد الصغير يفكر لحظة ثم قال: «أنا لم أستلم برقية في حياتي، ماذا أفعل كي تأتيني برقية؟».

«لو أرسل لك أحد برقية، فإنها تصلك».

فقال أوجي: «ولكن لم تصلني واحدة أبداً، فمن هذا الذي يرسلها؟».

«يرسلها لك صديق أو أي أحد تعرفه».

فقال أوجي: «إن كل من أعرفهم هنا في إيتاكا». سطع في اللوحة الكهربائية نور أخضر، فعاد يسأل:

«لماذا يضيء هذا النور الأخضر؟».

«هذه علامة لنا بأن الخط خال».

فقال أوجي: «خط ماذا؟».

«خط سان فرانسيسكو».

فصاح أوجي: «ياه.. كم يجب أن يكون عمر الإنسان كي يستطيع أن يشتغل هنا؟».

«ست عشرة سنة».

فقال أوجي: «أنا عمري تسع سنين، ولكن لماذا ينتظر الانسان هذه المدة الطويلة، ألا يستطيع الإنسان أن يلتحق بالبحرية قبل السابعة عشرة؟».

«هذا هو القانون».

قال أوجي: «إني لا أفهم أبداً السبب في كل هذه القوانين».

وبدأ مستر سبانغلر يضع البرقيات المُعدّة للتوزيع في الكوات الخشبية وراءه. وقال له: «لكي يحولوا دون اشتغال الأطفال».

« لماذا؟».

فقال سبانغلر:«لكي لا يرهقوا. وكي يستطيعوا أن يلعبوا. فقد وضع هذا القانون لحماية الأطفال».

«حمايتهم من ماذا؟».

فحاول سبانغلر أن يجيب: «من العمل الشاق على ما أعتقد.. و.. من الرؤساء الذين يجعلون الأولاد يعملون عملاً كثيراً لا يتناسب مع أجورهم».

«ولكن ماذا لو كان الولد لا يريد حماية؟ ماذا لو كان يريد أن يعمل؟».

فقال سبانغلر: «سيحمونه هم على أي حال».

«وإلى متى يجب أن أنتظر حتى لا أعود طفلاً، وأستطيع أن أحمي نفسي وأعمل في أية مهنة أريدها؟».

فأجاب سبانغلر: «لا بد أن تبلغ السادسة عشرة كي تكون ساعياً».

«ولكن هومير يشتغل، أليس كذلك؟.. فهل بلغ السادسة عشرة؟».

فقال سبانغلر: «لا.. هومير شيء آخر، إنه حقاً في الرابعة عشرة ولكنه قوي وذكي».

«ذكي؟.. ماذا تقصد؟ هل من الضروري أن يكون المرء ذكياً لكي يكون ساعياً؟»

فأجاب سبانغلر: «لا.. ليس ضرورياً.. ولكن من الأفضل أن يكون ذكياً، فإن هذا يساعده في أي عمل مهما كان».

«ولكن كيف تعرف إذا كان المرء ذكياً أم لا؟».

فنظر سبانغلر للصبي وتبسم قائلا: «أتحدث معه قليلاً».

ولكن أوجي عاد يسأل: «لماذا تضع هذه الأوراق هنا؟».

«هذه هي البرقيات التي وصلتنا بالأمس، ونحن نضعها هنا موزّعة، كل مدينة على حدة، لكي نحفظ سجلاتنا وحساباتنا، فهذه البرقية مرسلة إلى سان فرانسيسكو، لذا أضعها هنا، وكل البرقيات فى هذه العين مرسلة إلى سان فرانسيسكو».

فقال أوجي: «أستطيع أنا أن أعمل هذا، وأعرف واحدة، ولكني إذا اشتريت دراجة يا مستر سبانغلر، فهل أستطيع أن أعمل ساعياً هنا؟ وهل ترضى أن تعطيني وظيفة؟».

فتوقف سبانغلر عن العمل وعاد ينظر للصبي وقال له: «نعم يا أوجي، أعطيك.. لكن ليس الآن. أنت في التاسعة ما زلت صغيراً

جدا.. عندما تصبح في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة.. هذا معقول..».

«أو الثانية عشرة.. أنفع؟».

فقال سبانغلر: «جائز.. ولكن لماذا تريد أن تكون ساعيا؟».

«أتعلم أشياء كثيرة.. وأقرأ البرقيات.. وأفهم الدنيا!!» وتوقف لحظة يقول: «ولكن لن أبلغ الثانية عشرة إلا بعد ثلاث سنوات».

فأجابه سبانغلر: «ستمضي السنوات الثلاث سريعاً، دون أن تشعر بها».

«لا أظن.. إنني أنتظر هذه الساعة منذ أمد طويل».

فقال سبانغلر: «سترى أنك ستبلغ الثانية عشرة دون أن تدري.. قل لي، ما اسمك الكامل؟».

«غوتليب.. أوغست غوتليب».

وراح مدير مكتب التلغراف وبائع الجرائد الصغير ينظر كل واحد منهما إلى الآخر، وقد تبدىّ عليهما الجد والعزم، ثم قال سبانغلر:

«أوغست غوتليب.. إني أعدك بمجرد أن يحين الوقت..».

ولكن سبانغلر لم يكمل كلامه، فقد رأى ديانا ستيد تدخل المكتب وهي تقفز كالحصان الجامح، وعند الباب على الطريق، رأى العربة التي حملتها وقد جلس عند عجلتها سائق يرتدي حلة خاصة، ورن صوتها جذاباً منادياً سبانغلر، وإن كان فيه شيء من التكلف: «أوه.. حبيبي هذا أنت أخيرا» وألقت نفسها عليه في ثورة

عذبة من التودّد وطوقته بذراعيها وقبلته قبلة أجمل من أن تكون في الحياة الواقعية.

ولكن سبانغلر قال: «تمهلي قليلاً» وحاول أن يردَّها إلى الخلف قليلاً وهو يضع الساعة من يده على المكتب. وعاد ملتفتًا إليها، فانطلقت الشابة من جديد إليه ولكنه صدّها قائلاً: «قفي.. تمهلي.. أعرفك بأوغست غوتليب».

«كيف حالك يا صغيري؟»...

وقال سبانغلر: «السيدة ستيد، يا أوغست».

«مرحباً..!!» ولم يعرف الصبي ماذا يقول بعد ذلك فسألها: «أتريدين الجريدة؟».

فقالت ديانا: «طبعاً لم لا.. كم ثمنها؟».

«خمسة سنتات فقط، إنها طبعة المدينة.. نتائج السباق وأسعار البورصة وآخر أخبار الحرب».

«كل هذا بخمسة سنتات؟.. خذ.. أشكرك جداً».

فأخذ أوجي القطعة المعدنية وأعطى السيدة ستيد الجريدة، ولكنه لم يناولها لها حتى طواها أولاً في مهارة واحتفال كأنما يقوم بعمل هام خطير، وضربها على ركبته ضربة الخبير ثم عاد فطواها مرة أخرى وقدّمها منتظمة مرتبة وكأنه ساحر قد أدى لعبة ماهرة هامة. وقال أوجي: «شكراً يا سيدتي.. أنا أبيع أيضاً يوم الأربعاء الايفننج بوست والليبرتي... وفي أيام الجمعة أحمل جريدة كولير.. وأنا أوزع على المدينة كلها».

«أرجو إذن أن يكون كسبك كبيراً».

فقال أوجي: «أنا أكسب في اليوم حوالى أربعين سنتا.. من الجرائد والمجلات معاً. وعندما تبدأ سوق البلدية أبيع فيه المثلجات».

فقالت ديانا بصوتها الجميل المرح: «على هذا.. أنت تجد مجالاً للعمل دائماً.. أليس كذلك؟».

«أوه.. نعم.. ولكني أتعلم أشياء كثيرة أيضاً.. فقد أصبحت أعرف كيف أحكم على الناس وأعرف مقدارهم، وبدا من لهجته أنه قد حكم على السيدة ستيد وأنه راضٍ بما استطاع أن يعرفه عنها.

فردت عليه هي: «أوه. إني واثقة أنك تستطيع» ثم التفتت إلى سبانغلر وقالت: «لقد انتظرت أن تحادثني هاتفياً. ألم تقل إنك ستكلمني في الخامسة؟».

فقال سبانغلر: «أوه نعم.. ولكن نسيت.. لقد كنت أتحدث هنا مع أوجي. إنه يريد أن يكون ساعياً، وقلت له الآن إنه لا بد سيحصل على هذه الوظيفة عندما يحين الوقت».

فأجاب أوجي: «شكراً لك يا سيد سبانغلر». وتحرك كي ينصرف قائلاً: «سأراك ثانية.. بعد إذنك يا سيدتي..» والتفت إلى الصبي الصغير وقالت: «إلى اللقاء يا يوليسيس».

وصاحت ديانا متعجبة تقول لسبانغلر: «يوليسيس؟ يا إلهي اسم يبعث الذكريات... يوليسيس؟ يوليسيس هنا، وفي إيتاكا!.. اسمع يا عزيزي.. ليس لدي إلا دقيقة واحدة، إنك ستأتي للعشاء، أليس كذلك، هذا ضروري جداً.. إنك تعرف ذلك».

وحاول سبانغلر أن يجيب ولكن الشابة قاطعته من جديد قائلة: «لا.. لا تقل كلمة.. لقد وعدتني.. نعم وعدتني.. وأبي وأمي في غاية الشوق لرؤيتك.... نحن في انتظارك في السابعة تماماً».

فقال سبانغلر أخيرا: «انتظري.. انتظري لحظة...».

«لا.. يا عزيزي.. لا.. إنك لن تخيب رجائي مرة أخرى».

فرد سبانغلر: «لا شيء في هذا العالم يستطيع أن يخيب رجاءك.. فأطمئني تماما.. ولكنك قلت السابعة تماما؟ لماذا تصرين على الوقت؟ ثم قولي.. لي.. لماذا تريدين أن آتي للعشاء؟».

فقالت المرأة في صبر وكأنها تحدث طفلاً صغيراً: «لأني أحبك يا عزيزي.. أحبك.. أحبك.. أحبك.. أتسمع هذا؟» وضحكت ضحكة مرحة طويلة.

فأجاب مدير مكتب التلغراف: «رويدك.. رويدك.. إنك كُلّما تجئين هنا بمثل هذا الكلام أحس...».

فقاطعته جادة: «ولكني أحبك فعلاً، يا عزيزي..».

فتنهد سبانغلر قائلاً: «لقد دعيت للعشاء مرتين فقط في حياتي، وفي كلتيهما أضجرتني الدعوة جداً».

فأجابت ديانا: «ولكنك ستحب أبي وأمي.. ولن نكون بملابس السهرة.. بل بثياب المساء العادية».

فقال سبانغلر: «ثياب المساء؟.. ماذا تعنين.. لن أرتدي غير ثيابي التي أرتديها في نهاري ومسائي!».

قالت ديانا: «في السابعة إذن».. ولمحت البيضة المسلوقة على مكتب سبانغلر فصاحت: «أوه.. حبيبي..أتضع هذه على أوراقك.. ما أبرعها فكرة.. ولكن ما هي؟».

«إنها بيضة.. بيضة حقيقية.. أحملها لتجلب الحظ».

«أوه، ما أطرفك.. اسمع حبيبي.. إني مضطرة إلى الذهاب».. واتجهت نحوه تريد أن تقبله قبل أن تنصرف، ولكنه صدّها عنه بلطف ومضت مغادرة المكتب.

وفرغ السيد جروجان من كتابة البرقية على الآلة، فصحب سبانغلر يوليسيس إلى الرجل الهرم قائلاً: «وللي... إني ذاهب عند كوربيت أشرب كأسا.. وهذا يوليسيس ماكولي أخو هومير.. لقد حدث له حادث منذ قليل.. أظنه وقع في فخ أو شيء من هذا القبيل.. يوليسيس أعرفك بالسيد وللي جروجان».

فقال السيد جروجان: «أوه إننا أصدقاء قدامى.. إنه كان يتفرج عليّ وأنا أعمل».

فحرك يوليسيس رأسه موافقاً، وقال سبانغلر وهو ينصرف: «سأشرب كأساً وأعود حالاً».

15



فتاة على الزاوية

استدار سبانغلر خارجاً ولكنه توقف عند صندوق المكالمات الهاتفية والذي بدأت أجراسه تدق رسالة جديدة وتطبعها على الشريط في آن. ذهب سبانغلر إلى الآلة عند منضدة التوزيع وراح يتأمل الرسالة على الشريط، ثم قال لجروجان: إنها من مصانع نبيذ إيتاكا في المزارع. ولكن إذا عاد هومير، استبقه حتى نتلقى إشارة المساء من «زبيب الشمس»...حتى الآن، تمكن هومير من إيصال بريدهم مرتين قبل مناقشتنا شركة ويسترن يونيون، وإن تمكن من أن يفعل ذلك، بعد مرة، فهذا يعني زيادة جيدة في أرباح هذا الشهر! كم إشارة تلقيناها بالأمس؟.

فقال جروجان: «سبعاً وستين برقية من ثمان وستين إشارة... صبينا وصل الأول فحصل على البرقيات جميعها إلا واحدة، والثاني حصل على برقية واحدة.. هذا حسن.. سأذهب الآن لأشرب الكأس».

ولكن الصندوق بدأ يدق إشارة جديدة: «نقطة، نقطة. خط نقطة نقطة نقطة». وعندما سمع مدير المكتب النقطتين الأولين أدرك مباشرة أن الإشارة من «زبيب الشمس»، غير أن هومير لم يكن في المكتب ليذهب فيتلقى البرقية، فصاح سبانغلر قائلاً لجروجان: «سأذهب أنا وأتسلمها قبل أي أحد آخر».

وفي الوقت الذي تكرّرت فيه الرسالة ثلاث مرات كان سبانغلر يعدو خارجاً حتى أصبح عند الزاوية الثانية من المكتب، مخترقاً جماعات الناس متجنباً إياهم، وكأنه عداء يجري بالكرة في الملعب، ولما أصبح على بعد ثلاثين ياردة تقريباً من الزاوية، رأى فتاة في الثامنة أو التاسعة عشرة تقف وحيدة وخجلة ومتعبة. كانت تقف منتظرة العربة التي ستحملها إلى بيتها بعد نهار من العمل. وبالرغم من أن سبانغلر كان يجري مستعجلاً فقد كان من المستحيل عليه ألا يلحظ الفتاة وألا يحس في هذه الوحدة عزلة ما في الوجود كله. اقترب من المستكنة، الرائعة، حراً خفيفاً دون أن يفكر أو يقصد التهريج، وتوقف لحظة أمامها ثم قبّلها على خدها. وقبل أن يبتعد عنها عادياً قال لها: «أنت أجمل امرأة في هذا العالم» كان هذا هو الشيء الممكن الوحيد الذي يستطيع أن يقوله لها.

وواصل سبانغلر جريه، فلما وصل إلى الدرج في مبنى شركة

«زبيب الشمس» راح يرتقيه قافزاً الدرجات، ثلاثاً ثلاثاً. أما ساعي شركة الوسترن يونيون فقد تعطل في بدء رحلته أمام الكاتب الذى يتلقى الرسائل عندهم لأنه لا يعرف أماكن الأشارات كما يفعل سبانغلر. ولما وصل هذا الأخير مكتب الشركة حيث يتسلم البرقيات كان ساعي الوسترن يونيون ما زال يترجل من على دراجته وبدأ ينتظر المصعد ليحمله إلى المكتب.

وعند المكتب، أمام المرأة العجوز، وقف سبانغلر وأعلن اسم شركته وكأنه ما زال ساعياً «بوست تلغراف» فصاحت المرأة العجوز مسرورة دهشة: «أما زلت تعمل ساعياً يا توم؟».

«يظل الساعي طول عمره ساعياً».

ولم يبد على سبانغلر أنه ارتبك أو خجل من ملاحظتها التي لا معنى لها، ولكنه ابتسم للمرأة العجوز وقال:

«غير أنني قبل أي شيء آخر قصدت أن أراك أنت يا سيدة بروكنجتون» ودخل ساعي الوسترن يونيون المكتب صائحا: «وسترن يونيون» . فقالت السيدة بروكنجتون: «هاري.. لقد سبقوك هذه المرة أيضاً»، ولكنها ناولته، عطفاً عليه، برقية واحدة وقالت: «أرجو لك حظاً أسعد في المرة القادمة!».

وأحس ساعي الوسترن يونيون الصغير بشيء من الارتباك والحرج، لا لأنه قد سُبقِ هذه المرة أيضاً، بل لأن من سَبقه هو مدير مكتب البوست تلغراف نفسه، فأخذ من المرأة العجوز البرقية قائلاً: «شكراً لك على أية حال يا سيدة بروكنجتون..» وخرج مغادراً المكتب.

جمعت السيدة بروكنجتون حزمة كبيرة من البرقيات وناولتها لسبانغلر وهي تقول: «هذا كله لك أنت يا توم، مائة وتسع وعشرون برقية ليلية إلى جميع أنحاء الولاية.. ثمنها جميعاً مدفوع».

فقال سبانغلر: «مائة وتسع وعشرون. إن أرباحي هذا الشهر ستكون طيبة». وانحنى فوق الحاجز الذي يفصل بينها وبينه وقبل المرأة العجوز.

فصاحت السيدة بروكنجتون: «توم!.. ما هذا؟».

«أوه.. لا تكوني قاسية علي. لقد ظللت أريد أن أقبلك منذ رأيتك هنا أول مرة.. أتذكرين؟ نعم منذ عشرين سنة وأنت تزدادين جمالاً سنة بعد أخرى».

فقالت المرأة العجوز: «أوه، لا تكن قاسياً فتعبثُ بامرأة عجوز».

وتابعت السيدة بروكنجتون: «أوه توم.. إنك ظريف.. وسُعاتك كذلك... ولكن أين الساعي الجديد؟».

«هومير؟!.. أتقصدين هومير ماكولي. إنه سيجيئك هنا كل يوم.. دائما.. قبل أي ساعٍ آخر. لقد تعطلنا قليلاً اليوم عصراً لأن أخاه يوليسيس قد حدث له حادث، إذ وقع في فخ عند محل كوفنجتون واضطر هومير أن يذهب ليخلصه، ولكنك سترينه دائماً من الآن فصاعداً...» وتوقف لحظة يبتسم للمرأة العجوز، ثم قال:

«إلى اللقاء يا إميلي».

«أوه.. إنك ما زلت تذكر اسمي.. هذا لطف زائد منك».

وأحس في الطريق أنه سعيد يغمره الرضا. كان سعيداً راضياً لأن هومير قد خلص أخاه من الفخ، ولأن جروجان ما زال قادراً على أن يعمل بالرغم من تجاوزه سن التقاعد، ولأن يوليسيس هناك في المكتب وقف يتفرج مأخوذاً، وإن أوجي حريص على أن يكبر سريعاً كي يصبح ساعياً، بل كان راضياً حتى عن ديانا ستيد. غير أن رضاه وفرحته بالفتاة الواقفة على زاوية الطريق تنتظر العربة كان أكبر وأعمق من رضاه وفرحه بهذا كله. وعندما بلغ المكان الذي كانت تقف فيه تمهل قليلاً وراح يحدث نفسه: «هنا كانت تقف، وأغلب ظني أنني لن أراها مرة أخرى، بل حتى لو حدث ذلك فلن أراها كما رأيتها عصر اليوم» ومضى هابطاً الطريق يصفّر لنفسه حتى أصبح في مواجهة محل كوربيت. وبلغ سمعه من المحل نغمات البيانو تلعب الفالس القديم: «كل ما أتمناه أنت»، فعبر الطريق حتى بلغ الباب الدائريّ لبهو المحل وتوقف هناك لحظة ثم نفذ داخلاً.. ووجد وراء الباب كوربيت نفسه واقفاً، فلما رأى سبانغلر ذهب مباشرة يعد الشراب الذي اعتاده، كأساً من السكوتش وكوباً من الماء. وقال سبانغلر: «مرحباً رالف.. كيف الحال؟» وألقى نظرة خاطفة على جنود ثلاثة كانوا جالسين عند البيانو يستمعون إلى الموسيقى.

وأجاب كوربيت: «ليس رديئاً جداً ولا طيباً جداً.. عملاء كما ترى.. جنود لديهم متسع من الوقت وقليل من المال. إنني أبيعهم كل ثلاث كؤوس بثمن الكأس الواحدة، فإذا ما عرفت أنهم أفلسوا آخر الليل واستعدوا للانصراف أعدت إليهم نقودهم.. نعم.. لم لا؟».

فقال سبانغلر: «ولكن هل تتحمل ميزانيتك هذا؟».

لا.. ولكن ما أهمية هذا؟ قد أستطيع بعد الحرب أن أسترجع شيئا، فأنا لا أستطيع أن أكون مجرد بائع على بار..

أنت تعرف من هو كوربيت الصغير.. وتوقف لحظة يتذكر شيئاً يزعجه ويهمه. ثم استأنف حديثه: بالأمس يا توم، كنت أقف كالعادة وراء البار ليلاً أحاول أن أسيرّ الأمور، وإذ برجل أخرق متهور يصيح علي: «أنت يا مهووس، هات لي كأساً أخرى».. ولم يكن الرجل جندياً، بل كان من هنا من إيتاكا. فنظرت حولي وتلفتُ عسى أن يكون أحد غيرى وراء البار، ولكن لم يكن هنا أحدٌ غيري. فقلت له: «تقول مهووس؟ أتتكلم إليّ» فقال الرجل: «لمن إذن؟ أتحسبني أكلم نفسي يا مهووس».. وقلت لنفسي: «ماذا أفعل الآن، أنني أستطيع أن أضرب الرجل، فقد كنت ملاكماً، ولكنني ذهبت إليه وأمسكت به هكذا..» وقبض كوربيت بيده على ياقة سبانغلر ورفع يده الأخرى مفتوحة عالية، وانتظر لحظة من الغضب والثورة، ثم قص عليه ما قال للسكير الشرير بالأمس: «أتعرف إلى من تتحدث، إنك تكلم كوربيت الصغير، لو صفعتك صفعة واحدة فستقع على الأرض وتموت.. وأنا لا أريد أن يموت أحد هنا في محلّي. أخرج حالاً وإياك أن تعود، وإياك أن تجعلني أراك هنا مرة أخرى ما دمت حيا.. وعندما تخرج من هنا أشكر ربك أنك ما زلت على قيد الحياة. ..».

وترك كوربيت ياقة سبانغلر ويداه ترتعشان من الغضب، واستمر يقول: «وظلت يداي ترتجفان طوال الليل بعد ذلك. غير أن هذه

ليست أول ليلة يحدث فيها مثل ما حدث بالأمس. إن شيئاً من هذا النوع يحدث كل ليلة تقريباً. وفي كل مرة أقول لنفسي: «كفاني من هذا. لا بد أن أغلق هذا المحل وأن أمضي بعيداً.. لقد أصبحت أخشى وأرتعد من أن أفقد صوابي في ليلة ما وأن أقتل رجلاً. إن عمل البارات ليس عملاً سهلاً، وقلبي فيما أعتقد أطيب من أن يكون قلب بائع على بار».

وظل مدير مكتب التلغراف والملاكم السابق يتحدثان معاً خمس دقائق أخرى، ثم قام سبانغلر عائداً إلى مكتبه، وعندما كان يغادر بهو المحل كان الجنود الثلاثة ما زالوا يديرون البيانو، وكانت الأغنية هذه المرة هي أغنية «البراعم البيض» تنساب من الآلة ويحاولون أن يغنوا مع الموسيقى. وقف سبانغلر يستمع إليهم قليلاً، فعلى الرغم من أن أصواتهم لم تكن جميلة حقاً، فهي لا تترك في الشعور أو الإحساس أيَّ أثر قبيح أو رديء.

16



سأعود بك إلى البيت

دخل توماس سبانغلر مدير مكتب بوست تلغرا ف إيتاكا بكاليفورنيا في هدوء مكتبه. ورأى عند مكتب التوزيع الأخوين ماكولي: هومير ويوليسيس، وقد شُغِل هومير بطي البرقيات ووضعها في الظروف، على حين وقف الأخ الصغير يرقب أخاه في إعجاب هادئ، والتفت الساعي إلى رئيسه قائلاً:

«هل وصلت إلى شركة زبيب الشمس يا سيد سبانغلر؟».

«نعم يا هومير.. وأخذت مائة وتسعاً وعشرين برقية».

ووضع أمامه ما يحمل من برقيات.

فقال هومير متعجباً: «مائة وتسعاً وعشرين.. كيف سبقت الآخرين إلى هناك؟».

«جريت».

«أتعني أنك سبقت شركة وسترن يونيون حتى مبنى «زبيب الشمس» «جرياً؟».

«طبعاً، وما الغرابة في هذا؟ بل إنني توقفت في الطريق أُحيي الجمال والبراءة!!».

ولم يستطع هومير أن يفهم إشارته، فاستمر سبانغلر يقول:

«من الأفضل ألا أشرح لك هذا. خذ يوليسيس إلى البيت الآن».

«حسناً يا سيدي... لقد تسلمنا إشارة من جوجنهيم، وسأمر عليهم وأنا في طريقي بعد أن أوصل يوليسيس إلى البيت، ثم أذهب إلى مصانع نبيذ إيتاكا، فمحل فولي بعد ذلك، وأعود مباشرة. سأكون هنا كلمح البصر».

وغادر الساعي المكتب ووضع أخاه على مقدم دراجته فيما كان سبانغلر واقفاً يرقبهما. وقفز هومير على الدراجة وبدأ يحرّكها منحدراً على الطريق. وعندما أصبحا خارج حدود المدينة التفت يوليسيس إلى أخيه، وانفرجت أساريره لأول مرة طوال هذا النهار عن بسمة ماكولي الشهيرة.

«هومير؟».

«ماذا تريد؟».

«أستطيع أن أغني!».

«برافو».

وبدأ يوليسيس يغني «سنغني أنشودة» ولكنه توقف ليبدأ من جديد «سنغني أنشودة «وتوقف مرة أخرى وعاد يكرر: «سنغني أنشودة».

قال هومير: «ولكن ليست هذه أنشودة يا يوليسيس، إنها جزء صغير فقط، استمع أنت الآن إلي ثم غَنّ بعد ذلك معي، وبدأ الأخ الأكبر يغني والصغير ينصت:

«كفى بكاء يا سيدتي.. أوه.. كفى اليوم بكاء! فسنغني أنشودة لبيتنا القديم فى كنتكي! لبيتنا القديم في كنتكي، هناك بعيداً!».

وقال يوليسيس: «غنها مرة أخرى يا هومير».

«فليكن!».

وعاد هومير يغني من جديد، ولكن أخاه الأصغر اشترك معه في الغناء هذه المرة. وتراءى ليوليسيس وهو يغني، ذلك الزنجي في قطار البضاعة وقد انحنى على جانب العربة الأخيرة يلوح له. كان هذا أروع ما حدث ليوليسيس ماكولي طوال سنواته الأربع في هذا العالم. نعم أن يلوح لرجل فيلوح له الرجل ويرد على تحيته... ويفعل ذلك لا مرة واحدة بل مرات كثيرة، إنه لن ينسى ذلك أبداً ما دام حياً.

وترجل هومير أمام المنزل وأنزل أخاه باحتراس ورعاية إلى

الأرض، ووقفا معاً لحظة يستمعان إلى صوت البيانو والقيثارة تلعب عليهما أختهما وأمهما فيما جارتهما ماري أرينا تغني.

وقال هومير: «هيه يا يوليسيس.. ها قد وصلت إلى البيت فادخل إذن، اذهب فماما وبس وماري هناك.. وسأعود إلى العمل».

«ستعود للعمل؟».

«نعم، ولكني سأعود إلى البيت في الليـل.. إذهب.. أُدخل أنت يا يوليسيس».

وبدأ الأخ الأصغر يصعد درجات المنزل، فلما وصل إلى الباب اعتلى هومير دراجته وعاد أدراجه من حيث أتى.

17



الجنود الثلاثة

بينما كانت أسرة ستيد وضيوفهم وتوماس سبانغلر قد جلسوا يتناولون العشاء، كان المطر يهطل بغزارة على إيتاكا. إلا أن بس ماكولي وماري أرينا كانتا في طريقهما إلى مكتب التلغراف وقد ارتدتا معاطف المطر والأحذية العالية وحملتا صندوقاً به طعام هومير. ولما عبرتا محل «البومة العجوز» مرّتا بشاب يقف على باب المحل راح يلقي عليهما نظرات الغزل النهم قائلاً: هيه. يا حلوة.. ماذا في يدك؟».

وتجاهلت بس الشاب والتصقت بماري وسارتا معاً تصعدان الطريق ولكنهما وجدتا نفسيهما تتجهان صوب جنود ثلاثة، وقفوا

يلعبون وسط الشارع. كان الجنود الثلاثة قد ارتجلوا لأنفسهم لعبة يعبرون بها عن سعادتهم بحريته هذه الليلة وعن فرحهم بالدنيا النبيلة المضحكة وبملهاتها الخالدة، وعما يشعرون به من غبطة بهذا المطر المنعش المتساقط. كانوا يتدافعون ويتعقب كل منهم الآخر، فتنطلق منهم ضحكات حرة لا يقيدها شيء، ويتصايحون بالنكات التي يطلقها الواحد منهم تلو الآخر، السمين وتكساس والحصان. ورأى الشبان ماري وبس فأوقفوا حركاتهم ولعبهم، وراحوا ينحنون واحداً بعد الآخر مبالغين في الانحناء والتحية. فسّرت الفتاتان بالمنظر ولكنهما ترددتا، ماذا يجدر بهما أن تفعلا، وماذا يجب أن يكون موقفهما منهم.

همست ماري: «ليسوا يا بس إلا جنوداً غرباء!».

فقالت بس: «فلنقف إذن».

وتوقفت الفتاتان تواجهان الجنود، فتقدم الذي يدعونه السمين وخطا خطوة نحوهما، وكأنه المتحدث الرسمي باسم جماعته أو مبعوث الجنود لفتيات أميركا، وقال لهما:

«سيداتي، نحن خدمكم المتواضعون، من جنود الجيش الديمقراطي العظيم، نقف الآن ـ ونحن اليوم هنا ونأمل غداً أن نكون هنا ـ متقدمين لكم بالشكر على هذه الوجوه التي احتفظت بجمالها في أيام الجفاف وفي أيام المطر على السواء. ولتسمحا لي أن أقدم زميلي المعجبين المخلصين ـ هذا أطلق عليه لقب «تكساس» وهو من أهل نيوجرسي وهذا سمي «الحصان» وهو من أهل تكساس، أما أنا «السمين» فبلدي الجوع. غير أنني ما جعت قط

مثل جوعي الآن لصحبة فتيات أميركا الجميلات، فما قولكما في هذا».

فقالت بس: «لقد كنا ننوي الذهاب إلى السينما».

فصاح السمين بلهجة مسرحية: «إلى السينما.. هل لنا نحن الجنود، سواء بقينا اليوم هنا أم ذهبنا غداً، أن نصحبكما، أنتما يا بنات أميركا، إلى السينما؟ إنما اليوم هو اليوم وغداً هو الغد، غير أننا في الغد عائدون إلى ثكناتنا وإلى الحرب، هذا الأمر البشع الضروري وتلك المهمة المقدسة، لنقضي على ما في الإنسان من جراثيم فتاكة تحاول أن تودي بروحه الحرة. فلتكن لكم الليلة أخوة افتقدوا دفء النار فى بيوتهم واستشعروا الوحدة فى أنفسهم. نعم، إننا سعداء فخورون ولكننا وحيدون غرباء، فليست إيتاكا موطننا. إني أتمختر في حلة الجندي الأميركي هذه وتركت ورائي شوارع مدينة شيكاغو الموحشة وشعب ولاية إيلينوي الكريم. فهل لكما أن تردّاني بالذكرى إلى تلك المدينة وذاك الشعب، وأن ترجعا بكل من إخوتي الأعزاء هؤلاء إلى أوطانهم العزيزة. أنظرا بعين العطف والكرم لطلبنا المتواضع هذا. فنحن أبناء أسرة واحدة هي البشرية، ولم نكن لنلتقي أبداً لولا هذه الحرب!!.. لقد رقت لحظتنا هذه ولطفت، فهي صنيعة أعذب القرون وألطفها!!.».

وانحنى السمين لهما ثم اعتدل في وقفة عسكرية وقال: «علام استقر الرأي؟».

فهمست ماري: «أهو مجنون؟».

فقالت بس: «لا، إنه يشعر فقط بالوحدة، فلنذهب معهم إلى السينما».

فأجابت ماري: «لا مانع.. ولكن قولي لهم أنت ذلك، فلست أدري ماذا أقول».

والتفتت بس إلى الجندي وقالت: «لا مانع».

فقال السمين: «شكراً لكما، شكراً» وقدم ذراعه لبس قائلاً: «أو نذهب الآن؟».

ولكن بس قالت: «علي أن أحمل أولاً لأخي طعامه، إنه يعمل في مكتب التلغراف ولن يستغرق أكثر من دقيقة واحدة».

فقال السمين: «تلغراف؟! سأرسل إذن برقية..» والتفت إلى الآخرين صائحا: «وأنت يا تكساس؟».

فقال تكساس: «أتعرف كم تتكلف البرقية إلى نيوجرسي؟».

فأجابه السمين: «لن تتكلّف أبداً قدر قيمتها لهم..» والتفت إلى الجندي الثالث: «الحصان؟».

فقال الحصان: «نعم سأرسل أنا الآخر برقية لأمّي وجو.. وكيتي..» والتفت إلى بس مكملاً: «فتاتي..».

فعلق السمين قائلا: «كل فتاة في العالم هي فتاتي. ولما كنت لا أستطيع أن أرسل برقيات لكل واحدة منهن فسأرسل البرقية لواحدة فقط، سأرسل في برقيتي الواحدة ملايين البرقيات».

وكان وللي جروجان عامل البرق الهرم يجلس وحيداً في المكتب عندما دخلت عليه الفتاتان والجنود الثلاثة. وتقدمت بس إلى المنضدة

الطويلة التى جلس وراءها الرجل ووضعت صندوقها عليها: «أنا بس، أخت هومير، أحضرت له طعامه».

فقال جروجان: «كيف الحال يا بس، أخت هومير ماكولي. هومير سيعود حالاً، وسأسلمه غذاءه».

وأضافت بس: «هؤلاء الشبان يريدون أن يرسلوا برقيات».

فقال جروجان «حسنا.. خذوا املأوا هذه.. وإليكم الأقلام».

وسأله تـكساس: «كم يتكلف إرسال البرقية إلى مدينة جرسي؟».

«الخمس والعشرون من الكلمات بخمسين سنتاً، تضاف إليها ضريبة بسيطة ولكن الإمضاء والعنوان لا يدخلان في العدد و تسلم البرقية غداً صباحاً».

فقال تكساس: «خمسون سنتاً فقط، هذا جميل جداً». وشرع يكتب برقيته.

وسأل الحصان: «وإلى سان انطون؟».

«نصف ثمنها إلى مدينة جرسي، فسان أنطون أقرب لأيتاكا من جرسي».

اما السمين فقد كان مشغولاً يكتب برقيته، فلما فرغ منها ناولها لجروجان الذى راح يقرأها وهو يعد الكلمات:

«أما دانا

طرف جامعة شيكاغو

شيكاغو

إيلينوي

عزيزتي، أُحبك وأفتقدك، وأفكر فيك دائماً. استمري في الكتابة. ألف شكر على الصديري. أتعلم الآن الاقتصاد السياسي. سنعود إلى جبهة القتال قريباً، لا تنسِ أبداً أن تذهبي إلى الكنيسة كل أحد وأن تصلّي من أجلنا. أنا سعيد. وأحبك.

نورمان».

وجاء من بعده تكساس فناول جروجان برقيته:

«السيدة أديت أنطوني 2 / 1 1702 شارع ولنجتون

مدينة جرسي. نيوجرسي.

أمي العزيزة. كيف أنت؟ إني مرتاح. تسلمت خطابك وصندوق التين. شكراً. لا تنزعجي على شيء، إلى اللقاء، مع حبي.

برنارد».

وجاء دور الحصان فناول العامل العجوز برقيته:

«السيدة هارفي جيلفورد:

211 طريق سانديفورد

سان أنطوان. تكساس.

مرحباً. أردت فقط أن أحييك من كاليفورنيا المشمسة. ولكن السماء تمطر، ها.. ها.. بلغي تحياتي للجميع أخبري جو أن يأخذ بندقيتي والرصاص. لا تنسى أن تكتبي.

كونتين»

وغادر الجنود والفتاتان المكتب، وذهب مستر جروجان إلى منضدته يرسل البرقيات.

وتقدم الجنود الثلاثة والفتاتان الأميركيتان في الممشى الرئيسي بدار السينما وقد ظهر على الشاشة ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا عام 1942 واقفاً أمام أعضاء البرلمان الكندي. ولما وجد الشباب لأنفسهم مقاعد واستقروا فيها كان مستر تشرشل قد قال ثلاث كلمات. واحدة بعد الأخرى، أثارت موجة متزايدة من الفرح والسرور بين أعضاء البرلمان الكندي ورواد سينما إيتاكا سواء بسواء.

انحنى السمين على بس قائلاً: «أنظري، هذا واحد من أعظم رجال زماننا.. ومن أعظم الأميركيين كذلك».

فقال الحصان: كنت أعتقد أن تشرشل انكليزي.

فأجاب السمين: «طبعا.. ولكنه أميركي كذلك، فمنذ الآن فصاعداً سيصبح كل رجل فاضل أميركياً...».

وتحرك مقترباً من ماري أرينا، الفتاة على الزاوية الأخرى إلى جانبه، وقال لها: «ألف شكر على انك سمحت لنا بالمجيء إلى السينما معكما!! إن قرب البنات أحلى. وهذه الرائحة الجميلة أفضل من أن يظل المرء يشم روائح الجنود فحسب».

فقالت ماري: «كنا سنذهب إلى السينما على أية حال».

وظهر الآن في شريط الأخبار فرانكلين ديلانور وزفلت، الرجل الذى يرأس الولايات في هايدبارك. وراح الشباب الخمسة يستمعون إليه في اهتمام وهو يتحدث بطريقته المألوفة مازجاً الجد بالفكاهة، ولما فرغ من الحديث اندفع الحاضرون جميعاً يصفقون.

وقال الحصان: «وهذا أعظم أميركي بينهم جميعاً». وظهر في هذه اللحظة العلم الأميركي فبدأ عدد كبير من الحاضرين يصفقون من جديد.

وقال تكساس: «وهذا أعظم علم في العالم».

فالتفت السمين إلى بس وقال: أنا لا أدري لِمَ هذا... ولكن المرء لا يبدأ يحب وطنه حقاً حتى يراه في ضيق، أما قبل ذلك فهو كأسرته شيء مفروض عليه لا يفكر فيه.

فقالت بس: «لقد أصبحت أحس الآن كأن شيئاً يقف في حَلقي كلما رأيت العلم!! كنت قبل ذلك أذكر به واشنطن أو لنكولن، أما الآن فهو يذكرني بماركوس أخي، إنه جندي أيضاً».

فصاح السمين: «أوه.. ألك أخ في الجيش؟».

«نعم.. كان في كارولينا الشمالية عندما كتب لنا آخر مرة».

فقال السمين: «أعتقد أن هذا العلم يجعل كل واحد يفكر في اقرب الناس إليه وأعزهم لديه. إنه يجعلني أذكر شيكاغو بكل ما فيها، الطيب والرديء إنه يذكرني بأسرتي وفتاتي.. أشياء كلها جميلة.. أحيائها الفقيرة، وهي رديئة قبيحة، ولكني أحبها، وأعتقد أننا سنتخلص يوماً ما من هذه الأحياء الفقيرة ومن السياسة أيضاً».

فقالت بس: «لا أظن أن عندنا هنا في إيتاكا أحياء فقيرة، فالناس فقط هم الفقراء، وعلى الرغم من أن لنا في المدينة حكومة فلا أظن أن لدينا من شؤون السياسة ما نتحدث عنه. وأسرتي على أية حال لا تهتم بمثل هذه الأمور، فنحن نحب الموسيقى، وأكاد أجزم أن

أخي ماركوس يعزف الآن على الأكورديون».

كان أخوها ماركوس في الواقع جالساً في هذه اللحظة في بار اسمه «قاذفة القنابل» بمدينة صغيرة من مدن كارولينا الشمالية، وقد جلس معه صديقه توبي جورج وثلاثة جنود آخرين. وراح ماركوس يعزف لهم أنشودة اسمها «الحلم «وبدأ توبي يغني على حين قام جنديان آخران يرقصان في البهو مع فتاتين لا تكادان تفترقان عن ماري وبس. ولما انتهت الأنشودة جلس توبي إلى جانب صديقه ماركوس وسأله أن يزيده من الحديث عن إيتاكا وعن أسرة ماكولي.

وبينما كان ماركوس ماكولي يحادث صديقه توبي جورج عن إيتاكا، كان توماس سبانغلر وديانا ستيد يسيران متقدمين في المشي بدار السينما بإيتاكا وقد بدأ الفليم الرئيسي يظهر على الشاشة. ولما استقرا في مقعديهما كانت الشاشة لم تظهر عليها الصور بعد، بل ما زالت مليئة بكل هذه الكلمات التى تسمي الفيلم وجميع أولئك الذين شاركوا في صنعه. وكانت الكلمات كثيرة جداً تذكر أسماء عدد ضخم من الناس وتنسب لهم أمجاداً كبيرة، وقد صاحبها نغم فيه فخامة وعظمة لا تليق بما يذكر من جهود، وإن كان قد ألف ووقع خصيصاً لهذا.

وجلس سبانغلر وديانا في الصف الثالث قريبين جداً من الشاشة وعلى بعد عشرة صفوف من بس وماري والجنود الثلاثة. وجاءت جلستهم في صف ليس بين الجالسين فيه إلا أطفال صغار. ولم يلبث أن ظهر على الشاشة أرض بهو كبير في مستشفى من المستشفيات

الحديثة. فرشت بالمشمع النظيف، وجاء إليهم من الميكرفون في آخر بهو السينما صوت ممرضة منزعجة فزعة تصرخ في لهفة زائدة: «دكتور كافاناج.. جراحة!!.. دكتور كافاناج جراحة..!».

وما كاد توماس سبانغلر يسمع هذه الكلمات حتى وقف منتصباً على قدميه. لقد شرب خمراً، وكانت السهرة هامة ممتعة مليئة بالمشاكل التي يبدو أنها تحركت عليه الآن، فلم يجد أن هناك ما يدعوه إلى أن يتماسك وألا يتصرف على هواه، وكأنه من عُمر هؤلاء الجالسين معه في صف واحد.

«لسوء الحظ.. لم نحسن اختيار الرواية...» وأخذ بذراع ديانا قائلاً: «هيا».

فقالت المرأة الشابة: ولكن الرواية لم تنته بعد، فجذبها سبانغلر وراءه قائلا: «قد انتهت بالنسبة إلي أنا.. هيا».

ومرا بصبي صغير يرقب الشاشة باهتمام زائد، فقال له سبانغلر: «ستدخل الجنة» والتفت إلى ديانا: «هيا..هيا.. لا تقفي هكذا أمام الصبي».

فقالت ديانا: «ولكن يا عزيزي، إن الرواية ما زالت في البداية».

ولكن الصبي اتجه إلى سبانغلر يسأله: «ماذا تقول يا سيدي؟».

«الجنة..!! الجنة!.. ستدخل أنت هناك».

ولم يتأكد الصبي أنه فهم ما يقول سبانغلر فسأله: «أتعرف كم الساعة؟».

«نعم يا سيدي».

ولما بدأت المرأة تسير معه في ممشى الدار قال لها سبانغلر: «سنذهب عند كوربيت فنشرب كأسين ونسمع البيانو ثم تعودين أنت إلى البيت» والتفت ينظر إلى الشاشة صاعداً الممشى وهو يسير القهقرى، ثم قال لها: «أنظري.. أنظري.. الدكتور كافاناج.. لا بد أنه سيفعل شيئاً بهذه الملاقط.. أليس من الجائز أن يختلط عليه الأمر فينزع بها أحد أسنانه.. أنظري إليه!».

وأحست الشابة وهما عند مدخل دار السينما أنها لا تأسف كثيراً على أنها تركت الشريط وهو لم يكد يبدأ، والتفتت إلى سبانغلر تقول: «إنك تحبني، أليس كذلك؟ نعم.. نعم.. أعرف أنك تحبني».

فقال سبانغلر وهو يكاد يصيح: «أحبك؟ ألم آخذك إلى السينما.. ألم أفعل ذلك؟».

وخرجا إلى الطريق يتعجلان الخَطْو إلى محل كوربيت ويسيران قرب المباني كي يتجنبا المطر.

18



رأي جروجان في الحرب

كان سبانغلر وديانا ما يزالان يجريان تحت المطر إلى محل كوربيت، عندما وصل هومير ماكولي، وقد بلله المطر إلى مكتب التلغراف، فأوقف دراجته ودخل. وراح يستكشف حالة العمل من مكتب التوزيع فلم يجد به إشارات هاتفية تتطلّب منه أن يعود ليتسلمها ولكنه وجد برقية واحدة عليه أن يوصلها إلى أصحابها.

وفرغ جروجان من البرقية التي كان يكتبها على الآلة وقام قائلاً: «أحضرت لك أختك الغداء».

«حقاً؟ لم يكن هناك ما يدعو إلى أن تحمل لي طعاماً، لقد كنت أنوي أن أشتري لنا فطيرتين».

وأخذ العلبة، ثم قال: «إن فيها شيئاً كثيراً.. فهل تأكل معي يا سيد جروجان؟».

«لا.. شكرا.. لست جائعاً».

«حاول أن تأكل شيئاً قليلاً فقد تنفتح شهيتك».

«لا.. شكراً جزيلاً.. ولكن ما هذا، إنك مبلول تماما.. اسمع.. عندنا هنا بالمكتب معاطف للمطر».فقال هومير وهو يقضم لقمة من السندويش: «نعم.. ولكنني فوجئت بالمطر، سآكل هذا السندويش فقط ثم أوصل البرقية». وراح يمضغ اللقمة في فمه لحظة ثم نظر إلى عامل التلغراف الهرم يسأله: «ما نوعها، هذه البرقية؟».

ولم يجب السيد جروجان فأدرك هومير أنها واحدة أخرى من رسائل الموت، فتوقفت أسنانه عن مضغ الطعام وبلع لقمته جافة، وقال. «كم أودُ ألا أضطر لإيصال مثل هذه البرقيات».

فقال السيد جروجان في هدوء: «نعم» وظل ساكتاً لحظة وهومير يمسك في يده السندويش لا يستطيع أن يقضمه من جديد، ثم عاد يقول له: «هيا يا بني.. كل.. كان مع أختك فتاة أخرى جميلة جداً».

«أوه.. هذه ماري، إنها جارتنا.. وهي فتاة ماركوس، أخي الذي في الجيش، إنهما سيتزوجان بعد الحرب».

«وجاء مع ماري وأختك ثلاثة جنود أرسلوا برقيات من هنا».

«صحيح؟ وأين البرقيات؟».

فأشار السيد جروجان إلى الفجوة التي يضعون فيها البرقيات المرسلة فأخرجها هومير وراح يقرؤها واحدة بعد الأخرى، ولما فرغ منها رفع عينيه إلى عامل التلغراف الهرم وقال:

«لو أن واحداً مات من هؤلاء فهل يخفف وقع الأمر على نفسك أنك تعرفه أو أنك حتى لم تره أبدا؟ إننا هنا في إيتاكا فحسب، بلد صغير واحد من بلاد أميركا العديدة، وهذه البرقيات تذهب إلى كل مكان وتصل إلى الأغنياء والفقراء وأنواع الناس جميعاً. فهل كل أولئك الذين يموتون، إنما يموتون هكذا من أجل لا شيء؟».

وظل عامل البرق الهرم ينتظر لحظة دون أن يتكلم وأحس كأن ما يريد أن يقوله أكبر وأقسى من أن يخرجه دون مساعدة. فاتجه إلى درجه وأخرج زجاجة ثم جرع منها جرعة طويلة وجلس يتأمل الصبي. ثم قال:

«لقد عشت في هذا العالم طويلاً، بل ربما عشت أكثر مما يجب. دعني أقول لك إن هذا العالم سواء أقامت الحرب أو ساد السلام. فإن ما يقع فيه لا يتم هكذا اعتباطاً. وعلى الأخص في كل هذا الموت». وتوقف الرجل الهرم ليبتلع جرعة أخرى ثم قال: «إن الناس جميعاً وحدة واحدة، تماماً كما أنك أنت وحدة واحدة. وكما أن الشر يماشي الخير في نفسك، كذلك الناس جميعاً في نفوسهم الخير والشر امتزجا معاً في كل فرد ملايين هذه الأمم. وكما أن الرجل ذا الضمير يصارع الأضداد في نفسه فإن هذه الأضداد المتناقضة تتصارع في مجموع الأحياء جميعاً وفي العالم كله. وعند ذلك تنشب الحرب. إن جسم العالم يحارب أمراضه ليتخلص منها، فلا تنزعج أنت من ذلك

لأن الخير يصمد دائماً ويطرد الشر بعيداً كلما ظهر. وهذا الجسم المريض وتلك النفس المريضة يعودان دائماً إلى الصحة والسلامة. وقد يمرضان من جديد، لكنهما يتحسنان دائماً فكلما طرد منهما مرض جديد قويت الروح والجسد حتى يبلغا من القوة ما قصد لهما ويتطهرا من شوائب الفناء، ويزدادا نبلاً ولطفاً وصفاءً فلا يمسهما الفساد بعد ذلك. إن كل إنسان في هذا العالم مصيباً أو مخطئاً إنما هو يسعى ويحاول».

وتنهد الرجل الهرم وبدا عليه التعب وواصل حديثه: «نعم، حتى القاتل واللص يحاولان، فليس هنالك من يموت اعتباطاً. إننا جميعاً نموت ونحن نبحث عن الخلاص، متطلعين إلى الخلود، نريد أن نحقق الحق والعدالة، ولا بد أن يأتي يوم على الإنسانية جمعاء نستطيع فيه نحن جميعاً، فرداً فرداً حتى آخر واحد فينا، أن نستقر وأن نسكن فنحصل على نعمة الخلاص ونصبح خالدين، ويستحيل هذا العالم الشرير الرائع إلى مكان تسود فيه السماحة ويسود فيه الخير بين الناس».

وازداد تنهد الرجل الهرم عمقاً وصمت لحظة ثم أخرج من جيب صدريته قصاصة من الورق ناولها للصبي الساعي وهو يقول: «هل أكلفك من جديد أن تحضر لي هذا الدواء من الصيدلية؟».

«نعم يا سيدي».

وخرج هومير مسرعاً من المكتب.

ووقف وليام جروجان وحيداً في مكتب التلغراف ينظر حوله

وقد امتلأ قلبه عطفاً على الأشياء جميعاً. ومازج شعوره فورة متوثبة من التودد والمحبة. وامتدت يده في بطء إلىٰ صدره تقبض على موضع قلبه وكأنما كان ينتظر صابراً هذه الأزمة السريعة التي لم تعد تفاجئه. وعاد متراجعاً إلى مقعده، وجلس جامداً جموداً مخيفاً حتى استنفدت الأزمة شدتها كلها.

وعاد الساعي من الصيدلية وناول عامل التلغراف العلبة الصغيرة؛ فقال الرجل الهرم: «ماء».

وملأ هومير كوباً من الورق بالماء وحمله إلى الرجل الذي رفع من العلبة الصغيرة ثلاث حبات وألقاها في فمه، ثم أخذ الكوب من هومير وابتلع الحبوب وقال: «شكراً، شكراً يا بني».

«نعم، يا سيدي».

وراح ينظر إلى الرجل الهرم لحظة ليرى ما إذا كان سيتحسن أم لا، اتجه إلى مكتب التوزيع والتقط برقية الموت ووقف برهة ممسكاً بالبرقية ناظراً إليها، ثم فتح مظروفها وأخرج الرسالة وقرأها. ولما فرغ منها أعادها إلى ظرف جديد ثم ألصقه واستدار خارجاً من المكتب تحت المطر. وغادر عامل البرق الهرم مقعده وراح يتبع الصبي إلى الشارع، ولكنه وقف على إفريز الطريق يرقبه وهو يدفع بنفسه في الريح والمطر. وبدأ صندوق البرق يدق في المكتب ولكن الرجل الهرم لم يسمعه، ودق التلفون والرجل الهرم لا يسمع، ولم يستدر الرجل عائداً إلى المكتب حتى كان التليفون قد دق سبع مرات.

19



إلى أمي .. مع حُبي

وبعد خمس عشرة دقيقة ترجل هومير من على دراجته أمام بيت عتيق جميل أقيم فيه حفل، ورأى الساعي من النوافذ أزواجاً من الشباب ترقص، فأدرك أن جميع من في الداخل سعداء مرحين وأحس برعب شديد يجتاح كيانه كله من فداحة الخبر الذي يحمله إلى هذه الأسرة. وقف حائراً متردداً ماذا يفعل؟ أيقرع جرس البيت أم ينصرف؟ ووقف هناك برهة يستمع إلى الموسيقى، ثم تجرأ فرفع أصبعه إلى جرس الباب وترك يده تسقط من جديد إلى جانبه. وقال لنفسه بصوت عال: «لا، سأعود إلى المكتب. أستقيل، أنا لا أريد عملاً كهذا»: وعاد فجلس على الدرجات المؤدية إلى البيت. وبعد

أن لبث هناك طويلاً قام مرة أخرى متجهاً إلى الباب وضغط بإصبعه على الزر الصغير. ولما فتح الباب، رأى أمامه امرأة شابة، استدار هومير دون أن يدري ماذا يفعل وعاد مسرعاً إلى دراجته. ولكن المرأة خرجت وراءه تناديه: «ماذا هناك يا فتى؟».

فنزل هومير عن دراجته وسار نحوها بخطوات بطيئة وقال: «آسف يا سيدتي.. إنني أحمل برقية للسيدة كلود يا بوفرير».

فقالت المرأة في فرح: «إنها أمّي واليوم عيد ميلادها» واستدارت داخلة إلى بهو البيت وصاحت: «أمي برقية لك».

وجاءت أم الفتاة إلى الباب وقالت: «أوه.. أنا متأكدة أنها من ألان». والتفتت إلى هومير قائلة: «أدخل يا بني، لا بد أن تنال قطعة من كعكة ميلادي».

«أشكرك يا سيدتي إنني مضطر أن أعود مباشرة إلى العمل».

ومد يده إليها بالبرقية فأخذتها منه وكأنما البرقية ليست إلا تهنئة بعيد ميلادها، وقالت للصبي في مرح: «ما تقوله هراء، لن تعود حتى تأكل قطعة من الحلوى وتشرب كوباً من الشراب». وقبضت على ذراعه وسحبته إلى الداخل نحو مائدة مليئة بالفطائر والشطائر والشراب، واستمرت الموسيقى والرقص والمرأة تقول له: «إن اليوم عيد ميلادي يا بني». وضحكت قائلة: «رباه إني عجوز.. لا بد أن تتمنى لي السعادة يا بني» وناولت هومير كأساً من الشراب، فبدأ هومير يقول: «أتمنى لك...» ولكنه توقف و راح يحاول من جديد «أتمنى لك...» ولم يستطع أن يقول شيئاً، فوضع الكأس على المائدة

وخرج مندفعاً إلى الباب. نظرت الأم حولها ثم اتجهت إلى ركن لا يراها فيه أحد. وتحركت الأبنة إلى ركن مقابل وهي ترقب أمها. أما هومير فركب دراجته واندفع مسرعاً تحت المطر عائداً إلى التلغراف. وعلى الحائط في البهو أمام الأم تدلت من إطارها صورة صبي جميل ذي شعر أحمر، وقد كتب عليها: «إلى أمي مع حبي، آلان في عيد ميلاده الثاني عشر» وفتحت الأم البرقية وقرأتها فراحت تبكي دون أن يرتفع لها صوت، على حين استمر الحاكي يغني «أنشودة لفتاتي السمراء»، والجمع السعيد يواصل الرقص على الغناء. وتطلعت الإبنة إلى أمها، ثم انطلقت فجأة وكأنما فقدت صوابها، فأغلقت الحاكي وصاحت باكية: «أمي»، واندفعت إليها.

20



إنه حظك العاثر لا حظي أنا..

قذفت السينما بروادها بعد انتهاء عرض الفيلم. وفي الطريق التفتت بس إلى السمين وقالت: «لا بد أن نعود الآن إلى البيت».

فقال السمين: «شكراً لكما يا سيدتاي» وحان الوقت لأن يتبادلوا التحية وأن ينصرفوا، ولكنهم مع ذلك وقفوا في الطريق معاً ينتظرون وكأن شيئاً جميلاً رائعاً على وشك أن يقع. وراح السمين ينقل النظر بين ماري وبس ثم اتجه في يسر تام وبراءة كاملة فقبّل بس ثم ماري.

وصاح المسمى الحصان: «ونحن؟ أنا وتكساس؟ نحن أيضاً لسنا نكرات، إننا في الجيش كذلك» . وهكذا قبّل الجندي بس وماري

هو الآخر، وجاء دور تكساس فقبّلهما من بعده. وكانت هناك امرأة في الطريق راحت ترقب المنظر في تقزز مرير، فاستدارت الفتاتان ومضتا مسرعتين تهبطان الطريق. وقفز الحصان إلى أعلى ودفع بتكساس أمامه، فقفز هذا الأخير أيضاً ودفع السمين، ومالوا جميعاً إلى جانب الطريق يتصايحون.

وقال الحصان: «يا هوه!. يا هوه!. أما أنت يا تكساس! وهذا السمين!».

وصاح تكساس على السمين: «كيف يا بني..! كيف استطعت أن تتكلم هكذا كأحسن شيخ في البرلمان.. السناتور الهرم السمين من جامعة شيكاغو!».

وضحك السمين يزقزق في صخب وهم يتحدرون في الطريق المظلم متصايحين يقهقهون وهم يتدافعون.

وصاح السمين: «أوه.. عندما أدخل البرلمان.. سأكلمهم حقاً كلاماً جدياً!».

فصاح الحصان: «يوبي، أمامي، أيتها العجول، إنه حظك العاثر لا حظي أنا»[1].

وبدأ الجنود الثلاثة يقفز بعضهم على بعض، فيتقدم أحدهم وينحني، ليقفز عليه الآخران، ثم يعتدل ليأخذ دوره في القفز على من تقدم منهم وانحنى، وهكذا سلكوا الطريق الخالد يقتربون شيئاً فشيئاً إلى الحرب!

(1) هذا مطلع أنشودة من أغاني الغرب الاميركي كان يغنيها رعاة البقر وهم يدفعونها إلى المذبح.

21



عالم أجمل وأناس أفضل

عندما عاد الساعي الحزين من منزل عائلة بوفرير إلى مكتب التلغراف كان المطر قد توقف وشع نور القمر وقد راحت قطع من السحاب الخالي المتهالك تساق بيضاء عبر السماء. وأحس الساعي بتعب شديد وهو يدخل المكتب بساقه العرجاء.

وقال له عامل التلغراف الهرم: «ماذا جرى لساقك يا بني، إنك طوال اليوم تعرج».

«أوه لا شيء.. هل هناك برقيات جديدة؟».

فأجاب السيد جروجان: «لا، لا شيء.. وعما قريب تستطيع أن تعود إلى بيتك فتنام. ولكن قل لي ماذا حدث لساقك؟».

فقال هومير وهو يتفحص ساقه: «أعتقد أنها التوت أو كسرت، أو شيئاً من هذا القبيل.. لقد كنت مشاركاً في سباق المائتين والعشرين الباردة. وأظن أن مدرب المدرسة لا يحبني أبداً. ولكنها كانت غلطتي أنا، فقد كنت أركض في المقدمة. ورأيته قادماً إلى المجرى يحاول أن يوقفني، وكنت أستطيع أن أتوقف لو أنني أردت، ولكنني لم أكن أريد ذلك، إذ ليس له الحق في أن يوقفني، ولهذا قفزت بالرغم منه ووقعنا معاً على الأرض. وعند ذلك توقف بقية الأولاد عن الجري نتيجة لهذا التدخل، فقد قال لهم ذلك ولد اسمه هبرت آكلي الثالث. وهذا الولد لم أكن أنا أبداً أحبه، فهو من أسرة غنية ومهذب جداً. وإلى جانب هذا فإن الفتاة التي أحبها، وهي هيلين اليوت.. تحبه هو. وكلما ازدادت تعلقاً به ازددت تحرقاً وحباً لها. ولكني أظنها لا تلاحظ وجودي أبداً.

أوه، لا، لا أعتقد أنها تستطيع أن تتجاهل وجودي، ولكنها تتصور أني مغرور، ولا أحسب أنها تحبني أبداً، بل من الجائز أنها تكرهني فعلاً بالرغم من أنها الشخص الوحيد في هذا العالم الذي أحبه أكثر من أي إنسان آخر خارج أفراد أسرتي. وفي الحقيقة يا سيد جروجان أن هذا المدرب الذي اسمه بايفليد قد يكون طيباً إذا استطعت أن تفهمه، ولكني لا أعرف أحداً قد استطاع ذلك. إنه دائماً يثير المتاعب حوله. والسيدة هيكس تقول إنه يكذب أيضاً.. السيدة هيكس هذه هي التي تدرس لنا التاريخ القديم وهي تدرس في مدرسة إيتاكا العليا منذ خمس وثلاثين سنة، وقد درست لأخي ماركوس وأختي بس، وبعد أن وقعنا معاً قمت أنا طبعاً وبدأت

العدو من جديد، وعند ذلك ـ بكل أمانة ـ بدأ المتسابقون الآخرون يعدون. وقد أحسست إذ ذاك أن شيئاً قد حدث لساقي ولكني لم أتوقف لأرى ما حدث، فقد كنت أريد أن أفوز في السباق. وأنا لم أكن أريد أن أفوز لمجرد الفوز، بل لم أكن أريد حتى أن أهزم آكلي.. أتعرف أنني مندهش منه فهو الذي أوقف المتسابقون عن الجري عندما عطلني مستر بايفيلد. وأنا أعتقد أنه شاب طيب، ولكن كل ما في الأمر أن أخلاقه مهذبة أكثر مما يجب. وأقول لك يا مستر جروجان أن السبب الحقيقي الذي دفعني إلى المشاركة في سباق المائتين والعشرين الياردة هو أن مستر سبانغلر قد فاز في هذا السباق عندما كان في مدرسة إيتاكا العليا، ولكن بعد الذي حدث لي، أصبحت أريد أن أفوز لأجل السيدة هيكس.

لقد اشتبكت أنا وآكلي ونحن في الفصل في جدال بسيط، فاضطرت طبعاً السيدة هيكس أن تحتجزنا بعد المدرسة. ولكن بايفيلد، هذا المدرب، جاء إليها كاذباً وأخذ معه آكلي ولم يخلصني أنا. فقالت لي السيدة هيكس إنه يكذب كما اعتاد أن يكذب عندما كان في فصل التاريخ القديم وقد تألمت كثيراً منه على تصرفه هذا وأظن إنها لا تستطيع أن تحتمل هؤلاء الناس الذين يكذبون على هذا النحو. وراحت تتحدث إلي، وحكت لي عن أخي ماركوس ثم قالت لي إذهب الآن واشترك في السباق.. إن السيد سبانغلر كان بطل الوادي كذلك، غير أني أعتقد أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك هذا العام.

«وراح الساعي يحرك ساقه ليلينها مرة أو مرتين ثم قال: «أظن

أنه يحسن بي أن أدلكها الليلة وأضع عليها مرهماً طبياً، هل أعرج بشكل ملحوظ؟».

فأجابه السيد جروجان: «لا ليس ملحوظاً جداً، ولكنه قد يلحظ على أية حال. قل لي هل تركب دراجتك بسهولة؟».

«أوه طبعاً.. إلا إنها تؤلمني قليلاً وبخاصة عندما أرفع ساقي اليسرى، ولهذا أدفع الدعسة برجلي اليمنى، وأحياناً أرفعها عن البدال وأتركها تتدلى فتستريح في هذا الوضع. لا بد أن شيئاً قد حدث لألياف الساق، سأدلكها الليلة بالدهون الطبية».

وسادت بينهما لحظة من الصمت قطعها عامل البرق الهرم قائلاً: «لقد تغيرت قليلاً منذ جئت تعمل هنا من ثلاثة أيام، أليس كذلك؟».

«إذن قد لاحظت ذلك يا سيد جروجان؟.. نعم، أعتقد.. أني تغيرت فعلاً، لقد كبرت، وأظن أن الوقت حان لهذا. إنني لم أكن أعرف شيئاً أبداً قبل أن أعمل في هذه الوظيفة، أوه.. لا.. كنت أعرف أشياء كثيرة ولكنني لم أكن أعرفها معرفة كاملة، وما أظن أنني أستطيع ذلك أبداً، بل ما أظن أحداً يستطيع ذلك. فليس هناك ما يدعو ألا أقدر أنا على هذا إذا قدر عليه أحد غيري. إن كل من في مدرسة إيتاكا العليا، حتى أولئك الذين لا يحبونني يعتبرونني أذكى طالب هناك ولكني لا أرى نفسي ذكياً إلى هذا الحد فأنا كغيري لا أفهم كثيراً من هذه الأشياء الهامة جداً. إنني أريد أن أعرف وسأظل دائماً أريد أن أعرف. سأظل أحاول دائماً ولكني لا أعرف كيف أصل إلى ذلك. كيف يستطيع أي

إنسان أن يرى الأمور كلها واضحة ومستقيمة وذات معنى؟».

قال عامل البرق الهرم: «لا تسألني كيف يستطيع الإنسان أن يعرف فأنا لا أعرف ذلك، ولكني سعيد أنك قد عزمت على أن تظل تحاول».

«ولكنني مضطر أن أظل أحاول. إنني يا سيد جروجان لا أعرف ماذا يحس به الناس الآخرون، ولا أعرف أأستطيع أن أجعلك تفهمني أم لا، ولكني أريد أن أقول لك، إنني لست مجرد هذا الشخص الذي يراه الناس إن هناك شخصاً آخر بجانبه.. شخصاً آخر أفضل، وان كنت لا أستطيع أحياناً أن أعرف ماذا أفعل به».

واسترسل الساعي في حديثه منطلقاً، فقد كان متعباً تؤلمه ساقه، مرتبكاً لأنه حمل رسالة الموت لذلك البيت السعيد، مستشعراً متأكداً مع ذلك كله أن هذا العامل العجوز رجل طيب يستطيع أن يفضي إليه: «لا، لا، ماذا أفعل بهذه الأفكار الكثيرة التي تجيئني، عن عالم أجمل، وأناس أفضل، طريقة للحياة أحسن من هذا». وتوقف لحظة ثم واصل حديثه: «لو أنني أكلِّم أحداً غيرك يا مستر جروجان لخجلت ولكني أشعر أنني في يوم ما سأتحرك للعمل وأحقق شيئاً. وعلى الرغم من أني لا أدري أن ما هذا الذي سأحققه إلا أنني واثق أنه سيكون كبيراً. لقد كنت أعيش من قبل وأنا لا أكاد أعرف شيئاً أبداً وأقضي معظم وقتي وكأنني في حلم سعيد من أحلام اليقظة!! إن عائلتي جميعها من السعداء، فنحن جميعاً من أولئك الذين يحبون المرح. أما الآن فقد بدأت أتعلم.. أتعلم قليلاً جداً، ويوماً بعد يوم أصبح أكثر معرفة وإدراكاً، فأدرك شيئاً من هنا

وشيئاً من هناك، وأعرف عن هذا أو أفهم من ذاك..».

وتوقف الساعي من جديد وراح يختبر ساقه وكأنما يتوقع أنها ستشفى وهو يتكلم، فلما أحس بألمها واصل كلامه: «إنني يا سيد جروجان لا أستريح لهذه الحالة، ولست أعرف لماذا أريد أن أكون أفضل، فقد يكون هذا لمجرد اعتقادي أن من الضروري أن تكون أفضل. ولكنني أعرف على الأقل شيئاً واحداً حتى الان.. أعرف أنني لا أعرف شيئاً، وأنني عزمت على أن أظل دائماً أتعلم. سأكون منذ الآن يقظاً ألاحظ كل شيء وأفكر دائماً في هذا. قد يجعلني هذا أحس أنني وحيد، ولكني ما عدت أهتم بذلك، فإننا وإن كنا نحب دائما أن نكون مرحين سعداء، إلا أننا، أيضاً ذوو جلد نستطيع أن نحتمل. وليس ما أخشاه الآن هو أن أحس الوحدة في نفسي أنا، فقد أصبحت أخشى على أولئك الناس الذين لا يستطيعون الصبر والاحتمال. ومع ذلك يجرحون وتملأ نفوسهم الوحدة، عرفت الآن ما لم أكن أعرفه من قبل، وتبدّى لي أن العالم مليء بأمثال هؤلاء الناس. لم أعد الآن أهتم حتى ولو أن هيلين اليوت لم تحبني!! أنا حقاً أتمنى أن تفعل، ولكن ماذا إن لم تحبني؟

إنني أحبها بكل قلبي غير أنها إذا شاءت أن تحب هبرت آكلي الثالث بدلاً عني فلن يؤلمني هذا. إنه شاب طيب، وأظن أن فتاة مرفهة مثلها تفضل أن يكون صاحبها شاباً مهذباً مصقولاً كهبرت آكلي الثالث، ولست أظن أني سأكون مهذباً أبداً، فأنا لا أفعل إلا ما أعتقد أنه صواب وما أجد نفسي مضطراً إلى أن أفعله. إني في المدرسة، أقول أشياء مضحكة كثيرة، ولكنني لا أقصد الإساءة إلى المدرسين أو أن أسبب لهم المتاعب. أفعل ذلك أني مسافر له، فكلما

تطلعت حولي ورأيت الجميع حزانى مرتبكين ورأيت الأمور كلها تسير بطيئة بليدة أو منحرفة ضالة، وجدت نفسي مضطراً بين الحين والحين إلى أن أبعث فيهم المرح. فأنا أعتقد أن علينا أن نستخلص من حياتنا شيئاً من الفرح والسرور، ولا أظن أنني أستطيع أن أكون مهذباً مؤدباً عن عمد حتى ولو أردت ذلك، وما دمت لا أقصد فكيف أستطيع أن أكون».

وراح الساعي يثني ساقه مرة أخرى متكلماً عنها وكأنها ليست منه: «لا بد أن فيها شيئاً». ورفع نظره إلى الساعة ثم قال: «الساعة الآن يا سيد جروجان، الثانية عشرة وخمس دقائق. وأظن أني سأعود الآن إلى البيت وإن كنت لا أشعر الليلة بحاجة شديدة إلى النوم. إن غداً هو يوم السبت، وكان السبت خير الأيام عندي لكنه.. لم يعد كذلك. سآتي غداً إلى المكتب فقد أستطيع أن أقدم مساعدة ما» ورفع صندوق طعامه من مكتب التوزيع وهو يقول: «ألا تحب أن تأخذ قطعة سندويش الآن يا سيد جروجان؟».

فأجاب العامل العجوز: «نعم، ما دمت قد فكرتني بذلك يا بني فأنا الآن جوعان» وأخذ السيد جروجان السندويش من الصندوق المفتوح وقضم منه وهو يقول: «بلغ والدتك شكري على هذا».

«أوه.. هذا لا شيء».

«لا.. إنه شيء كبير.. أرجوك أن تشكرها بالنيابة عني».

«سأفعل يا سيدي».

وترك هومير المكتب عائداً إلى البيت.

22



فلندع النور يعم

خلا المكتب إلا من وليام جروجان، فقام يتحرك في بطء وتراخٍ وهو الذي كان في يوم من الأيام شاباً يسبق عمال البرق جميعاً، ومضى إلى المنضدة التي يعمل عليها يرتبها ويزيح الأوراق من فوقها، وراح الرجل يغمغم لنفسه نغماً قديماً بقي في ذاكراته من أيام شبابه الأولى. وبينما هو في عمله دخل عليه توماس سبانغلر ومضى صامتاً إلى مكتبه وهو ما زال منتعشاً بالجلسة عند كوربيت، مثقلاً قليلاً بالخمرة التي شربها، منتشياً بذلك المزيج الفريد من السعادة والدوار العميق الساكن. ونظر متطلعاً إلى العامل الهرم دون أن يتكلم معتمداً على ما بينهما من تفاهم عميق، فما أكثر ما جلسا معاً ساعة أو ساعتين يعملان دون أن يتبادلا كلمة واحدة. ورفع سبانغلر

البيضة التي تجلب له الحظ من فوق كومة البرقيات ومط شفتيه كي يتكلم كما تعودت هي أن تتكلم: «إنك تحبني أليس كذلك؟ نعم، نعم أنت تحبني».

فنظر العامل الهرم إلى مدير المكتب وقال: «توم، ما هذا؟».

«وللي، ماذا تقول في امرأة شابة تقول لك.. أنظر.. هكذا.. إنك تحبني، أليس كذلك؟ نعم، نعم أنت تحبني».

فقال السيد جروجان: «لا أدري... ماذا عساي أقول في هذا؟».

«ألا تحب امرأة كهذه يا وللي؟». ومضى سبانغلر يقلدها من جديد: «إنك تحبني، أليس كذلك». لقد ظلت طوال الوقت تقول هذا.

وفرك سبانغلر وجهه كأنما يريد أن يعلو ما يغمره من سعادة ثم قال: «ماذا تنوي أن تفعل الليلة؟».

«كالمعتاد... اللهم إلا إذا كانت الليلة ممطرة».

«وكيف حال الساعي الجديد.. هل هو صالح؟».

«أوه.. هذا أفضل ساعٍ عرفته.. ما رأيك أنت فيه؟».

«لقد أعجبني منذ اللحظة التي جاء فيها يطلب عملاً.. إنك تُحبني، أليس كذلك؟». إنه لم يكن يستطيع أن يتخلص من ذكرى هذه الطريقة الحلوة التي تقول بها تلك الكلمات القليلة ولكنه واصل كلامه: «أنا مسرور! إنك تحبه. إسمع يا وللي، لا تشغل بالك الليلة بإغلاق المكتب، سأفعل أنا ذلك، فعندي عمل قليل أريد أن أفرغ منه. ألا ترى معي أن اسم هذا الساعي اسم غريب ممتاز؟.. هومير ماكولي. لماذا تظن أن أباه قد أسماه هومير ولم يسمه مثلاً

توماس أو وليم أو هنري أو شيئاً مثل هذا..» ولم ينتظر سبانغلر أن يجيبه الرجل بل أستمر يقول: «نعم، نعم أنت تحبني».

ولكن جروجان قال: «وأخو هومير أيضاً أسمه يوليسيس ولكن أخته أسمها بس».

«هومير، يوليسيس، وبس».

«ولهم أخ آخر اسمه ماركوس في الجيش».

«ماركوس، هومير، يوليسيس وبس..وللي لم لا تعود إلى البيت؟».

«البيت؟». وابتسم مستر جروجان وهو يقول: «إذا سمحت يا توم دعني أبقى هنا معك، فليس لدي مكان أذهب إليه أو شيء أفعله بعد عملي ألا أن أذهب إلى النوم، أنا لا أنعم بالنوم كثيراً ولا أحبه.

فأجابه سبانغلر وكأنما يحدث طفلاً صغيراً: «إسمع يا وللي. أنا لا أريد أبداً أن تقلق بالك، فأنا أعرف أنك منزعج وليس هناك ما يدعو لذلك. إنك لست هرماً ولن يحيلك أحد على المعاش. وإنك تعرف تماماً لا أستطيع شيئاً في هذا المكتب بدونك. إنك ستعيش حتى تبلغ المائة وستظل تعمل كل يوم في حياتك».

«شكراً». وتوقف العامل الهرم عن الحديث برهة، ثم قال بصوت خافت: «لقد جاءتني الليلة الأزمة مرة أخرى.. أوه.. لم تكن خطيرة.. وقد كنت استشعر مقدمها منذ مدة، وكان الصبي معي هنا فأرسلته يحضر لي الدواء. وأنت تعرف مفروض أن أرى الطبيب ومفروض أن أستريح».

أوه يا وللي.. إن الأطباء لا يعرفون كل شيء.. إنهم يفهمون في المادة. أما الروح فلا.. وأنا وأنت نعيش بالروح!!.

وفجأة قال سبانغلر: «أنت تحبني أليس كذلك؟ إن الأطباء جميعاً لا يفهمون شيئاً إلا المادة فحسب. ولكن قد يكون من الأفضل على أية حال أن تستريح قليلاً».

«أوه.. سأستريح يا توم.. سأستريح الراحة الكبرى».

«إسمع يا وللي. سر إلى زاوية الشارع حتى كوربيت وخذ لك كأساً واستمع إلى البيانو قليلاً، ثم عد نتذاكر هنا الماضي، أتذكر ولنسكي وتوملنسون ودافينور الهرم؟ أتذكر هاري بول عامل الخط وفرد ماكينتر المجنون وجرى بياتي العجيب؟ إذهب يا وللي، خذ كأساً أو اثنتين وتعال نتذكر الأيام القديمة».

«لكن يا توم، من المفروض ألا أشرب... إنك تعرف أنه يجب علي ألا أفعل ذلك».

«أنا أعرف طبعاً أنه من المفروض ألا تشرب، ولكن أعرف أيضاً أنك تحب أن تشرب، وقد يكون ما يحبه المرء أحياناً أهم مما يحب عليه أن يفعله، فاذهب... إذهب وخذ كأساً».

«حسناً يا توم» وخرج السيد جروجان مغادراً المكتب.

ومنذ ثلاث دقائق مضت كان على الافريز أمام المكتب شاب ظل يروح ويجيء عدة مرات ؛ ثم دخل المكتب أخيراً ووقف عند المنضدة الطويلة، فلحظه سبانغلر وقام إليه وقال له وقد تذكره: «أهذا أنت؟ كنت أظن أنك الآن في طريقك منذ مدة إلى بيتك في بنسلفانيا. لقد أرسلت إليك أمك النقود ولم يكن هناك ما يدعو أن تعود لتدفع لي».

«أنا لم آت لأدفع لك. لقد جئت آخذ من جديد». وسعل الشاب

وهو يقول: «ولن أستجديك هذه المرة بل سآخذ منك عنوة.

«ماذا جرى لك؟»).

أخرج الشاب من جيب معطفه الأيمن مسدساً وحمله بيده المرتعشة وهو يقول: «هذا ما جرى لي» غير أن توماس سبانغلر، وما زال مخموراً سعيداً، لم يستطع أن يفهم الشاب فعاد هذا يقول له: «هيا.. هيا أعطني النقود.. كل ما عندك هنا من نقود. إن الناس جميعاً يقتلون بعضهم بعضاً، ولن يهمني إن قتلتك، ولن يهمني في شيء أن أُقتل أنا أيضاً. إنني الآن ثائر مضطرب ولا أريد أن أثير المتاعب، ولكنك إذا لم تعطني.. الآن.. كل النقود.. فسأطلق الرصاص.. هيا. هات النقود. أسرع».

ففتح سبانغلر الدرج وأخرج النقود من جوانبه المتعددة، ثم وضعها جميعاً بما فيها من أوراق وقطع معدنية ملفوفة وأخرى مبعثرة وأزاحها جميعاً على المنضدة أمام الشاب ثم قال له: «كنت سأعطيك النقود على أية حال، لا لأنك ترفع هذا المسدس في وجهي، بل لأنني أعرف أنك تحتاج إليها. خذ، خذ، هذا كل ما هنا من مال.. خذها جميعاً وأركب القطار وعد إلى البيت.. عد إلى حيث تنتمي.. فأنا لن أبلغ عن السرقة وسأسّوي الأمر بنفسي.. إنها حوالى خمسة وسبعين دولاراً..».

وانتظر سبانغلر حتى يأخذ الشاب النقود، لكنه لم يفعل، فعاد سبانغلر يقول:

«أنا أعني ما أقول.. خذ النقود واذهب فأنت بحاجة إليها. إنك لست مجرماً ولست مريضاً بحيث لا يمكن أن تشفى.. إن أمك تنتظرك، فخذ هذه النقود هدية مني إليها ولن تكون لصاً إذا

أخذتها. نعم.. خذها وابعد هذا المسدس وعد إلى البيت. ألق هذا المسدس بعيداً فستشعر أنك تحسنت».

وأعاد الشاب المسدس إلى جيب معطفه، ثم رفع يده إلى فمه المرتعش وهو يغمغم: «أستحق الآن أن أذهب فأطلق الرصاص على نفسي».

«لا تكن أحمق». وجمع مدير المكتب النقود جميعاً ومد بها يده إلى الشاب: «ها هي.. هذا كل ما هنا، وليس هناك إلا أن تأخذها وتعود إلى البيت، وإذا أردت.. فاترك معي هذا المسدس.. هذه هي نقودك.. نعم نقودك. فقد رفعت من أجلها المسدس. إنني أعرف شعورك تماماً، لقد أحسست به من قبل، ومر علينا ما أنت فيه الآن. إن القبور والاصلاحيات مليئة بأولاد أميركا الطيبين الذين عانوا من الحظ العاثر والأيام القاسية، إنهم ليسوا مجرمين..» ثم قال له بصوت حنون:

«خذ.. خذ هذه النقود وعد إلى البيت».

وأخرج الشاب المسدس من جيبه وأزاحه على المنضدة إلى سبانغلر الذي أسقطه في درج النقود المفتوح.

وقال الشاب: «أنا لا أعرف من أنت، ولكن أعرف أن أحداً من قبل لم يكلمني كما تفعل أنت. إنني لا أريد المسدس.. ولن آخذ النقود.. وسأعود إلى البيت. لقد سألت الناس في الطريق حتى جئت إلى هنا، وسأسألهم من جديد حتى أعود». وراح يسعل لحظة ثم قال: «إني لا أعرف من أين جاءت أمي بالثلاثين دولاراً فليس لديها ما تستغني عنه، ولكن سكرت ببعضها وقامرت بالبعض الآخر..».

فقاطعه سبانغلر قائلاً: «تعال.. ادخل هنا واجلس». تردد الشاب لحظة ثم ذهب إلى المقعد بجوار المكتب فجلس عليه، وجلس سبانغلر فوق المكتب ثم التفت إلى الشاب يسأله: «قل لي.. ما بك؟».

«لست أدري تماماً.. أظن أني مريض، وقد أكون مسلولاً فلست متأكدا، غير أني لم أكن مريضاً فمن المعقول جداً أن تسألني عن الحياة التي عشتها. إنني لا أحب أن أشكو فأنا أعرف أن كل ما قابلت من حظ عاثر إنما هو من عملي أنا وحدي. سأذهب الآن.. فألف شكر لك، وسأحاول أن أذكرك في يوم ما».

واستدار الشاب يريد أن يغادر المكتب، غير أن سبانغلر استوقفه قائلاً: «انتظر لحظة..! إجلس.. وهون عليك، فلديك الآن متسع من الوقت ولست متعجلاً كما كنت، ويحسن أن تحاول منذ الآن أن تتحرك في أناة قليلاً. قل لي ما الذي تحب أن تعمله؟».

«لست أدري.. لست أدري أي طريق أسلك أو أي عمل أتخذ، أو أي إله أؤمن به. إنني لا أدري شيئاً على الإطلاق. لقد كان أبي قساً ولكنه مات وأنا في الثالثة. وأنا الآن لا أدري ماذا أعمل». وتوقف الشاب ينظر إلى سبانغلر لحظة ثم قال: «وماذا هناك ليعمله المرء في أية حال؟».

«أوه.. لا شيء بالذات.. يعمل المرء في أي شيء. فليس من المهم ماذا يعمل المرء ما دام العمل صالحاً شريفاً».

«لقد كنت دائماً قلقاً ناقماً ولست أدري ما معنى هذا، ولكني لم أجد أبداً للأشياء معنى. إنني لا أحب الناس ولا أحب أن أكون قريباً منهم. إنني لا أثق بهم ولا أحب هذا النحو الذي يتبعونه في معيشتهم،

ولا هذه الطريقة التي يتحدثون بها، ولا هذه الأشياء والأمور التي يعتقدونها، وأكره مسلكهم في إرغامهم بعضهم بعضاً..».

«لقد مرَّ هذا الشعور بكل إنسان في وقت أو آخر».

«ليس ذلك لأنني لا أفهم نفسي، فإني أعرفها فيما أعتقد. لا، ليس لي عذر أبداً، إنني مسؤول عن كل ما حدث لي، لقد أصبحت الآن تعبا، معلولاً، مريضاً وقد زهدت في كل شيء، أرى العالم وكأنه جُنّ ! إنني لا أستطيع أن أعيش الحياة التي أريدها لنفسي، ولا أستطيع أن أحمل نفسي على قبول أي حياة أخرى، فليست النقود هي ما أريد أو أحتاج ؛ إنني أعرف أني أستطيع أن أحصل على عمل وبخاصة الآن. ولكني لا أحب أولئك الناس الذين يقدّمون العمل، فهم قوم سوء. إنني لا أستطيع أن أتدنى لهم، ولا أستطيع أن أدع أحداً يرغمني على شيء. لقد حاولت في نيويورك وبنسلفانيا أن احتفظ ببعض ما حصلت عليه من أعمال، ولكني كنت اشتبك دائماً في عراك فيفصلوني. كنت أقضي في كل عمل ثلاثة أو أربعة أيام أو أظل فيه أسبوعاً أو أسبوعاً ونصف أسبوع، وأطول ما بقيت في عمل كان شهراً واحدا! وقد حاولت وأنا في نيويورك أن ألتحق بالجيش. وقلت لنفسي هذا أحسن ما يمكن أن أفعل فقد أرسل بعيداً، وقد أقتل، وهم إذا كانوا سيرغمونك في الجيش أو يترأسون عليك فهم يفعلون ذلك لغرض قد يكون محترماً كريماً بعض الشيء. ولست أدري إذا كان حقاً محترماً كريماً أم لا. ولكنه على الأقل مفروض أن يكون كذلك. غير أنهم على أية حال لم يقبلوني. فقد فشلت في الكشف الطبي. لا بسبب رئتي فحسب. بل لأنهم وجدوا أيضاً أشياءً أخرى لا أدري ما هي ولم أهتم أبداً أن أعرف.

وبدأ الشاب يسعل من جديد وطال سعاله هذه المرة دقيقة كاملة، فأخرج سبانغلر زجاجة من أحد أدراج المكتب وقال: «خذ اشرب لك جرعة».

« شكراً.. إنني حقاً قد شربت كثيراً ولكني محتاج الآن لهذا».

وشرب جرعة من الزجاجة وأعادها إلى سبانغلر وهو يشكره.

وقدر سبانغلر بينه وبين نفسه أن يستحث الشاب على أن يستمر في حديثه، فقال له متسائلاً: «وماذا تقرأ».

«أوه.. أقرأ كل شيء.. أو على الأقل كنت أفعل ذلك عندما كنت في بيتنا. كان لدى أمي كتب كثيرة ولم تكن كلها دينية بل كان فيها كتب جديدة لمؤلفين ممتازين. وكان الكاتب الذي أحبه وأفضله هو وليم بليك، أظنك تعرف كتاباته. ولكني كنت أقرأ شكسبير وملتون وبوب ودون وديكنز وثاكري. كنت أقرؤهم جميعاً. لقد قرأت كل كتاب كان عند أبي. بل قرأت بعض الكتب مرتين والقليل منها قرأته ثلاث مرات. وكنت أحب القراءة ولكني لم أعد أشعر بذلك الآن أبداً، إنني لم أعد أحب الآن حتى النظر فى الجرائد اليومية، إني لا أعرف الأخبار. فماذا فيها إلا أخبار الفساد في كل مكان دون أن يهتز إنسان في العالم لشيء من هذا كله». ووضع الشاب رأسه بين يديه وراح يتكلم بصوت خافت دون أن يرفع رأسه: «إني لا أستطيع أن أشكرك على ما فعلت ولا أن أشكر فيك هذا الإنسان الذي كنته. فلا بد أن أقول لك إنك لو كنت قد خشيتني أو أسأت إليّ لما ترددت أبداً في إطلاق الرصاص عليك.. إن الناس جميعاً في هذه الدنيا جبناء قساة، وأنا أعرف أنني لم آت إلى هنا أحمل مسدساً من أجل النقود. قد لا تستطيع أن تفهمني

ولكني أريد أن أقول لك إنني جئت إلى هنا بمسدسي لأرى هذا الرجل الذى كان سمحاً كريماً مع إنسان لآخر لا لغرض إلا لأن يكون سمحاً كريماً، ولأن أعرف وأطمئن أنه هكذا حقاً وأن الأمر كله لم يكن مصادفة أو اعتباطاً!! إني لا أستطيع أن أعتقد أن هناك إنساناً واحداً كريماً سمحاً حقاً. فإن هذا سيفسد على تصوري للأشياء كلها وفهمي للناس جميعاً. لقد صرت أعتقد منذ زمن بعيد أن الجنس البشري كله فاسد، لا أمل فيه، وأنه ليس هناك إنسان واحد جدير بأن يسمى إنساناً، أو بأن ينال التقدير والأحترام من إنسان آخر. لقد ظللت أمداً طويلاً لا أحمل في نفسي إلا الاحتقار والازدراء للضعيف المسكين والمتكبر المتعجرف على السواء. ولكن هنا أجد فجأة بلداً غريباً، وعلى أميال بعيدة من وطني، رجلاً سمحاً كريماً. لقد أقلقني زماناً طويلاً، وكان علي أن أتحقق وأن أتأكد. فأنا لم أكن أستطيع أن أؤمن أو أن أصدق ما وقع لي. كنت أريد أن يكون هذا حقاً وكنت أريد أن أن أؤمن به، فطالما قلت لنفسي سنوات عديدة: «دعني أجد إنساناً واحداً طاهراً غير فاسد في هذا العالم كله، فأستطيع أنا أن أتطهر وأن أتجنب الفساد، وأستطيع أن أؤمن وأن أعيش، ولم أكن متأكداً عندما التقينا أول مرة، أما الآن فقد تأكدت ولم أعد أطلب منك دليلاً آخر. لقد أعطيتني كل ما أريد وليس في وسعك أن تعطيني شيئاً بعد! إني أعرف أنك تفهم ما أقوله كله وعندما أقوم الآن فإنما أقوم لأودعك. لا أريد منك أن تقلق عليّ فليس هناك ما يدعو لذلك، إنني عائد إلى بيتي.. إلى حيث أنتمي، ولن أموت بهذا المرض بل سأعيش، وقد عرفت الآن كيف...».

وظل الشاب لا يرفع رأسه لحظة، ثم قام في بطء ونظر إلى سبانغلر ثم قال: «ألف شكر».

وراح سبانغلر يرقب الشاب وهو يسير مغادراً المكتب ثم ذهب إلى درج النقود فردَّها جميعاً حيث كانت، وأخذ مسدس الشاب فأفرغ الرصاص منه ووضعه في الدرج وأسقط الرصاصات في جيب معطفه. ثم اتجه سبانغلر بعد ذلك إلى الرف الصلب الذي يحفظون عليه البرقيات يوماً بعد يوم في حزم مستقلة، وعثر على برقية الشاب التي أرسلها لأمه، فأخرجها من الحزمة وأخذ برقية فارغة، وبدأ مدير المكتب يكتب برقية لنفسه:

«السيدة مارجريت ستريكمان

1874 بيدل ستريت

يورك بنسلفانيا

أمي العزيزة، شكراً على النقود، سأعود حالاً، كل شيء يسير سيراً حسناً».

وقرأ كلمات البرقية مرة أخرى، ثم قرر أن يغير «سيراً حسناً» وأن يضع بدلها «على ما يرام» ثم تذكر الشاب لحظة وأضاف إلى البرقية: «مع حبي، جون». وأخذ سبانغلر الورقة وذهب إلى منضدة مستر جروجان وراح يطلب العامل على الخط. ولما جاءه الرد بعد دقائق عديدة، بدأ يدق البرقية حتى فرغ منها، ثم بدأ يتكلم مع العامل في نهاية الخط مبتسماً وهو يستمع إلى النقط والخطوط ويدق للآخر إجابته. وعندما انتهى من حديثه قام عائداً إلى مكتبه.

ودخل وليام جروجان وجلس في المقعد الذي جلس فيه الشاب، فسأله سبانغلر: «كيف حالك الآن؟».

«أحسن طبعاً.. لقد شربت كأسين يا توم واستمعت للجنود يغنون. أتعرف إنهم يحبون البيانو وهذه الأغاني القديمة التي لم يسمعوها أبداً من قبل».

فقال سبانغلر: «أنت تحبني؟ أليس كذلك؟ نعم، نعم أنت تحبني.. وأنت تعرف». هذا ما كانت تقوله لي يا وللي.. وهي تقوله بهذه الطريقة نفسها. أظن أني سأتزوجها.

وتوقف لحظة عن الحلم بديانا ستيد، وراح يتأمل وجه صديقه ثم قال: «هذه الأغاني القديمة طيبة جداً».

«أتذكر يا توم طريقة دافنيوز الهرم في غناء هذه القطع؟».

«طبعا.. وما دام هذا المكتب قائماً فسأظل أذكره.. إنني أكاد أسمعه الآن وهو لا يغني هذه القطع بل يغني أناشيد الكنيسة أيضاً. فهل نسيت الأغاني الكنسيّة التي اعتاد دافنيوز الهرم أن يغنيها كل أحد؟».

«لا، لم أنس، إني أذكر كل واحدة منها.. كان يحب حقاً أن يدّعي أنه غير مؤمن، وبالرغم من ذلك كان يظل يرتل طول يوم الأحد.. كان يظلُّ طول النهار يمضغ الدخان ويرسل البرقيات.. ويغني ويقذف في المبصقة عصير الدخان من فمه. وفي أول النهار كان يبتدىء دائماً مغنيا: مرحباً بك أيها الصباح الجميل، صباح يوم الراحة المقدس ». لقد كان رجلاً عظيماً يا توم.. وبعد قليل ينفجر صائحا: «ذلك يوم النور، فلتدع النور يعم اليوم».

«نعم أذكر.. أذكره يغني «فلتدع النور يعم اليوم «ثم يبصق في الإناء».

وبعد ذلك يغني «إلهنا يا رب الصباح ويا رب المساء، إننا نشكرك على نعمة النور التي وهبتها لنا نعم، هذا الكافر الكبير.. كان يحب النور والحياة أكثر من أي شيء آخر. فإذا ما انتهى النهار قام عن مقعده بطيئاً وراح يتمطّي وهو يغني في رِقّة: «مر النهار وها هو الليل يقترب». قد كان يعرف كل الأغاني القديمة الجميلة ويحبها جميعاً واحدة واحدة. أتذكره يصيح مغنياً «أيها المخلص» متظاهراً أنه كافر يتهكّم: «أيها المخلص، أرسل لنا مع النسيم بركات المساء، قبل أن تنطوي منا النفوس وترقد. لقد جئناك بالخطيئة والحاجة نعترف ونسجد، فأنت وحدك المخلص وأنت وحدك رب الشفاء».

وصمت عامل البرق الهرم يتذكر صديقه القديم الذي طواه الموت منذ سنوات بعيدة ثم قال: «لقد صدق يا توم.. لقد صدق، فهذا حق».

وابتسم مدير المكتب وهو يربت على كتف صديقه ويقوم ليطفئ الأنوار ويغلق المكتب تأهباً للرحيل.

23



أيها الموت لا تذهب إلى إيثاكا

كان هومير في الفراش يفرك ويتقلب، منزعجاً بحلم يرى نفسه فيه يجري من جديد في سباق الحواجز، وكلما اقترب من حاجز وجد عنده بايفيلد يريد أن يوقفه، ولكنه لا يهتم به ويقفز فيقعان معاً على الأرض. وكان بايفيلد يلقاه عند كل حاجز، واحداً وراء واحد، حتى أصبحت الإصابة في ساقه مؤلمة جداً، فلما حاول أن يجري من جديد لم يستطع أن يمسك نفسه ووقع على الأرض، ولكنه تماسك وقام وكال بايفيلد لكمة على فمه، وصاح صارخاً فيه: «بايفيلد، إنك لن تستطيع أن توقفني.. ومهما انخفضت الحواجز وارتفعت فلن تستطيع أن تعوقني مهما كانت».

وبدأ يجري مرة أخرى وهو يعرج أول الأمر ولكنه سرعان ما انطلق يعدو عدواً رائعاً، فلما بلغ الحاجز التالي وجده مرتفعاً عالياً لا تستطيعه قدرة انسان، ولكن هومير ماكولي، وهو الذي قد يكون الآن أعظم رجل في إيتاكا برمتها قفز الحاجز في رشاقة واتزان كامل.

ورأى هومير نفسه بعد ذلك في حلمه يرتدي حلة الساعي ويركب دراجته منحدراً بسرعة في طريق شائك. وفجأة رأى بايفيلد أمامه في الطريق، ولكنه اندفع إليه أسرع من كل مرة أخرى صائحا: «بايفيلد. لقد قلت لك إنك لن تستطيع أن توقفني». ورفع مقدم دراجته محركاً ذراع القيادة إلى أعلى، وسرعان ما بدأت الدراجة ترتفع طائرة في الهواء محلقة فوق رأس بايفيلد مباشرة ثم هبطت بخفّة إلى الأرض من ورائه. ولكن ما كاد يحس أرض الطريق حتى وجد بايفيلد أمامه مرة أخرى، فترك الدراجة من جديد وظلت عالية محلقة على بعد عشرين قدماً فوق رأس بايفيلد، ووقف الرجل في الطريق يحملق مدهوشاً مستاًء. ثم صرخ في الساعي: «إنك لا تستطيع أن تفعل هذا.. لقد خرجت على قانون الجاذبية».

فصاح هومير مجيباً: «قانون الجاذبية، قانون المتوسطات، قانون العرض والطلب، ماذا يهمني أنا من هذا كله أو من أي قانون آخر. إنك لن تستطيع أن توقفني.. هذا كل ما أعرفه.. لن تستطيع أن توقفني.. أيها الحشرة.. أيها العفن الصدئ...» وحلق الساعي في الفضاء تاركاً وراءه الرجل في الطريق قبيحاً مهاناً محتقراً كأشد ما يكون الاحتقار.

ووجد هومير نفسه بعد قليل طائراً بدراجته وسط سحائب سود،

ولم يلبث وهو يخترق السماء، أن رأى راكباً آخر مثله على دراجة قد ارتدى حلة كحلته، يخرج من سحابة سوداء ويندفع بسرعة تفوق سرعته. وتعجب هومير من أن الساعي الآخر يبدو وكأنه هو نفسه، إلا أنه في الآن ذاته شخص يحس هومير أنه يخافه ويخشاه. وعزم بينه وبين نفسه أن يسابق هذا الساعي الآخر وأن يلحق به حتى يعرف من يكون، وتسابق الراكبان مسافة بعيدة قبل أن يستطيع هومير أن يقترب منه، فلما تقاربا استدارالآخر فجأة ونظر إليه. وذهل هومير عندما رآه يشبهه تماماً، ومع ذلك فهو يستشعر في يقين تام، لا من مظهر الساعى، بل من مجرد إحساسه، أن هذا الساعي ليس إلا ساعي الموت، واقترب الراكبان في إيتاكا فزاد هومير من سرعته منطلقاً وراء ساعي الموت. ونظر هومير تحته واستطاع أن يرى على بعد أنوار المدينة المنعزلة وبيوتها الجميلة وشوارعها المنتظمة. وقرر بينه وبين نفسه أن يسبق الساعي الآخر كي يُبعده عن إيتاكا، فقد أحس أنه ليس في الدنيا جميعها شيء أهم من أن يمنع هذا الساعي من الوصول إلى إيتاكا.

وكان السباق عنيفاً قاسياً ولكنه كان شريفاً عادلاً لا خداع فيه ولا حيل. ومسّهماً الجهد والإرهاق على السواء، إلا أن هومير قد استطاع أخيراً أن يجانب الراكب الآخر وأن يصرفه عن إيتاكا. ولكن هذا الأخير زاد من سرعته فجأة وابتعد عنه عائداً إلى المدينة الصغيرة، وأحس هومير بالخيبة والأسى وإن ظل يسابقه مندفعاً بكل قوته. غير أن هومير لم يستطع أن يواصل السباق فقد تقدمه الساعي كثيراً متجهاً إلى إيتاكا ومخلفاً إياه وراءه!! لقد نفد جهده ولم تعد لديه

القدرة على مطاردة ساعي الموت. كاد الصبي ينهار على دراجته باكياً منتحباً في مرارة. ولم تلبث الدراجة نفسها أن بدأت تسقط متحطمة، فصاح الصبي: «عد.. لا تذهب إلى إيتاكا.. دعهم في أمان.. ارجع.. عد».

وراح الصبي ينشج في حزن مخيف.

أما في المنزل القائم على طريق سانتا كلارا فإن يوليسيس وقف إلى جانب أخيه هومير الحالم وراح يستمع إليه، ثم سار خلال البيت المظلم حتى وصل إلى فراش أمه فهزها، وقامت الأم جالسة فأخذ يوليسيس يدها دون أن يتكلم وذهبا معاً نحو فراش هومير. ووقفت السيدة ماكولي تستمع لحظة إلى ابنها ثم ردت يوليسيس إلى فراشه وأحكمت الغطاء عليه وعادت لتجلس إلى جانب ابنها الباكي. وبعد قليل راحت تكلمه في حنان دافق: «كفى يا هومير... استرح.. إنك متعب جداً ويجب أن تستريح نم الآن..نم في أمان». وبدأ الساعي يكف عن النشيج وتتبدد معالم القلق والاضطراب عن وجهه وأمه تواصل كلامها: «نم.. نم الآن.. نم في سلام».

وعندما رأت الصبي قد عاد إلى النوم نظرت تطمئن على ابنها الصغير فوجدته قد استغرق في النوم هو الآخر، وإذا بها ترى ماتيو ماكولي في ركن الغرفة يقف يرقبها ويبتسم، فقامت بهدوء وأخذت معها المنبه ومضت عائدة إلى غرفتها.

انتقل الحلم في نومه من عالم الرعب الفزع إلى عالم من الدفء والنور والراحة. ورأى هومير نفسه في منامه الجديد يرقد على ظهره تحت شجرة تين نمت عند مجرى صغير، فقال لنفسه وهو نائم: «لا بد

أن يكون هذا عند «ريفردال»، حيث رأيت شجرة التين إلى جانب النهير وقد توهجت الشمس ترسل أشعتها الضاحكة فتبعث الضحك في كل شيء آخر.. إني أذكر هذا المكان، ألم آت إليه أنا وماركوس في الصيف الماضي كي نستحم، لقد جلسنا حينذاك على شط النهير، وتحادثنا سوياً عما سنفعله بحياتنا» واطمأن هومير وهو نائم إلى جمال المكان وأحس دفء الذكرى فتمطى مستريحاً على العشب ونسي تماماً أنه نائم.

كان يرتدي الملابس نفسها التي كانت عليه ذلك اليوم من الصيف، عندما كان هو وماركوس هنا. إلا أن عصا الصيد الطويلة المثبتة في الأرض اللينة لم يضعاها في ذلك اليوم بل كانت هناك دائماً منذ زمن بعيد. إنه يرى الآن هيلين إليوت قادمة من الأرض التي تعلوها الأعشاب والأشجار حافية القدمين مثله، وقد ارتدت ثوباً قطنياً بسيطاً وراحت تسير على ممر ضيق متجهة إليه.

فقال هومير لنفسه: «هذه هيلين اليوت، فتاتي، التي أُحبُّها». وجلس مبتسماً يرقبها وهي تخطو إليه، ثم قام على قدميه لكي يلقاها ويحييها. ولم يتكلم هومير، بل علاه شيء كالوقار والجد، وأخذ يد الفتاة وسارا معاً إلى الشجرة. وهناك خلع هومير قميصه وسراويله واندفع سريعاً ليغطس في النهير. أما الفتاة فقد توارت وراء شجرة لتخلع ملابسها هناك وراح هومير يرقبها وهي تقترب من حافة النهير فتقف لحظة ثم تلقي بنفسها إلى الماء. وظل الاثنان، وما زالا في وقارهما، يستحمان برهة في الماء، ثم غادراه معاً ليرقدا على الرمل جنباً إلى جنب تلفهما الشمس والنوم.

24



شجرة المشمش

استيقظ يوليسيس ماكولي مبكراً هذا الصباح يحجل تحت أشعة الشمس المبكرة إلى فناء رجل يمتلك بقرة. ولما وصل إلى الفناء رأى يوليسيس البقرة وظل يراقبها أمداً طويلا. وجاء أخيراً الرجل الذي يمتلك البقرة خارجاً من بيت صغير يحمل وعاءً ومقعداً صغيراً. وأتجه مباشرة إليها وبدأ يحلبها، وتقدم يوليسيس مقترباً منهما حتى أصبح وراء الرجل مباشرة ولكنه لم يستطع أن يرى ما يقنعه فانحنى على ركبتيه متقدماً حتى كاد يكون تحت البقرة تماماً.. ولاحظ الرجل الصبي ولكنه لم يتكلم فقد كان مشغولاً بما يفعل، إلا أن البقرة التفتت ونظرت إلى يوليسيس، تحتها، فغادر مكانه وابتعد قليلاً

يرقبها عن كثب. ولما نظرت إليه البقرة من جديد أحس الصبي أنهما أصبحا صديقين.

وسار يوليسيس في الطريق عائداً إلى البيت، فمر برجل يبني جرناً فوقف يرقبه. ويبدو أن الرجل كان حساساً عصبياً نافد الصبر وليس البناء من عمله، فكان الرجل يؤديه في ثورة وغضب محدثاً أخطاء كثيرة بحركاته، وظل يوليسيس يرقبه دون أن يفهم شيئاً.

وعاد يوليسيس أخيراً إلى طريق سانتا كلارا بينما كان مستر أرينا يركب دراجته منصرفاً إلى عمله، ووقفت ماري أرينا في الباب تلوح لأبيها حتى اختفى. ثم عادت أدراجها إلى البيت.

كان النهار صباح يوم السبت في إيتاكا، وهو أسعد أيام تلاميذ المدرسة. ورأى يوليسيس صبياً في الثامنة أو التاسعة يخرج من بيت غير بعيد. فلوح له محيياً ورد عليه الصبي التحية، وهذا الصبي، ليونيل كابوت، هو أبله الناحية، وكان مع ذلك صبياً ضخم الجثة كريماً دمث الخلق. وتطلع ليونيل مرة أخرى بعد لحظة إلى يوليسيس، ولما لم يجد شيئاً آخر يفعله لوح له بيده من جديد. وظل هذا يتكرر على فترات متباعدة حتى خرج أوغست غوتليب من البيت المجاور لسوق آرا.

وقد تسلم أوجي قيادة أولاد هذه الناحية منذ أن اعتزل هومير هذا المنصب في الثانية عشرة. وتلفت القائد الجديد حوله يتفقد أتباعه، فاستبعد ليونيل لأنه لا يفهم، ويوليسيس لأنه ما زال صغيراً، ولكنه مع ذلك رفع يده يحييهما، ثم سار حتى منتصف الطريق وأخذ يصفر صفير بائعي الجرائد، وكان صفيره عالياً يشعر بالسلطة

وبالأمر الذي لا مرد له ولا تكرار. ووقف أوجي يفكر في ثقة الرجل الذي يعرف ما هو فاعله، الواثق بما سيحصل عليه من نتائج، فتفتحت النوافذ مباشرة ودوت الصفارات في المكان تجاوبه، وما لبث أن جاءت جماعة الصبية تجري متجمعة عند الناصية. وفي أقل من ثلاث دقائق كانت العصابة كلها قد التأم شملها، أوجي جوتليب القائد ونيكي بالوتا وآلف ريف وشاج مانوجيان..

وقال نيكي: «أين نحن ذاهبون يا أوجي؟».

فأجاب أوجي: «سنذهب لنرى هل نضج المشمش لدى هندرسون أم لا».

وسأله ليونيل: «هل أستطيع أن آتي معكم؟».

«لا مانع يالونيل.. ولكن إذا وجدنا المشمش قد نضج، فهل ستسرق معنا؟».

فأجاب ليونيل: «السرقة خطيئة».

فقال أوجي متكلفاً أن يوضع له تفرقة هامة: «.. لا ليس سرقة المشمش». والتفت بعد ذلك إلى يوليسيس قائلاً له: «أما أنت يا يوليسيس... فعد إلى البيت، هذا أمر خطير.. وليس للصغار أن يتدخلوا فيه».

فخطا يوليسيس مبتعداً ثلاث خطوات ووقف يرقبهم.. إن أوامر أوجي لم تجرحه أو تغضبه فهو يفهم شريعة العصيان، ويعرف أن أوجي لم يقصد أن يقول إلا أنه لم يكبر بعد. ولكن يوليسيس على احترامه لهذا القانون لم يكن يستطيع أن يقمع في

نفسه الرغبة في الذهاب على أية حال مع العصابة.

واتخذ الصبية طريقهم إلى بيت هندرسون، لا يسلكون الشوارع والطرقات المنتظمة بل ينفذون في الحارات ويعبرون الأراضي العارية ويتسلقون الأسوار والأسلاك، فهم لا يحبون الطريق السهل بل يريدون أن يركبوا المسلك الصعب الوعر، المليء بالمخاطر والمغامرات. أما يوليسيس فقد سار وراءهم يتبعهم على مسافة ليست ببعيدة فتفزعه أو قريبة فتشغلهم.

وقال أوجي لأفراد عصابته: «أتعرفون أن المشمش إذا نضج فهو أطعم فاكهة في العالم».

فسأله نيكي بالوتا: «ولكن هل ينضج المشمش في آذار (مارس)؟».

فرد أوجي: «لقد أصبحنا في نيسان (أبريل) تقريباً، والمشمش البكر ينضج حالاً ما دامت الشمس وافرة».

فقال آلف ريف: «ولكن السماء مع ذلك أمطرت كثيراً..».

فقال أوجي: «ومن أين تظن إذن يأتي هذا العصير في المشمش؟.. من الماء.. من هذا المطر. إن المطر ضروري للمشمش ضرورة أشعة الشمس تماماً».

فقال شاج مانوجيان: «الشمس أدفأته بالنهار والمطر بالليل ملأه بالعصير!! لا بد أن الشجرة الآن مليئة بالمشمش الناضج».

فقال آلف ريف: «آه يا بني نرجو هذا..».

ولكن نيكي بالوتا عاد يقول: «ما زال الوقت مبكراً على نضوج المشمش.. أنه لم ينضج في العام الماضي إلا في حزيران (يونيو)..».

«هذا كان في العام الماضي.. إننا الآن في هذه السنة..».

وعندما أصبحوا على بعد مائة ياردة تقريباً من شجرة المشمش الشهيرة وقف الصبية جميعاً يملؤهم الإعجاب بالشجرة العجوز الكبيرة وقد اخضرت أوراقها جميعاً، وبدت غاية في الجمال. كانت الشجرة قائمة في الناحية الخلفية من فناء دار هندرسون. وظل هندرسون الهرم عشر سنوات يتلقى غزوات أطفال الجيرة على شجرته. ففي كل ربيع يجلس مستر هندرسون في بيته المتهدم يرقب قدوم الصبية في سرور وتلذذ ويحاول دائماً أن يرضيهم فلا يظهر إلا في اللحظة الأخير ليفزعهم ويصرفهم عائدين. وكان مستر هندرسون الآن كعادته وراء ستائر نافذته. فلما رآهم رفع عينيه عن الكتاب الذي يقرأ وقال لنفسه:

«أنظر.. أنظر جاءوا يسرقون المشمش في آذار (مارس)، في الشتاء.. أنظر.. أنظر» وراح يتلصص عليهم من جديد ويصفر كأنه واحد منهم: «أجئتم تقطفون مشمش هندرسون الهرم.. ها قد جاءوا.. رويدكم الآن.. ها.. » وبدأ الرجل يضحك وهو يواصل حديثه لنفسه: «لتنظر.. إليهم.. أنظر إلى هذا الصغير بينهم.. إنه لا يتجاوز الرابعة أبداً.. عضو جديد.. هيه.. تعال.. تعال.. تعال إلى الشجرة القديمة العجوز الرائعة لو أني أستطيع أن أنضج لك المشمش لتسرقه.. لفعلت..».

ووقف هندرسون يتفرج على الصبية وأوجي يلقي إليهم بتعليماته ويقود الهجوم وينظمه.. واحتاطوا الآن بالشجرة حذرين وجلين، وامتزج في قلوبهم الأمل مع الخوف. فالمشمش وإن كان لا يزال أخضر فهو مشمش هندرسون وعلى شجرته، ولا فرق بين مجيئهم وهو أخضر وقدومهم وقد نضج، فكم يأملون إذن أن يكون قد نضج فعلاً، إلا أنهم خائفون من هندرسون ومن الخطيئة، خائفون من أن يقبض عليهم ومن أن يتهموا، وخائفون مع ذلك كله أن يكونوا قد بكروا في المجيء وأن يكون المشمش ما زال أخضر لم ينضج بعد.

وهمس نيكي بالوتا وقد وصل الصبية الثلاثة عند الشجرة تقريباً: «قد لا يكون في البيت».

«من؟.. هذا؟ إنه دائماً في البيت، وكل ما في الأمر أنه مختف!! هذه خدعة.. إنه يريد أن يقبض علينا فاحترسوا جميعاً. إننا لا ندري من أين يطلع علينا.. يوليسيس عد أنت إلى البيت».

فتراجع يوليسيس طائعاً خطوات ثلاثاً، وراح يرقب هذا الصراع الرائع مع تلك الشجرة العظيمة.

«الأخضر فحسب، ولكن هذه هي الأوراق ولا بد أن المشمش تحتها. اصمتوا الآن واستعدوا.. أين ليونيل؟».

فهمس ليونيل وقد ملأه الذعر: «هنا..».

«حسناً..كن مستعداً..إذا رأيت هندرسون الهرم.. فلنجر..».

فغمغم ليونيل: «ولكن أين هو؟»وكأنما هندرسون لا يكاد، أو هو

شيء لا يكبر عن الأرنب وقد يقفز فجأة من وسط الأعشاب.

«ماذا تعني.. أين هو؟!.. إنه في البيت فيما أظن.. ولكن من الذي يطمئن مع هندرسون هذا.. فقد يكون مختفياً هنا في الخارج في مكان ما يريد أن يأخذنا على غرة!».

وتساءل آلف ريف: «هل تتسلق أنت الشجرة يا أوجي؟».

«ومن إذن؟.. أنا طبعاً الذي سيتسلقها.. ولكن فلنطمئن أولاً إلى أن المشمش قد نضج..».

فقال شاج مانوجيان: «ناضج.. أخضر.. سّيان.. إننا نريد على الأقل أن نسرق ولو قليلاً منه يا أوجي».

«إطمئن.. سنفعل. أما إذا كان قد نضج فسنسرق الكثير».

فقال ليونيل لأوجي: «ماذا تقول غداً، وأنت تعترف في مدرسة الأحد؟».

«ليونيل! سرقة المشمش ليست كهذه السرقة المذكورة في الكتاب المقدس.. هذا شيء آخر».

فعاد ليونيل يسأله: «لماذا أنت خائف إذن؟».

«خائف؟.. أنا خائف!!.. كل ما في الأمر أنه لا بد من الاحتراس.. فليس ما يدعو للقبض عليك إذا كنت تستطيع الإفلات».

فاستمر أوجي يقول: «ولكنّي لا أرى مشمشاً ناضجاً».

«لكنك ترى الشجرة.. أليس كذلك».

فقال ليونيل: «الشجرة.. نعم يا أوجي أراها تماماً، ولكن هذا كل ما هناك. مجرد شجرة كبيرة، كلها خضراء.. وهي، لا شك.. أيضاً.. جميلة جداً».

وأصبحت العصابة الآن تحت الشجرة تقريباً إلا يوليسيس فقد كان يتبعهم من مسافة قريبة. إنه لا يستشعر أبداً ذرة واحدة من الخوف، وبالرغم من أنه لم يفهم شيئاً مما يجري فإنه كان واثقاً من أن هنالك أمراً هاماً يتعلق بشجرة وبمشمش.

وراح الصبية يتفحصون غصون شجرة المشمش القديمة وقد اخضرت جميعها بالأوراق الصغيرة الجميلة، ورأوا أن المشمش لا يزال أخضر جداً غاية في الصغر. وأنه لا شك صلب جداً.

وقال آلف ريف: «إنه لم ينضج بعد».

فأجاب أوجي معترفا: «حقا.. أظنه يحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام.. ربما في السبت القادم».

فقال شاج: «طبعاً.. في السبت القادم».

«إلا أن الشجرة محملة على أية حال».

فقال شاج: «إننا لن نعود وأيدينا فارغة يا أوجي... لا بد أن نقطف واحدة علي الأقل... كانت خضراء أم ناضجة. لا بد أن نحصل ولو على واحدة».

«وهو كذلك.. سأقطع أنا واحدة.. وتستعدون أنتم للجري».

واندفع أوجي إلى الشجرة فتعلق بأحد غصونها القريبة، وأفراد

العصابة وهندرسون ويوليسيس يرقبونه في سرور ودهشة وإعجاب. وعند ذاك خطا مستر هندرسون خارجاً من البيت على درج الشرفة الخلفية، فاندفع الصبية جميعاً يجرون كسرب من الأسماك الصغيرة الفزعة.

وصاح شاج مانوجيان: «أوجي.. هندرسون!».

ففزع أوجي فزعة القرد في الغاب، وراح يتأرجح في الشجرة معلقاً بغصن من أغصانها، ثم تركه ساقطاً على الأرض واندفع يجري والأرض لم تكد تمسُّ قدميه. إلا أنه رأى يوليسيس فتوقف صارخاً على الصبي:

«يوليسيس إجرِ.. إجرِ..».

غير أن يوليسيس لم يتحرك من مكانه فهو لم يستطع أن يدرك ما حدث.. واضطر أوجي أن يندفع راجعاً إلى الصبي وأن يحمله من الأرض جارياً به. في حين وقف هندرسون ساكناً يُراقبه.

ولما اختفى الصبية جميعاً وعاد الهدوء إلى المكان والصمت من جديد ابتسم الرجل متطلعاً لشجرته ثم استدار داخلاً المنزل.

25



كن سعيداً.. كن سعيداً

عاد أفراد جمعية أوغست غوتليب السرية من فرارهم من هندرسون العجوز واحداً بعد واحد وتجمعوا أمام سوق آرا ينتظرون قدوم رئيسهم. ولمح الأتباع المخلصون أخيراً الرجل العظيم الذي ينتظرونه ملتفتاً عند زاوية الطريق وقد أمسك بيد يوليسيس ماكولي، فوقفوا جميعاً ينتظرون في صمت وصوله. وما لبث أن أصبح بينهم، فتطلع الاتباع يتفحصون وجه القائد ويستكشفون أخباره حتى قطع آلف ريف الصمت سائلا: «هل حصلت على مشمشة يا أوجي؟»).

فنظر الرئيس إلى الجاحد الذي لا يستطيع أن يؤمن به وقال: «لَم

تسألني هذا السؤال؟ ألم ترني على الشجرة؟ إنك تعرف طبعاً أني حصلت على مشمشة!!».

وعند ذاك انفجروا جميعاً، إلا ليونيل وهو على كل حال ليس عضواً معهم، وقالوا في صوت واحد يملؤه الإعجاب صائحين:

«أين هي يا أوجي.. دعنا نراها».

أما يوليسيس فقد وقف يرقب ما يجري مستشعراً أن هذه القيم الغامضة التي يتحرّكون بها لا بد أن تكون هامة جداً بل أهم ما في العالم كله في هذه اللحظة على الأقل. وإن كان لم يتأكد بعد من معناها. وصاح أعضاء الجماعة من جديد: «دعنا نرى المشمشة التي سرقتها يا أوجي. أين هي؟.. دعنا نراها» فدفع أوغست غوتليب يده في جيبه ثم مد قبضته أمامه. ولما تجمع الأتباع لرؤيتها، انتظر حتى لزم الجميع الصمت والاحترام الجديرين بالموقف ثم فتح لهم قبضته.

وهناك في راحة يده رقدت مشمشة خضراء صغيرة في حجم بيضة العصفور، فأشرقت وجوه أتباع القائد الديني العظيم تهللاً لمنظر هذه المعجزة القائمة في يده، وتقدم ليونيل، وهو ألطفهم شعوراً وأرقهم قلباً وإن لم يكن من أبناء العقيدة المؤمنين. ودفع يوليسيس الصغير بين يديه حتى يستطيع أن يرى هذا الشيء الأخضر الصغير. ولما انتهى يوليسيس من رؤية المشمشة الخضراء تلوى حتى خلص من يد ليونيل ونزل إلى الأرض ثم اندفع فجأة جاريًا إلى البيت، لا لأن ما رآه لم يسره أو خيب ظنه، بل من حرصه وتلهفه على أن يجد أحداً يقص عليه الأمر كله.

وعند ذاك خرج عليهم من المحل آرا، ذلك الرجل الذي فتح هذا السوق في إيتاكا بكاليفورنيا منذ سبع سنوات. كان الرجل طويلاً نحيل الوجه يضع فوق ثيابه ميدعة بيضاء، وتبدو عليه سمات الأسى وإن كان فكهاً حاضر النكتة. ووقف لحظة على مدخل دكانه يرقب هذا المسيح الجديد وتلاميذه، ويستمع إلى صيحات إعجابهم وتمجيدهم لتلك الصورة المقدسة. ثم قال أخيراً: «أنت يا أوجي.. شاج.. نيكي.. آلفو.. وأنت يا ليونيل.. أين تظنون أنفسكم؟ أتحسبون أنكم بمجلس الشيوخ في واشنطن؟.. اذهبوا.. اذهبوا من هنا.. إبحثوا عن مكان غريب شاذ تعقدون فيه هذه الاجتماعات الهامة.. هذه سوق لا مجلس شيوخ!».

فأجابه أوغست غوتليب: «أوه..طبعاً يا سيد آرا..سنذهب إلى الأرض الفراغ في الناحية الأخرى..ألا تريد أن ترى مشمشة؟».

فقال البائع: «وهل معك مشمش؟ من أين جئت به الآن؟».

«من الشجرة.. أتريد أن تراها؟».

«هذا ليس أوان المشمش.. ولا يظهر إلا بعد شهر أو شهرين.. عندما يقدم أيار (مايو)..».

فأجابه شيخ الدراويش القصة: «تلك التي معنا من مشمش آذار (مارس). أنظر، ها هي» وفتح قبضته من جديد كاشفاً عن تلك الفاكهة الخضراء الصغيرة الجامدة في يده، وقال: «انظر يا سيد آرا» ثم صمت وعاد يسأله: «أليست جميلة؟..».

«نعم.. نعم جميلة.. إنها مشمشة جميلة جدا.. إذهبوا الآن

واعقدوا اجتماعات مجلس الشيوخ هذا في مكان آخر.. إن اليوم هو يوم السبت والمحل مفتوح للتجارة.. فلا تزحموا مدخل السوق الصغير.. نحن ما زلنا في الصباح دعوا الناس تدخل إليه، فالناس تدخل المحل الصغير.. إذا وجدت أمامه زحاماً. افسحوا في الطريق... هيا أسرعوا فأنتم...».

حسناً يا سيد آرا.. إننا لا نريد أن نعطل محّلك.. سنمضي في طريقنا... هيا بنا يا رفاق..

وراح السيد آرا يتأمل ذلك النفر من الصبية يرحلون من أمام دكانه، ثم هم بالعودة داخلاً حين خرج إليه من المحل طفل يشبهه تماماً ووقف إلى جانبه يسأله: «بابا؟».

فأجاب الأب ابنه بلغتهم: «هيه يا جون، ماذا تريد؟».

فقال الابن في جد بالغ وشيء يشبه الحزن تماماً:

«أعطني تفاحة»..

فأخذه أبوه من يده ودخلا معاً إلى الركن الذي رُصّت فيه أكوام الفاكهة الطازجة وكرر الرجل كلمته يسأله: «تفاحة؟» ثم اختار أفضل تفاحة في الكومة وناولها للصبي قائلا: «ها هي إذن... تفاحة!!».

وذهب الأب إلى منضدته ينتظر زبائنه وراح يرقب خلال ذلك ابنه متطلعاً إليه وقد بدا حزينا مثله رغم هذا الفارق الذي لا يقل عن أربعين سنة بين عمريهما. وقضم الابن قطعة كبيرة من التفاحة وراح يلوكها في بطء ثم ابتلعها وظل لحظة ساكتاً وكأنما يفكر في الأمر.

ونظر إليه أبوه وهو يفكر أيضاً. أحسّ أن التفاحة لم تجعل الصبي سعيداً. وتقدم الصبي فوضع التفاحة على المنضدة أمام أبيه وراح يتطلع إليه. إنهما هنا معاً في إيتاكا بكاليفورنيا على بعد سبعة آلاف ميل من تلك البقعة من الأرض التي ظلت بيتاً لهم ولأسلافهم مدة قرون طويلة.. يحسّان أن هنا في قلب كل منهما وحدة وعزلة، ولكن من يدري أن قلبيهما سيخلصان من هذا الشعور لو أنهما عادا سبعة آلاف الميل هذه ورجعا إلى بيتهما هنالك. هذا ابنه واقفاً أمامه في أرض محله، وها هو ذا ينظر إليه مكتشفاً وجهه هو، في وجه الصبي، وعينيه في عينيه، ولا شك أن وراء هاتين العينين شقاءً وحزناً كشقائه وحزنه تماماً. إن الصبي هو رجل بعينه تماماً إلا أنه أصغر وأحدث.

وأخذ الأب التفاحة المرفوضة فأنشب فيها أسنانه قاضماً قطعة كبيرة في صوت عالٍ، وأخذ يلوكها ويبلعها وهو واقف وقد بدا عليه من سرعة بلعه وما يحدثه من صوت أنه غاضب. فالتفاحة من أكبر النعم في هذه الدنيا ولا ينبغي أن يُلقى بها من غير فائدة، وإذا كان ابنه لا يأكلها فلا بد له أن يأكلها هو، وإن كان لا يحب التفاح ولا طعمه.. يعتقد أن من الخطأ أو من الحرام أن يبدد المرء شيئاً، فلا بد أن يظل يقضم التفاحة ويلوكها ويبتعلها. ولكنه على الرغم من هذا لم يستطع، فقد كانت التفاحة أكبر وأوفر من أن يحتملها كلها، وأصبح من الضروري عليه أن يلقي بعضها. وفي شيء من التهوُّر وشيء من الندم والأسف ألقى الرجل بقية التفاحة في سلة المهملات.

لكن الصبي عاد يسأله من جديد: «بابا!».

«هيه يا جون.. ماذا تريد؟».

«أعطني برتقالة».

فاختار الأب برتقالة وناولها لابنه قائلاً: «خذ.. هذه برتقالة».

وعض الصبي قشرتها بفمه ثم بدأ يكمل نزعها بأصابعه بطيئاً واثقاً، وفجأة زادت حركاته سرعة ولهفة، وأحس الأب شعور ابنه وهو يزيل قشرتها وكأنه سيجد تحت هذه القشرة سعادة قلبه كاملة وليس مجرد برتقالة عادية. ووضع الصبي قشرة البرتقالة أمام أبيه على المنضدة وقسمها نصفين وراح يفصص أحدهما وأخذ فصاً ووضعه أخيراً في فمه وبدأ يلوكه ثم ابتلعه.. ولكن لا.. وا أسفاه، إنها برتقالة حقاً، ولكن ماذا فيها من سعادة القلب وأمله؟ وانتظر الصبي لحظة ثم وضع البرتقالة أمام أبيه. وعاد هذا من جديد فالتقط ما تركه ابنه وراح يحاول صامتاً أن يأكلها ولكنه سرعان ما شارف حدِّ قدرته واضطر أن يُلقي حوالى نصف برتقالة في سلَّة المهملات.

ومرَّت لحظة قال بعدها الصَّبِي: «بابا!» وعاد الأب يجيب: «هيه.. ماذا تريد يا جون؟».

«أعطني حلوى!».

«حلوى؟.. خذ، هذه.. حلوى».

واختار الأب من النافذة التي يحفظ فيها حلوى المحل قطعة من ذلك النوع يبيعه بخمسة سنتات ويفضله الأطفال جميعاً وناولها للصبي. وراح الصبي يتفحص تلك المادة المصنوعة أزال ما عليها من

ورق شمعي. وقضم قشرتها المغطاة بالشوكولا وراح من جديد يلوكها ويبتلعها! ولكن ما هذا! إنها لا تعني شيئاً.. إنها مجرد حلوى.. قد تكون حلوة الطعم ولكنها لا شيء أكثر من ذلك.. إنها لا تعني شيئاً أبداً.. أبداً. وأعادها الصبي من جديد تاركاً أمام أبيه عرضاً آخر من أعراض هذه الدنيا التي فشلت في أن تجلب له السعادة. وتقدم الأب في صبر يتحمل المسؤولية التي ألقاها عليه ابنه. مسؤوليّة تجنب الإفساد والتبذير. فالتقط قطعة الحلوى وبدأ يقضمها ولكنه غير رأيه فجأة فالتفت إلى سلة المهملات وألقاها فيها. وأحس الأب لسبب لا يدريه أنه غاضب متبرم وأن قلبه مملوء نقمة ولعنةعلى أولئك الذين بدوا له في لحظة ما، هناك، على بعد سبعة ألاف ميل، غلاظاً لا إنسانية فيهم أو على الأقل جهلة لا يفهمون. وغمغم الرجل لنفسه: «أولئك الكلاب».

ولكن الصبي سأل أباه من جديد: «بابا».

«هيه يا جون.. ماذا تريد؟».

«أعطني موزة».

وتنهد الأب دون أن يفقد إيمانه قائلا: «موزة؟.. خذ، هذه... موزة».

وتفحص أقراط الموز المعلقة فوق أكوام الفاكهة حتى عثر أخيراً على ما رآها أفضل الفاكهة وأكثرها نضجاً وحلاوة فقطعها وناولها للصبي.

وأخيرا.. قدم إلى المحل زبون. إنه رجل غريب، لا يعرفه السيد آرا

ولم يره من قبل. وهز كل منهما رأسه للآخر في تحية خفيفة، وقال الزبون: «هل عندك كعك؟».

فأجاب صاحب المحل في لهفة «من أي نوع؟».

ودخل المحل زبون جديد، ولكن الزبون في هذه المرة كان يوليسيس ماكولي الذي وقف في ركن من الأركان وراح يرقب ويستمع منتظراً دوره.

وقال الرجل لصاحب المحل: «هل عندك كعك مَحشُوٌ بالزبيب؟».

«محشو بالزَّبيب؟!» وأحس الرجل بما في السؤال من مشكلة، فراح يكرر الطلب هامساً لنفسه: «محشُوٌّ بالزبيب.. محشُوٌّ بالزبيب؟!!» وتقدم يبحث في المحل عن المطلوب. ولكن ابنه تقدم في الوقت نفسه فوضع على منضدة أبيه بقايا موزته المرفوضة وقال: «بابا!».

فنظر الأب إلى الصبي وراح يتكلم في سرعة خاطفة: «لقد طلبت تفاحة، فأعطيتك، وطلبت برتقالة فأعطيتك .. وطلبت حلوى، فأعطيتك .. وطلبت موزة.. فأعطيتك. ماذا تريد الآن..؟».

«كعك».

«أي نوع من الكعك هذا الذي تريد؟» إنه لم ينس زبونه بل إنه في الحقيقة إنما كان يكلمه وهو يجيب صبيه، بل إنه يسأل الناس جميعاً، إنه إنما يوجه سؤاله لكل الناس. في كلِّ مكان، وحيثما كان هذا الذي ما زال يريد ويطلب.

ولكن الصبي أجابه: «كعك محشّو بالزبيب».

فأحس الرجل بالغضب يعتمل في نفسه ولكنه كظمه متحفظاً، وأجاب ابنه دون أن ينظر إليه ملتفتاً إلى زبونه أمامه متحدثاً بصوت أشبه بالهمس: «ليس عندي كعك.. ليس عندي كعك من أي نوع، ماذا تريد أن تفعل بهذا الكعك.. إن عندي كل شيء آخر إلا هذا. فما هذا الكعك إذن؟.. ما هذا الذي تريد؟».

فقال الزبون صابراً: «أريد كعكاً لصبي صغير».

«ليس عندي كعك.. ولكن عندي صبياً صغيراً». وأشار الرجل إلى ابنه وهو يقول: «أعطيته تفاحاً وبرتقالا.. وحلوى وموزا.. أعطيته كل هذه الأشياء الجميلة الطيبة»! ونظر إلى الرجل متفحصاً عينيه وسأله وهو يكاد يكون غاضبا: «ماذا تريد أنت؟».

فقال الزبون: «ان أبن إخي مريض... بالأنفلونزا وهو يبكي في فراشه صائحا... أريد كعكا... أريد كعكاً محشواً بالزبيب».

غير أن الإنسان منا لا يعيش إلا مهتماً بحياته، وفي كل حياة ما يشغلها ويكون محورها حتى أن الصبي وسط هذا لم يفعل إلا أن راح ينظر لأبيه من جديد يسأله: «بابا!».

ولكن الأب لم ينظر لأبنه بل التفت إلى الزبون الذي يرقد ابن أخيه مريضاً صائحاً يطلب هذا الكعك المحشو بالزبيب ونظر الأب للرجل في فهم ومشاركة وفي شيء من الغضب الريفي، لا من الرجل نفسه بل من هذه الدنيا وهذا المرض، من هذه الوحدة وهذا الالم، من ذلك القلب يطلب، ويطلب دائماً ما لا يستطيع أن يحصل

عليه. بل إنه غاضب على نفسه لأنه قد قطع سبعة آلاف ميل وجاء إلى كاليفورنيا وفتح هذا المحل ومع ذلك فإنه لا يملك هذا الكعك المحشو بالزبيب، هذا الشيء الوحيد الذي يطلبه الصبي المريض وعاد الرجل يشير إلى ابنه وهو يقول للرجل: «هنا تفاح.. موز.. حلوى.. أما هذا الكعك.. فلا.. هذا ابني عمره ثلاث سنوات.. وهو ليس مريضاً، ولكنه يطلب أشياءً كثيرة.. إنه يريد تفاحاً، يريد برتقالا.. يريد من هذا الموز.. بل أنا لا أعرف ماذا يريد، ولن يستطيع أحد أن يعرف.. كل ما في الأمر أنه يريد... متطلعاً إلى الرب. أعطني هذا، أعطني ذاك.. شقياً دائماً محروماً أبداً ما أجحد ذوي القلوب المحزونة لنعمة هذا الرب!! لقد وهب من كل شيء وأعطى ما عنده جميعا.. أعطانا العالم وهذه الشمس المشرقة.. أعطانا الأب والأم والأخ.. والأخت.. أعطانا العم والخال.. أعطانا البيت والأرض المزروعة والنار الدفيئة.. ووهبنا الفراش. ما أجحد الناس لهذا الرب!! لقد أعطى من كل شيء فلم يسعد أحدا.. إننا جميعاً كهذا الطفل الصغير الذي أرقدته الأنفلونزا. كنا نقول له.. أعطنا كعكاً.. وأن يكون هذا الكعك محشواً بالزبيب».

وتنهد الرجل تنهداً عميقاً وقال لزبونه عندما استجمع أنفاسه: «لا يا سيدي.. ليس عندي هذا الكعك.. المحشو بالزبيب».

وراح البائع يتحرك في محله نافد الصبر، غاضباً غضباً شديداً رائعاً. وتناول أول الأمر كيساً من الورق فنفضه ليفتحه وبدأ يلقي فيه مما عنده قائلا: «هذا برتقال.. جميل جدا.. هذا تفاح رائع.. وهذه الموزة.. طيبة تماماً» وامتلأ صوت الرجل رقة وتلطفاً وتبدى فيه فهم ومشاركة

مخلصة للزبون ولأبن أخيه المريض، وقال له وهو يناوله الكيس: «خذ هذا للصبي الصغير فقد يكف عن البكاء.. خذ هذه الأشياء الطيبة ولا تدفع لي شيئاً فأنا لا أريد مالاً «ثم توقف لحظة وراح يكرر عليه: «ليس عندي هذا الكعك.. المحشو بالزبيب».

فقال الرجل: «إنه يبكي غاضباً جداً ويصيح يطلب كعكاً فيه زبيب.. فشكراً لك. لقد أحضرنا له التفاح والبرتقال.. وهذه الأشياء الأخرى..» ووضع الرجل الكيس على المنضدة مكملاً حديثه: «إن الصبي المريض لا يريد شيئاً آخر إلا الكعك المحشو بالزبيب.. أما البرتقال والتفاح.. فهذه كلها لا ترضيه.. لا يريد إلا الكعك.. بعد إذنك.. سأذهب لأسأل في محل آخر.. فقد أجد».

قال صاحب المحل: «حسناً يا صديقي.. إذهب.. واسأل في محل آخر.. ولكني أؤكد لك أنه لن يكون عندهم.. فإن أحداً لا يوجد عنده هذا الذي تريد».

وغادر الزبون المحل في شيء من الخجل ووقف البائع وراء منضدته ينظر، لحظة طويلة، محملقاً في ابنه، ثم بدأ فجأة يحدثه متكلماً بالأرمينية، لغته القديمة الخاصة:

«لقد جن العالم.. ففي روسيا، على مسافة قريبة من بلدنا ومن شعبنا الضئيل الطيب يموت ملايين الناس والأطفال جوعاً.. فهم هناك في حالة يرثى لها من الجوع والعري، مشردين بلا مأوى ينامون.. يضرعون سائلين لقمة من الخبز الجاف وملجأ يسكنون فيه ولو ليلة واحدة في سلام وهدوء..».

«أما نحن، ماذا نفعل هنا، في إيتاكا، وفي هذا البلد العظيم، أميركا. ماذا نفعل نحن؟ إننا نرتدي أفضل الثياب، نقوم في كل صباح فنضع في أقدامنا الأحذية المريحة، ونسير في الطرقات آمنين لا يتعرض لنا من يحمل سلاحاً أو من يحرق بيوتنا أو يقتل أطفالنا أو آباءنا أو أخواتنا. نحن هنا إذا أردنا نستطيع أن نركب سياراتنا ونتنزه بها في الريف الجميل، نأكل أحسن الطعام، وإذا ما جاء الليل وذهبنا إلى فراشنا.. ننام مستريحين.. ولكن مع هذا، مع هذا كله نحن غير راضين.. وما زلنا غير قانعين». ورفع الرجل صوته يعلن لابنه هذه الحقيقة التي أدهشته وقد امتلأ قلبه له بحب كبير قاس وقال: «تفاح.. برتقال.. حلوى.. موز.. بابا عليك يا صغيري أن لا تفعل هذا. وإذا كنت أنا قد فعلت ذلك، فأنت ابني، أي أفضل مني، ولا بد ألا تفعل ما فعلت أنا. كن سعيدا.. كن سعيدا.. أنا لم أكن كذلك ولكن أنت يجب أن تكون». وأشار بأصبعه إلى الباب الخلفي للمحل المفضي إلى داخل البيت، فتحرك الصبي الصغير طائعاً وغادر المحل وقد علت وجهه مسحة من الجد ودخل إلى البيت. وانتظر البائع لحظة يحاول أن يستجمع شتات نفسه، ولما أحس أنه هدأ وأصبح قادراً على أن يكلم يوليسيس ماكولي عميله الجديد في راحة وهدوء، التفت إليه محاولاً أن يكون مرحاً بل أن يبتسم ثم قال له: «هيه.. ماذا تريد يا يوليسيس؟».

«بوريدج».

«من أي نوع؟».

«هـ. و».

«هنالك نوعان من هذا يا يوليسيس، النوع العادي والنوع السريع. نوعان يا يوليسيس.. بطيء وسريع.. قديم وجديد.. ماذا تريد أمك يا يوليسيس..».

وفكر يوليسيس في الأمر لحظة ثم قال: «هـ. و».

«القديم أم الجديد؟».

ولكن الصبي لا يعرف شيئاً عن هذا، فاختار البائع النوع له قائلا: «حسنا.. النوع الجديد أفضل.. ثمانية عشر سنتاً يا يوليسيس».

مد يوليسيس ذراعه للرجل وفتح له قبضته فأخذ منه ربع الدولار ورد له بقية النقود قائلا: «ثمانية عشرة سنتاً وهذا هو الباقي، شكراً يا يوليسيس».

«حاضر.. ياسيدي..».

وأخذ يوليسيس علبة الطعام الملفوفة وسار مغادراً المحل. وفي الطريق أحس أن هذه الأمور كلها صعبة لا يستطيع فهمها. ففي أول الأمر هذا المشمش على الشجرة، ثم هذا الكعك المحشو بالزبيب، وهذه اللغة الغريبة التي يتحدث بها الرجل لابنه.. غير أن هذا كله مع ذلك جميل رائع. ورفع الصبي قدمه يرفس بها الأرض كدأبه كلما أحس بالسرور والفرح، ثم انطلق فجأة يجري إلى البيت وهو يحمل لأمه ما أعطاه البائع.

26



لن تخلو الحياة من الألم

أعدت السيدة ماكولي مكاناً على مائدة المطبخ وراحت تنتظر مجيء ابنها هومير كي يتناول إفطاره، ولما دخل المطبخ كانت قد أعدت إناء البوريدج ألقت الأم على ابنها نظرة سريعة وكانت كافية لأن تعرف أنه ما زال مثقلاً بتجربة الحلم الغريب الذي مرّ به في الليلة الماضية. فعلى الرغم من أنه لا يعرف أنه قد بكى وهو نائم، فإن روحه تبدو مثقلة، مستكنة سكون النفس بعد حزن عميق، ويبدو على صوته أنه قد أصبح أكثر لطفاً وأبعد عمقاً.

قال هومير: «أنا لا أريد أن أتأخر في النوم هكذا.. إنها الساعة التاسعة والنصف تقريباً.. ولا أدري ماذا حدث لجرس المنّبه».

«ولكنك تشتغل كثيراً ويجب أيضاً أن تستريح».

«أوه العمل ليس متعباً جداً.. وعلى أية حال فغداً الأحد..».

وبدأ هومير يتلو صلاة الصباح ولكنها على غير العادة بدت طويلة جداً. فلما فرغ منها التقط ملعقته وشرع يأكل، ولكنه توقف فجأة وراح يتفحص ملعقته في يده بنظرة غريبة شاردة، وتطلع إلى أمه المشغولة عند حوض المطبخ وقال: «أمي!».

فأجابته السيدة ماكولي دون أن تدير ظهرها: «نعم هومير».

أنا لم أحدثك ليلة أمس عندما عدت من العمل لأنني لم أكن قادراً على أن أتكلم، ولقد وجدت نفسي أبكي وأنا في الطريق بالأمس. وأنت تعرفين أنني أخجل من البكاء، وأنني ما اعتدت أن أبكي لا عندما كنت صغيراً ولا عندما كبرت وحتى أنت تعرفين أنني لا أبكي حتى عندما أكون منزعجاً مضطرباً بل يوليسيس أيضا.. لا يبكي.. فما جدوى البكاء؟ على أية حال. غير أنني بالأمس لم أستطع أن أمنع نفسي فبكيت. ولكني لا أتذكر أنني خجلت من نفسي.. لا أظن أنني أحسست بذلك. إلا أنني لم أستطع أن أجيء إلى البيت مباشرة وأنا أبكي هكذا.. فركبت الدراجة وتوجهت إلى مصانع نبيذ إيتاكا. ولما وجدت نفسي ما زلت أبكي عبرت المدينة كلها إلى المدرسة العليا. ولقد مررت في طريقي إلى هنا ببيت كان أصحابه يحتفلون ويمرحون في أول المساء.. أما الآن فبيتهم مظلم حزين.. لقد حملت لهم برقية.. وتعرفين أنت أي نوع أقصد.. وفي طريق العودة رحت ألف في الطرقات أتطلع إلى كل شيء.. في هذه المباني وكل هذه الأماكن التي عرفتها طوال حياتي مليئة حية بأولئك

الناس جميعاً، أحسست إذ ذاك أنني أرى إيتاكا حقاً وأنني أعرف كل من فيها. وأعرف كم هم قوم طيبون خيرون، وشعرت بالأسف والحزن عليهم، فصليت ضارعاً أن يجنبوا الويلات.. وبعد ذلك خفت دموعي وكففت عن البكاء. وقلت لنفسي إذ ذاك إن المرء لا يبكي أبداً إذا ما كبر، بل يبدو لي أنه لا يبكي إلا وهو يبدأ حياة الكبار، عندما يبدأ أن يفهم ويعرف ما حوله من أشياء.

سكت لحظة، وعندما بدأ يتكلم من جديد كان صوته قد أصبح أكثر غموضاً وحزناً عما كان من قبل.

«إن المرء لا يتبين في الدنيا إلا الشر والحزن».

انتظر أن تجيب أمّه لكنها لم تتكلم، بل لم تنصرف عما في يدها من عمل، فعاد يقول: «أمي، لماذا؟» فأجابته السيدة ماكولي من غير أن تدير ظهرها:

«ستعرف بنفسك» فلن يستطيع أحد أن يخبرك. ولكل إنسان طريقته الخاصة في معرفة هذا، فلئن رأى الدنيا مؤسفة محزنة ورأى هذا الأسى الذي فيها نبيلاً مجدياً أو اعتبره عبثاً تافهاً فإنما هو وحده الذي يجعلها كذلك. ولئن رأى آلامها غنية مليئة بالجمال والروعة، فليس هذا كله في الأشياء من حوله، بل فيه هو نفسه، وهكذا: إنما تكون الدنيا قبيحة أو مؤسفة مؤسية لأن الأنسان الذي يراها هو مثلها! إن كل إنسان منا هو العالم بأكمله، وهو يصنعه كما يريد، وأن يملأه بجنس من الناس يحبه، إذا كان قلبه يملؤه الحب، وإلا يسُكِن فيه إلا جنساً عليه أن يكرهه ويبغضه، ما دام هو نفسه لا يحمل إلا الكراهية والبغضاء.. إن العالم موجود هكذا يتوقع من كل ساكن فيه أن

يغيره وأن يعيد ترتيبه كما يعد الفراش في كل صباح أو ينظم البيت، وهم هم أبداً متغيِّرون دائماً.

وأخرجت الأم بما في يدها من عمل إلى شرفة البيت الخارجية، وظل ابنها يتحدث إليها على الرغم من أنه لم يعد يراها.

«ولكن لماذا بكيتُ يا أمي هكذا بالأمس.. إنني ما عرفت هذا الشعور من قبل، ولست أستطيع أن أفهمه.. لماذا لم أستطع أن أتكلم حتى بعد أن جفّت دموعي.. نعم.. لماذا صمتّ هكذا ولم أجد ما أقوله.. لماذا لم أستطع أن أتحدث إلى نفسي أو أن أكلمك أنت؟».

وأجابته السيدة ماكولي في صوت واضح جداً فلم تخطىء كلمة واحدة من كلماتها:

«لقد بكيت من الشفقة لا على شخص يتألم بالذات، بل على الأشياء جميعاً».

لقد بكيت شفقةً بطبيعة الأشياء ذاتِها. وما لم تعمر الشفقة قلب الإنسان فلن يكون إنساناً حقاً، فمنها وحدها يخرج البلسم الذي يشفي ويبرىء الجروح. إن الأخيار وحدهم الذين يبكون، وأن لم يبك الإنسان لما في هذه الدنيا من ألم فالتراب الذي يسير عليه أفضل منه وأنفع. فإن هذا التراب يطعم البذور والجذور والسوق والأوراق والزهور، أما القلب الذي خلا من الشفقة فمجدِب، ممحل لن ينبت فيه شيء، ولن تنمو فيه إلا كبرياء تدفع صاحبها إلى طريق الجريمة والقتل، قتل يعدو على ما في الدنيا من أشياء خيرة جميلة، بل قد يعدو حتى على حياة الناس.

وعادت السيدة ماكولي إلى حوض المطبخ وشغلت نفسها بعمل

جديد! ولم يفت هومير أن يدرك أنها تريد فقط أن تشغل نفسها ولو بعمل لا ضرورة له.

ولكنها واصلت حديثها له قائلة: «لن تخلو الحياة من الألم أبداً، وليس معنى هذا أن ييأس الإنسان أو يفقد الأمل. فإن الإنسان الخيِّر سيظل يحاول دائماً أن يخلص الأشياء مما فيها من ألم، أما الأحمق فلن يلحظ وجوده إلا في نفسه هو. ولكن الشرير هو الذي يصنع الألم فيها ويزيده عمقاً وينشره حوله. ومع ذلك فكلهم جميعاً أبرياء، الشرير والأحمق والخيِّر، فلم يقدموا إلى العالم بارادتهم ولم يقدموا فرادى معزولين من العدم، بل هم أبناء عوالم كثيرة ونتاج أجيال مختلفة. إن الشرير بريء لأنه لا يعرف أنه كذلك، ولا بد لنا إلا أن نظل نغفر له في كل يوم، وأن نظل نحبه دائماً، فإن في هذا الشرير شيئاً من كل واحد منا، وفي كل واحد منا شيء منه.. إنه منا ونحن منه، ولن يستطيع أحد أن ينفصل أو ينعزل عن الآخر، إن صلاة الفلاّح الريفي هي صلاتي، وجريمة القاتل جريمتي أنا. وأنت بالأمس بكيت لأنك قد بدأت تعرف هذا كله».

وصب هومير ماكولي اللبن في إنائه، وبدأ يتناول فطوره وقد أحس فجأة أنه لا ضير عليه ولا حرج أن يأكل.

27



كل هذه الأخطاء الرائعة

دخل يوليسيس ماكولي ومعه خير أصدقائه، ليونيل كابوت العظيم، إلى المطبخ، ووقفا معاً، لا تستطيع العين أن تخطىء ما بينهما من صداقة على رغم ما بين عمريهما من فرق، ست سنوات طوال. وراحا يتحركان معاً ويقفان معا، كما يفعل خير الأصدقاء، دون حاجة إلى أن يتبادلا الحديث أو أن يكلم الواحد منهما الآخر.

وقال ليونيل أخيرا: «سيدة ماكولي، لقد جئت أستأذنك في أن تسمحي ليوليسيس أن يذهب معي إلى المكتبة العامة، فعندي كتاب لأختي ليليان، عليَّ أن أعيده إلى المكتبة».

«لا مانع يا ليونيل.. ولكن لماذا تركت الأولاد الآخرين.. أوجي.. وآلف وشاج..».

«هم الذين... فعلوا» وتوقف ليونيل مرتبكاً لحظة ثم استأنف من جديد: «هم الذين طردوني. فهم لا يحبوني لأنني لا أفهم».

وتوقف من جديد ينظر إلى أمّ صديقه ثم قال: «أنا لست غبياً يا سيدة ماكولي، أليس كذلك؟».

«لا يا ليونيل.. أبداً إنك أفضل الأولاد الذين نعرفهم.. ولكني لا أريدك أن تغضب من الأولاد الآخرين.. فهم أيضاً أولاد طيبون»..

«إنني لست غاضباً منهم.. بل أنا أحبهم واحداً واحدا.. ولكني في كلّ مرة أخطىء خطأ بسيطاً يطردونني من اللعب.. بل يشتمونني يا سيدة ماكولي.. إنهم يغضبون جداً من كل خطأ بسيط أقع فيه ويقولون لي «كفى يا ليونيل». وعندما أسمعهم يقولون هذا أعرف أن الوقت حان لكي أتركهم. إني أحياناً لا أبقى معهم أكثر من خمس دقائق. بل قد يكون أول شيء أفعله عندما أكون معهم خطأ لا يرضون عنه، وعند ذاك يقولون لي: «كفى يا ليونيل» دون أن أعرف ماذا فعلت أوكيف أخطأت ودون أن يقولوا لي ماذا يريدونني أن أفعل. أنا لا أريد أن أعرف إلاّ هذا، ولكنهم لا يرضون أن يقولوا لي. إنهم يطردونني كل يوم سبت من صحبتهم ولا يرضى أن يصحبني إلا يوليسيس فهو صديقي الوحيد. ولكني أعرف أن الآخرين سيأسفون على ذلك في يوم من الأيام. ففي وقت من الأوقات سيأتون إلي ويريدون مني أن أساعدهم وكأنهم ما كانوا يطردونني دائماً.. هل أستطيع أن أشرب شيئاً من الماء؟».

«طبعاً يا ليونيل».. وملأت له سيدة ماكولي كوباً من الماء فجرعه الصبي في عطش وتلذذ محدثاً ذلك الصوت الذي يصدر عن الأطفال دائماً، وما زال الماء بالنسبة لهم أفضل شراب في العالم؟.

والتفت ليونيل إلى صديقه يسأله: «ألا تريد أنت أيضاً أن تشرب يا يوليسيس؟».

وهز يوليسيس رأسه موافقاً فملأت له السيدة ماكولي قدحاً وأعطته إياه. وانتظر ليونيل حتى شرب صديقه ثم قال: «سنذهب نحن الآن إذن إلى المكتبة العامة» وسار الصديقان معاً خارجين من البيت.

وكان هومير ماكولي ما زال يتناول إفطاره يرقب أخاه الصغير وهو يتناوله، فلما خرج الصبيان التفت إلى أمه يسألها: «هل كان ماركوس وهو صغير يشبه يوليسيس؟».

«ماذا تعني؟».

«أقصد هل كان هكذا.. كيوليسيس مهتماً بكل شيء يقظاً متطلعاً دائما.هل كان هكذا لا يتكلم ولا يقول شيئاً ولكنه يفهم ويجد في كل شيء حوله ما يسره ويفرح به؟ ويكون على استعداد دائماً لأن يحب أي إنسان وأن يكون محبوباً من الناس جميعاً. إنه لا يعرف من الكلمات إلا عدداً قليلاً جداً وما زال لا يستطيع الكتابة، ولكن يكفي للمرء دائماً أن ينظر إليه كي يفهم ماذا يريد أن يقول ولو لم ينطق بكلمة واحدة. هل كان ماركوس مثله هكذا؟».

«على أية حال.. يوليسيس وماركوس أخوان، فلا بد أن يكون

في يوليسيس شيئاً من ماركوس.. ولكنهما مع ذلك ليسا متشابهين تماماً».

«إن يوليسيس هذا سيصبح رجلاً عظيماً في يوم ما.. أليس كذلك يا أماه؟».

فأجابته السيدة ماكولي وهي تبتسم: «لا.. لا أظن ذلك أو على الأقل لن يكون عظيماً في أعين الناس، ولكنه بالطبع سيكون دائماً عظيما. .لأنه كذلك الآن».

«وماركوس يا أماه.. ألم يكن عظيماً هو الآخر عندما كان صغيراً؟».

«أنتم جميعاً تتشابهون في أشياء كثيرة.. ولكنكم لا تتشابهون تماما.. فلم يكن ماركوس قلقاً هكذا مثلك، وأنا لا أقصد أنه لم يكن قلقاً أبداً، فقد كان قلقاً بالطبع ولكن على طريقته الخاصة. ولم يكن كيوليسيس يحب أن يلقى الناس وأن يتفرج عليهم، بل كان خجولاً يفضل أن يظل وحده، ويحب القراءة وسماع الموسيقى والجلوس صامتاً، أو ينطلق في نزهات طويلة على قدميه».

«ولكنني متأكد على أية حال أن يوليسيس يحب ماركوس جداً».

«إن يوليسيس يحب كل إنسان فى هذا العالم».

«ولكني متأكد أنه يحب ماركوس حباً خاصاً، بل إنني أعرف أيضاً لماذا. فإنه يخيل إليّ أن ماركوس ما زال طفلاً على الرغم من أنه في الجيش، وأعتقد أن الطفل يبحث دائماً في كل من يلقى من الناس عن طفل مثله. فإذا ما وجده في شخص يافع فأنه يحبه أكثر من أي

أحد أخر. ولكم أتمنى أن أبلغ من الرجولة بقدر ما في يوليسيس في طفولته... أنني أعجب به وأقدره أكثر من إعجابي وتقديري لأي شخص آخر من غير أسرتنا. هل قص عليك ما حدث له بالأمس».

«لا، إنه لم ينطق بكلمة واحدة عن ذلك. إنما أوجي هو الذي جاء وقصَّ الأمر علينا».

«ولكن ماذا قال عندما عدت به إلى البيت من مكتب التلغراف».

«لم يقل شيئا.. جلس يستمع للموسيقى ثم تناولنا العشاء... وعندما كنت أضمه في الفراش غمغم «كريس الضخم». ونام مباشرة دون أن يقول شيئاً آخر. ولم أعرف أنا من هو كريس الضخم هذا حتى حكى لي أوجي».

«كريس الضخم، هو الذي خلص يوليسيس من الفخ، وبعد ذلك دفع لكوفنجتون عشرين دولاراً ثمناً لهذا الاختراع السخيف لأنه كان قد تحطم. إن الرجل يقول انه فخ ولكني لا أعتقد ذلك، ولا أظن أنه يستطيع أن يمسك به شيئاً في هذه الدنيا إلا يوليسيس فحسب، فأين هو هذا الحيوان الذي يترك نفسه ليقع في مثل هذا الشيء المعقد.. ولكن قولي لي.. من أقرب الناس شبهاً بيوليسيس؟

«أبوه...».

«هل عرفتِ أبي وهو صغير؟».

«لا لم أعرفه.. فهو يكبرني بسبع سنوات. ولكن يوليسيس الآن يشبه أباك تماماً في تصرفاته طوال حياته».

وملأ السيدة ماكولي فجأة شعور من السعادة الغامرة يطغى على كل ما حدث وكل ما قد يحدث، فتنهدت قائلة:

«لقد كنت سعيدة الحظ دائماً، وإني أشكر الله على هذا. فإن كل أطفالي، إلى جانب أنهم أطفال، فيهم صفات الإنسانية، وكان من الممكن أن يكونوا مجرد أطفال فحسب، فلا تكتمل سعادتي ولا أكون حسنة الحظ حقاً. بالأمس بكيت أنت لأنك إنسان، ولأنك واحد من الملايين أمثالك في هذا العالم. لقد بكيت لأن تجربة الحياة وما فيها من مغامرة قد بدأت بالنسبة إليك، وعلى الرغم من أن هذا العالم مليء بما يصعب فهمه من الطيب والخبيث والجميل والقبيح والسمح والقاسي فإنه ليس إلا شيئاً واحدا.. انه عالم واحد يعيش فيه الناس..».

وتوقفت لحظة تنظر لأبنها ثم عادت تقول:

«ولقد بكيت بالأمس أيضاً وأنت نائم!».

فقال هومير، وقد ذهل لأنه لم يشعر بذلك: «حقا؟».

«نعم.. وقد أيقظ بكاؤك يوليسيس فجأة وأيقظني.. وعندما سمعتك عرفت أنه ليس أنت الذي يبكي..».

«ماذا تقصدين..؟».

«إننى أعرف هذا النشيج، فلقد سمعته من قبل. لم يكن هذا نشيجك ولا نشيج أي إنسان آخر، إنما العالم كله هو الذي يبكي. لقد أدركت أخيراً ما في العالم من أسى، وسلكت الطريق وليس أمامك بالطبع إلا العثرات.. كل الأخطاء الرائعة التي سترتكبها لا

مفر منها. أحب أن أجابهك أثناء إفطارك هذا وفي صحوة هذا النهار بما قد يجبن أي واحد منا عن أن يقوله في ظلمة الليل العذبة الساكنة. ان روحك ما زالت نضرة من أثر هذا النوم وهذا الأسى، وهذا شيء لا مفر من أن أقوله لك. أريد أن أقول لك إنه مهما كانت الأخطاء التي ترتكبها فإياك أن تفزع منها ولا من ارتكاب أخطاء كثيرة غيرها. ثق دائماً أن قلبك على حق، فهو قلب طيب، وواصل سيرك، لا تقف أبداً. وإذا ما عثرت من خداع الناس وحيلهم أو من خطئك أنت، فلا تتراجع أبداً بل قم سريعاً وسر. ستمر عليك أوقات كثيرة تضحك فيها وستعرض لك فترات كثيرة تبكي فيها، ولكنك ستظل دائماً تبكي وتضحك في الوقت نفسه، ولن تكون لديك لحظة واحدة في حياتك تستطيع فيها أن تكون وضيعاً تافهاً. فهذا شيء هو أدنى منك، لا يليق بتوثب روحك ولا يمكن أن يقف في سبيل مراميك وأغراضك!!».

وابتسمت السيدة ماكولي ووقفت إلى جانب ابنها شاعرة بشيء من التحرج والارتباك، ثم قالت: «إنني آسفة أن أظل هكذا ليلاً ونهاراً أردد عليك أشياء أعرف تماماً أن الإنسان لا يحب أن يقولها له أحد إلا نفسه.. فهل تغفر لي..؟».

ولم يستطع هومير أن يقول شيئاً آخر إلا «أوه.. أماه!» وهو يترك مائدة الطعام حاجلاً على قدمه المريضة حتى النافذة. وراح يتطلع من هناك إلى الأرض الفراغ يرقب أوغست غوتليب ورفاقه وقد انصرفوا إلى لعب الكرة.

«ماذا حدث لقدمك؟».

«أوه.. لا شيء.. لقد انزلقت..» ولم يدر هومير ظهره ولكنه واصل حديثه قائلاً: «أماه.. أتعرفين.. إنني أعتقد أنك أروع إنسان يمكن أن يعرفه المرء !!» وانطلق فجأة يضحك من شيء لاحظه في اللعب وقال: «هذا أوجي يصيب المرمى من جديد. ولم يعد هذا اللقب لي أنا.. إني ذاهب إلى مكتب التلغراف.. فقد قلت إنني سأعود، إذ ربما يحتاجون إلي».

واستدار منصرفاً ولكنه توقف فجأة قائلا: «آه.. لقد كدت أنسى.. أن السيد جروجان.. انك تعرفينه، عامل نوبة الليل، قد أكل من الساندويش الذي أرسلته لي بالأمس مع بَس. وقد كلفني أن أشكرك.. أبلغك إذن شكره».

غادر هومير البيت وسمعته أمه يضرب اطارات دراجته أكثر من مرة ليتأكد أنها منفوخة، ثم رأته وهو يركبها دائراً حول البيت متجهاً إلى مكتب التلغراف، وأدارت هي بصرها إلى المقعد الذي كان يجلس عليه قرب المائدة ورأت هناك ماتيوماكولي. كان جالساً هناك كابنه هومير تماماً يتفحص ملعقته، وبعد لحظة رفع عينيه إليها قائلاً. «كاتي...».

«نعم يا ماتيو..».

«كاتي.. ان ماركوس سيلحق بي..».

وساد الصمت لحظة ثم قالت كاتي: «نعم.. أعرف..».

وعادت إلى عملها..

28



في المكتبة العامة

سار الصديقان العزيزان ليونيل ويوليسيس متجهين نحو المكتبة العامة، فرأيا على الزاوية التالية أمامهما موكب جنازة يخرج من كنيسة إيتاكا البرسبتيرية، وشاهدا حاملي النعش وهم يحملون النعش البسيط إلى عربة قديمة على باب الكنيسة، وقد سار خلفهم نفر قليل من المشيعين.

وقال ليونيل: «تعال يا يوليسيس.. هذه جنازة.. لقد مات أحد الناس» وأمسك بيده وجرى حتى أصبحا في قلب المنظر كله.

وهمس ليونيل: «هذا هو النعش.. وفي قلبه ميت. لو أعرف من الذي مات! أنظر الزهور، فعندما يموت الناس يحملون لهم زهورا..

وأولئك الذين يبكون.. أولئك لا بد أنهم كانوا يعرفونه».

والتفت ليونيل إلى رجل وجده لم ينخرط تماماً في البكاء، ولم يفعل إلا أن مسح أنفه ومسح عينيه بمنديله، فتجرأ يسأله: «من الذي مات؟».

«إنه المسكين جوني مري ويزر الأحدب».

فردد ليونيل على يوليسيس: «إنه المسكين جوني مري ويزر الأحدب».

«لقد مات وعمره سبعون سنة».

فكرّر ليونيل على يوليسيس: «مات وعمره سبعون سنة».

واستمر الرّجل يقول: «لقد ظل يبيع الفشار ثلاثين سنة على زاوية تلاقي شارع ماري بوزا بشارع برودواى».

«كان يبيع الفشار على الزاوية...» ولكن ليونيل توقف ونظر إلى الرجل ثم قال له وهو يكاد يصرخ: «أتقصد بائع الفشار؟».

«نعم.. جوني مري ويزر.. وقد استراح الراحة الكبرى».

فصاح ليونيل: «إنني أعرفه.. لقد وهبني من الفشار مرات كثيرة.. هل مات..؟».

«نعم، مات في سلام وهو نائم، ذهب إلى خالقه».

فقال ليونيل وهو يكاد يبكي: «إنني أعرف جوني مري ويزر».. لم أكن أعرف أن اسمه جوني مري ويزر، ولكني كنت أعرفه». والتفت إلى يوليسيس ورفع ذراعه حول صديقه وهو يكاد يبكي:

«انه جوني.. جوني مري ويزر.. ذهب إلى خالقه.. واحد من خير أصدقائي.. استراح الراحة الكبرى»..

وتحركت العربة مبتعدة ولم يمض إلا وقت يسير، حتى لم يعد أمام الكنيسة أحد إلا ليونيل ويوليسيس. كان ليونيل يحسّ أن هناك شيئاً من عدم اللياقة في مغادرة المكان الذي عرف فيه أن الرجل الذي ضمه النعش كان رجلاً يعرفه وإن لم يكن يعرف أن اسمه جوني ويزر. ولكنه قدر أخيراً على أية حال أنه لا يستطيع أن يظل واقفاً هكذا أمام الكنيسة حتى ولو كان هذا الذي مات قد وهبه من الفشار مرات كثيرة. فتحرك متفكراً في الفشار يكاد يستشعر طعمة فمه، وانحدر هو وصديقه يوليسيس ميممين صوب المكتبة العامة.

وبمجرد أن دخل الصبيان هذا المكان المهيب على تواضعه ضمهما مجال من الصمت والسكون كاد يبعث في نفسيهما شيئاً من الخوف والفزع، وأحسا كأنما الحيطان والسقف والمقاعد قد خرست جميعاً، وأن الصمت ساد كلّ ما في البناء فأفرغه. وشاهدا أمامهما شيوخاً يقرأون الجرائد وفلاسفة المدينة جالسين، وصبية المدرسة العليا وبناتها يبحثون. ولكنهم جميعاً في سكون وصمت يجدون بحثاً عن الحكمة، وأصبحوا في حمى الكتب يحاولون جاهدين أن يعرفوا. ولم يكف ليونيل بأن يهمس لصديقه في حديثه إليه، بل سار على أطراف أصابعه لا مراعاة للقراء، بل احتراماً لكل هذه الكتب. وحذا يوليسيس حذوه فسار على أطراف أصابعه، وراحا معاً يستكشفان المكتبة، وقد وجد كل منهما كنوزاً مختلفة، فشغل ليونيل بالكتب ويوليسيس بالناس. وليس ليونيل بقارىء بل

لم يحضر إلى المكتبة ليستعير شيئاً من كتبها إنه، لا يحب إلا أن يتفرج عليها وأن يرى كل هذه الآلاف منها وأشار لصديقه إلى صف من الكتب على الرفوف وقال هامساً: «كل هذه.. وهذه.. وتلك.. أنظر.. هذا واحد أحمر.. هذه جميعا.. وهذا آخر أخضر.. أنظر كل هذا..».

رأت السيدة جالاهر أمينة المكتبة العجوز، الصبيين. فذهبت إليهما ولكنها، لدهشتهما لم تهمس بل تكلمت إليهما بصوتها العادي، وكأنما ليسا في مَكتبة عامة. وصُدِم ليونيل من هذا ورفع بعض القراء أعينهم عن صفحات كتبهم ولكنها سألت ليونيل:

«ما الذي تبحث عنه يا بني؟».

فأجاب ليونيل هامساً في رقة: «كتب...».

«أي كتب؟».

«كلها!».

«كلها؟... ماذا تعني، إنك لا تستطيع أن تستعير إلا أربعة كتب في استعارة واحدة».

«أنا لا أريد أن أستعير منها شيئاً».

«ماذا تريد منها؟».

«أريد أن أتفرج فحسب!».

«تتفرج..؟! إن المكتبة العامة لم تفتح لهذا.. إنك تستطيع أن تفتح الكتب وأن تتفرج على الصور التي فيها..

ولكن ماذا تريد من مجرد الفرجة على غلافاتها؟».

«أنا أحب هذا.. أليس مسموحا؟».

«ليس هناك قانون يمنع هذا!».

ونظرت إلى يوليسيس وسألته: «ومن هذا؟».

«هذا يوليسيس... إنه لا يعرف القراءة».

«وأنت؟.. هل تقرأ؟».

«لا.. أنا أيضاً لا أعرف.. ولهذا نحن أصدقاء.. هو الوحيد الذي لا يعرف القراءة بين من أعرف جميعاً».

ونظرت أمينة المكتبة العجوز إلى الصديقين ومر بذهنها ما يكاد يكون نطقاً بلعنة خفيفة، فهذا أمر جديد تماماً لم يمر بها مثله من قبل طوال خبرتها بالمكتبة العامة، ولكنها قالت:

«من يدري.. قد ظللت أنا أقرأ طوال ستين عاماً مضت، ولا أرى الآن جدوى من هذا.. إذهب.. إذهب يا بني، تفرج على الكتب كما تريد!!».

«فليكن.. يا سيدتي..».

وتحرك الصديقان منطلقين في عوالم أوسع من المغامرة والغموض، وعاد ليونيل يشير ليوليسيس إلى مجموعة أخرى من الكتب: «وهذه.. يا يوليسيس التي هناك.. انظر.. هذه كلها كتب».. توقف لحظة مفكراً ثم قال مشيراً إلى رفوف خمسة مليئة بمجموعة كبيرة منها: «إنني أتعجب ماذا يقولون في كل هذه الكتب.. كل هذه ماذا يا ترى فيها؟».

واكتشف أخيراً كتاباً يبدو من الخارج جميلاً جداً، قد تغطى بجلدة خضراء كالعشب النضر: «وهذا يا يوليسيس.. أليس جميلاً؟».

وفي شيء من التوجس والخفية مد ليونيل يده مذهولاً، وتناول الكتاب عن الرف وحمله في يده برهة ثم فتحه قائلاً: «يوليسيس.. أنظر.. كتاب.. ها هو ذا.. أنظر أنهم يقولون شيئاً.. هنا». ومد أصبعه مشيراً إلى هذا الشيء في الكتاب وعاد يقول: «هذه ألف.. هنا.. هنا ألف.. وهذا.. لا بد أن يكون حرفاً آخر ولكني لا أعرفه. أن كل حرف يا يوليسيس هو غير الآخر.. وكل كلمة هنا مختلفة عن الأخرى». وتنهد ليونيل ناظراً إلى الكتب واستمر يقول: «لا أظن أنني سأتعلم القراءة أبداً.. ولكني مع ذلك أحب جداً أن أعرف ماذا يقولون هنا.. أنظر.. صورة.. صورة بنت.. أتراها؟.. أليست جميلة..» وراح صفحات كثيرة من الكتاب: «أترى؟ حروفاً أخرى وكلمات جديدة.. هكذا حتى آخر الكتاب. هذه هي المكتبة العامة يا يوليسيس.. والكتب هنا في كل مكان!».

وراح ليونيل يتأمل حروف الكتاب. في شيء من الاحترام والرهبة، ثم راح يغمغم لنفسه وكأنما يحاول أن يقرأ، ولكنه سرعان ما شعر بأن التجربة لا تقنعه، فهز رأسه أسفاً وقال: «إنك لا تستطيع يا يوليسيس أن تعرف ماذا يقول الكتاب حتى تقرأه.. وأنا لا أستطيع أن أقرأ».

وأغلق الكتاب في بطء وأعاده إلى مكانه، وتسلل الصَّديقان على أطراف أصابعهما وغادرا المكتبة. وفي الخارج وقف يوليسيس يرفس الأرض بقدمه، فقد كان مسروراً يحس أنه عرف شيئاً جديداً.

29



في نادي المحاضرات

ترجل هومير من فوق دراجته أمام نادي إيتاكا للمحاضرات ووقف أمام البناء الأبيض الذي يبدو في عمارته مزيجاً من كنائس نيوانجلند وبيوت المهاجرين الأول أيام الاستعمار. ولما كانت قد شارفت الثالثة والنصف عصراً وقرب موعد البدء في محاضرة السبت من هذا الأسبوع، فقد رأى هومير سيدات المدينة من الأعضاء يدخلن، في مرح وجلبة، باب البناء. وكن جميعاً سيدات في منتصف العمر، أغلبهن سمينات تهيأن للمحاضرة وتشابهن في منظرهن حتى أختلطن وأصبح من الصعب التمييز بينهن. وأخرج الساعي برقية من قبعته وراح يتأملها ويقرأ العنوان عليها:

«روزالي سيمس بيبودي، نادي إيتاكا للمحاضرات. إيتاكا كالفورنيا، تسلم إليها شخصياً».

وعندما دخل الساعي البهو كانت رئيسة النادي، وهي سيدة في أوائل العقد الخامس، لطيفة ممتلئة، وقد قامت تقدم المحاضرة التي لم تكن ظهرت بعد. ودقت الرئيسة على المنضدة بمقبض صغير لكسر الجوز فبدأ الحاضرون يصمتون، إلا هومير ماكولي، بما اضطر أن يحدثه من حركة وجلبة بحثاً عن روزالي سيمس بيبودي. والتفتت إليه سيدة من السمينات اللاتي قد يزدن على مائة وستين رطلاً وأشارت إليه وهي تبتسم في لطف كي يقف ولا يحدث هذه الحركة.

فهمس هومير: «معي برقية لروزالي سيمس بيبودي.. تُسلم إليها شخصياً».

فصححت له السيدة الاسم: «روزالي سيمس بيبتي.. إنها فعلاً تتوقع برقية.. فانتظر هنا حتى تظهر وسلمها إليها».

« ومتى يكون هذا؟».

«الآن.. حالاً.. اجلس هنا وانتظر، حتى تظهر روزالي سيمس بيبتي، وعند ذلك تقدم إلى المسرح ونادى بصوت واضح «برقية باسم روزالي سيمس بيبودي»..

«بيبتي.. يا بني.. لا بيبودي..».

«حسنا يا سيدتي»..

وجلس الساعي على أقرب مقعد وذهبت السيدة مبتعدة على أطراف أصابعها وقد ابتسمت فخراً بما أدت من أمر خطير.

وسرعان ما بدأت رئيسة النادي تقول:

«سيداتي.. عضوات نادي إيتاكا للمحاضرات.. لقد ادخر لكم النادي مفاجأة عظيمة.. فمحاضرتنا اليوم هي روزالي سيمس بيبتي..» وتوقفت الرئيسة بعد اعلان الاسم كي تسمح للتصفيق المتوقع أن ينطلق، فلما توقف واصلت حديثها قائلة: «ولست بحاجة أن أقول لكم من هي روزالي سيمس بيبتي.. فشهرتها العالمية كواحدة من أعظم السيدات في عصرنا هذا مقررة معروفة. إننا جميعاً نعرف هذا الاسم، ونعرف عن شهرته وذيوع صيته.. ولكني أتساءل.. أنعرف حقاً سبب هذه الشهرة؟» واستمرت تجيب بنفسها عن السؤال «لا أظن ذلك».

وتوقفت لحظة تنظر إلى صديقاتها من سيدات إيتاكا بين الحاضرين، ثم بدأت تقص أسطورة الشخصية العظيمة، وكأنما تحكي ملحمة لا تقل عظمة عن الأوديسة ذاتها: «قصة روزالي سيمس بيبتي قصة مثيرة للنساء خاصة. فلقد عاشت سيمس بيبتي، وهذا هو الاسم الذي تحب أن تعرف به، حياة فاضت بالمخاطرة والمغامرة والخطر والجمال. وعلى الرغم من ذلك فهي ما زالت لا تعدو أن تكون فتاة من فتيات بريطانيا الأنيقات الجريئات.. إلا أنها في الآن ذاته... فتاة من الصلب، وأقوى من معظم الرجال. بل في الحقيقة. يندر بين الرجال من عاش حياة فيها من المخاطرة والمغامرة ما في حياة سيمس بيبتي».

وتسللت إلى صوت الرئيسة نغمة من الأسى وهي تواصل أسطورة البطلة النسائية العظيمة: «أما نحن، أولئك اللاتي سكن في البيوت يشغلن أمهات أو ينشئن الأطفال، فان حياة كحياة سيمس بيبتي ليست بالنسبة لنا إلا كحلم.. هو حلمنا، نحن جميعا.. ذلك

الحلم الذي ساور كل واحدة منا وقد سكنت في بيتها تلد الأطفال وتدير المنزل. إن حياتها هي هذه الحياة الرائعة الجميلة التي كانت تود كل واحدة منا أن تعيشها لو أنها جرأت على ذلك. إلا أن إر ر ادة القدر شاءت ألا يكتب لنا مثل هذه المغامرات، وألا يكون في هذا العالم إلا سيمس بيتي واحدة.. فحسب».

وتوقفت من جديد تتطلع في وجوه صديقاتها القدامى من الحاضرين ثم قالت:

«ماذا إذن هذا الذي فعلته سيمس بيبتي وجعلها هكذا وحيدة بين النساء؟ إن سلسلة مغامراتها مذهلة مدهشة، ولن تستطيع واحدة منكن أن تصدق وأنا أقرؤها عليكم أنه من الممكن لأية امرأة أن تحقق كل هذا وأن تظل على الرغم من ذلك تعيش بيننا. ولكن ها هي اليوم ما زالت حية، بل ستتحدث إلينا بنفسها. ان سيمس بيبتي ستتحدث إلينا اليوم في لغة بسيطة صريحة قد تصدم البعض منا. ولكن لتسمحن لي أولاً، أن استعرض هذه المغامرات باختصار، فلو أردت سردها بالتفصيل لما كفى هذا النهار كله، بل لما كفى الليل أيضا، فما خلا يوم من أيام سيمس بيبتي من المغامرات والمخاطرات. إنها تخلق المغامرات حيث سارت، بل لنا أن نتأكد أنها لن تغادر مدينتنا هذه، إيتاكا، المجهولة الصغيرة حتى تكون قد اكتشفت فيها أشياء ما زلنا نحن أنفسنا لا نعرفها. ولكن فلنعد الآن إلى مغامراتها الماضية.

من عام 1915 حتى عام 1917 قادت سيمس بيبتي عربة الاسعاف في جبهة القتال أثناء الحرب الماضية. وخلال عامي 1917و1918خرجت في رحلة حول العالم مع فتاة أخرى على ظهر سفن البضاعة ومراكب الحيوانات، سائرة على قدميها أو ممتطية أي

شيء، نازلة في أماكن غريبة كثيرة قد تكون أحياناً مجرد أكواخ للمواطنين في البلاد التي زارتها، وبلغ عددها سبعة وعشرين بلداً مختلفة. وعندما كانت في الصين قبضت عليها جيوش الجنوب وهي تحاول أن تعبر النهر في مركب شراعي بين كانتون وهانكو».

وتوقفت لحظة حتى يتسرب للنفوس أثر هذه الكلمات السحرية ثم كررتها هامسة:

«نعم كانتون وهانكو. ولكن سيمس بيبتي هربت من أسرها مخترقة بقاربها شلالات نهر سيان في إبان موسم المطر وفي وقت لا يجرؤ فيه قارب آخر على القيام بمثل هذه الرحلة.

وفي عام 1919 عبرت شمال أفريقيا من مراكش إلى الحبشة، وفي عام 1920 استخدمها قلم المخابرات السرية في سوريا، فالتقت وهي بدمشق بالملك فيصل الذي ساعدها على القيام برحلة للاستكشاف في (الكفرة) العاصمة السرية المقدسة لشيعة السنوسيين المتعصبين، هناك بعيداً في قلب الصحراء الليبية، وفي بقعة لم تطأها أقدام البيض من قبل.

وقطعت سيمس بيبتي ألف ميل على ظهور الجمال متنكرة في ثياب امرأة مصرية، وليس في صحبتها إلا نفر من أهل البلاد الخشنين الذين لا يعرفون الإنجليزية».

وبعد أن ألقت رئيسة النادي بهذه الملاحظة رفعت عينيها متطلعة إلى صديقتين من صديقاتها الحميمات. ولحظها هومير فتعجب من معنى هذه النظرة متسائلاً في نفسه متى تفرغ من الحديث عن روزالي سيمس بيبتي، هذه الشخصية الغريبة الخارقة.

وواصلت الخطيبة حديثها:

«وأبحرت سيمس بيبتي طوال أربعة عشر يوماً هابطة من البحر الأحمر على ظهر قارب ذي شراع واحد مع بحارة من الأعراب حتى وصلت إلى ميناء جيزان المحرم، وقد تنكرت هذه المرة في ثياب امرأة عربية. وفي عام 1925 تسلقت جبال أطلس. وفي عام 1926 سجلت ما يعد رقماً قياسياً في السير على الأقدام قاطعة مائة وألف ميل عبر بلاد الحبشة».

وعلقت الرئيسة على هذه الحقيقة في استهجان كبير لنفسها ولصديقاتها من إيتاكا قائلة:

«فهل نستطيع نحن أن نسير دون ضيق أو ملل ولو مسافة قصيرة كالتي بين جونشوك وحدائق رودنج؟». ثم تنهدت متأسفة ولم تعرف بماذا تجيب عن سؤالها فقالت: «مع أن هذا قد يكون مفيداً لنا».

وعادت بعد ذلك إلى تقديم المحاضرة متطلعة في أوراقها تبحث أين وقفت: «ولأواصل حديثي أقول.. في عام 1928 جابت سيمس بيبتي بلاد البلقان كمراسلة صحفية لجريدة لندنية متنكرة من بلد إلى بلد في ثياب نسائه».

وتململ هومير ماكولي ضجراً نافد الصبر متلهفاً على أن يعود إلى عمله في مكتب التلغراف، وسأل نفسه متعجباً: «ولكن لم هذا التنكر المتواصل؟».

ولكن الرئيسة واصلت تقديمها: «وفي عام 1930 قامت سيمس بيبتي برحلة مثيرة خلال تركيا، والتقت هناك بمصطفى كمال أتاتورك. وكانت سيمس بيبتي حينذاك متنكرة في ثياب فتاة تركية من بنات الجبال. وقطعت ما يزيد على تسعة آلاف ميل على ظهر الحصان متنقلة

خلال الشرق الأوسط كله. وعندما بلغت أذربيجان عاينت عن كثب القلاقل التي دارت بين الجيش الشيوعي الأحمر وفلاحي القوقاز. وفي عام 1931 قامت برحلة إلى أميركا الجنوبية مخترقة غابات البرازيل لا يصاحبها إلا نفر من أهل البلاد! ومن الغريب أن واحداً منهم ـ كما فهمت من سيمس بيبتي نفسها ـ كان اسمه ماكس».

وشارفت رئيسة النادي أن تبلغ خاتمة حديثها فتنهدت قائلة:

«ولكن مغامرات سيمس بيبتي لا نهاية لها، وأنتن إنما تردن أن ترينها هي وأن تستمعن إليها لا إليّ أنا».

وضحكت الرئيسة الرائعة لهذا النادي الرائع، ضحكة مكتومة من تواضعها هذا اللطيف، فجاوبتها صديقاتها بين الحاضرات يشاركنها في قهقهة مرحة. ولما ساد الحاضرات صمت كاف، قالت الرئيسة في صوت حازم مسرحي:

«سيداتي. لي الشرف الكبير أن أقدم لكن بصفتي رئيسة نادي إيتاكا للمحاضرات روزالي سيمس بيبتي!».

وتعالى التصفيق هذه المرة في صوت مدو وتحركت رئيسة النادي إلى طرف المسرح كي تحيي الضيفة الممتازة ولكنها كانت للأسف لم تظهر بعد. فانتهزت الحاضرات فرصة هذا التأخر وزدن في ترحيبهن وتصفيقهن، ومضت دقيقتان كاملتان تقريباً من التصفيق اضطرت فيهما بعض النساء إلى التشكي من تألم أيديهن، حتى طلعت عليهن أخيراً المرأة العظيمة!!

وتوقع هومير ماكولي أن يرى امرأة لم يرَ مثلها من قبل في حياته! وعلى الرغم من أنه لم يكن يستطيع أن يتخيل على أية صورة سيطلع عليه هذا المخلوق، إلا أنه كان متأكداً أن منظرها لا بد أن يكون مثيراً

مسلياً على أية حال. وكان منظرها هكذا فعلاً، فقد كانت روزالي سيمس بيبتي باختصار، امرأة عجوزاً متسلطة، طويلة الوجه، لا أثر للأنوثة في وجهها الذابل طويلة معروفة، صفراء بادية العظام، تثير الضحك والاشمئزاز. وبالرغم من أن الوقت حان كي يسلم هومير برقيته فإنه ساءل نفسه عندما هب واقفاً هل هو قام لكي يوصل البرقية إليها؟ أم هو قام دهشة لمنظرها! وتعجب من نفسه: لِمَ لم يندفع جارياً إلى المسرح كما أمر من قبل؟

واندفعت نحوه السيدة اللطيفة التي ألقت إليه بتعليماتها وراحت تدفعه قبل أن يشعر بوجودها إلى الممر في البهو، هامسة في صوت قريب من الارتفاع بحيث لا يخطئه أحد: «الآن... تقدم الآن يا بني.. وسلم البرقية».

وتظاهرت السيدة العظيمة وهي واقفة على المسرح بأنها لم تشعر بهذه الحركة، وبدأت تقول: «سيداتي أعضاء نادي إيتاكا للمحاضرات». ورن صوتها منفراً قبيحاً كمنظرها تماماً، فتقدم هومير إلى المسرح مسرعاً وأعلن في صوت واضح عال: «برقية لروزالي سيمس بيبتي».

وقطعت المرأة العظيمة حديثها والتفتت إلى الساعي في دهشة مصطنعة، وكأنما كان ظهوره مفاجأة كاملة لها:

«هأنذا يا بني.. أنا سيمس بيبتي».

وأعادت النظر في الحاضرين قائلة: «معذرة يا سيداتي»، ثم انحنت توقع له بتسلم البرقية وأخذتها من الصبي وأعطته عشرة سنتات وهي تقول: «خذ هذا لك يا بني».

وآلم هومير هذا. إلا أن الموقف كان كله مربكاً مضحكاً، فلم

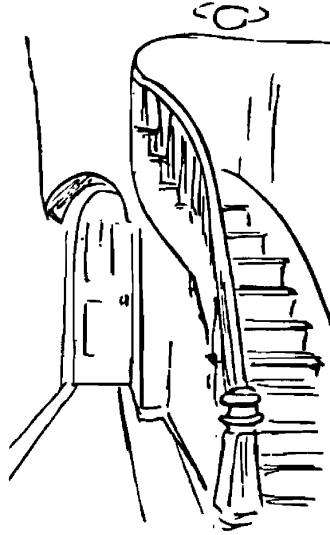
يهتم أن يرفض، وأخذ القطعة الفضية الصغيرة وأسرع، مندفعاً إلى الخارج، وسمعها تبدأ حديثها:

«تصادف في عام 1939، قبل نشوب هذه الحرب مباشرة، أن كنت في بافاريا في مهمة سرية، وكنت متنكرة في ثياب بائعة لبن الزاسية».

وفي الطريق رأى هومير على الرصيف هنري وليامسون الذي فقد ساقيه في تصادم قطار عندما كان شاباً صغيراً. وكان الرجل قد لجأ الآن وبعد ثلاثين سنة من الحادثة إلى الجلوس هكذا على الرصيف، وقد وضع في حجره قبعة مليئة بالأقلام الرصاصية. ولم يكن هومير يعرف اسم الرجل، ولكنه يذكر أنه رآه هكذا طوال حياته، وأنه لسبب ما لم يحدث أبداً أن اشترى منه قلماً أو أن ألقى له في قبعته إحساناً. وكانت السنتات العشرة التي أعطتها له سيمس بيبتي شيئاً يريد أن يتخلص منه، فلما رأى الرجل توقف وأسقطها في قبعته وعاد مسرعاً إلى دراجته!

ولكنه ما كاد يبتعد قليلاً حتى وجد بينه وبين نفسه أن ما فعله لم يكن صواباً، فدار بعجلته وعاد مسرعاً حتى صار أمام الرجل الكسيح الجالس على الرصيف منذ ثلاثين سنة، وألقى دراجته ثم سار إليه فأسقط في قبعته هذه المرة ربع دولار من ماله الخاص.

30



فندق بيثل

وبعد نصف ساعة كان هومير يترجل من جديد أمام فندق بيثل على شارع العين ويدخل صاعداً على الدرج الطويل، ولم يجد هومير في البهو الواسع مكتباً يستعلم منه، ولم يكن هناك إلا منضدة طويلة في أحد الأركان قد وضع فوقها زر جرس صغير وعلق على الحائط من فوقه إعلان كتب عليه «إقرع الجرس» . وراح الساعي يتلفت حوله لحظة ناظراً إلى الأبواب الكثيرة المغلقة في هذا الفندق الصغير، ثم راح يتأمل البرقية التي يحملها باسم «دوللي هوثورن» وتسلل إلى سمعه من إحدى الغرف صوت الحاكي يدور وأصوات رجلين وامرأتين يتكلمون ويضحكون. وبعد برهة خرج من إحدى الغرف رجل في نحو الأربعين من عمره، ووقف عند الباب يتحدث

مع امرأة شابة لم يظهر منها لهومير إلا رأسها فحسب، ثم أغلق الباب في عجل.. ورأى هومير الرجل يندفع نازلاً على الدرج بسرعة، وقرر أخيراً أن يدق الجرس، ففتح من جديد الباب الذي أغلق وصاحت الفتاة فيما هو أشبه بالتهليل والفرح: «سأحضر حالاً» وبعد قليل خرجت إليه الفتاة، فدهش هومير إذ رآها جميلة وفتية جداً لا تكاد تتميز عن بس أو ماري.

«معي برقية لدوللي هوثورن».

«لقد خرجت الآن لحظة..هل أستطيع أن أوقع لك بدلاً عنها؟».

«نعم، يا سيدتي».

ووقعت المرأة ثم راحت تُلقي نظرات غريبة على الساعي، وقالت له فجأة: «هل تستطيع أن تنتظر لحظة؟».

ومضت تجري في البهو الطويل حتى وصلت إلى غرفة أخرى واختفت فيها. وبينما هي في الداخل صعد رجل في السلم، وجاء فوقف إلى جوار هومير عند المنضدة، وتلاقت نظراتهما أكثر من مرة. ولما عادت الفتاة مسرعة كما ذهبت، رأت الرجل، فنادت هومير وصحبته معها إلى الغرفة التي خرجت منها أول الأمر، وهناك اشتم هومير للغرفة رائحة غريبة لم يعرفها أبداً من قبل، بعثت فيه تقززاً. وناولته المرأة خطاباً وهي تنظر في عينيه مباشرة وقالت:

«أتستطيع أن ترسل لي هذا الخطاب؟ إنه هام جداً، فهو مرسل لأختي.. هل تستطيع أن تأخذه إلى مكتب البريد الجويّ، مسجلاً، خاصاً مستعجلاً.. إن أختي في حاجة إلى نقود.. والخطاب فيه نقود وليس عندي الآن طوابع». وتوقفت المرأة عن الحديث حتى يستطيع هومير أن يدرك أهمية الأمر بالنسبة لها، ثم قالت:

«أتستطيع أن تفعل ذلك لي؟».

ولسبب لا يدريه عاود الساعي هذا الشعور بالمرض الغريب المفاجىء الذى أحسه عندما كان في بيت المرأة المكسيكية التى قتل ابنها في الحرب.

«نعم يا سيدتي.. سآخذ الخطاب مباشرة إلى مكتب البريد، وسأرسله بالبريد الجوي مسجلاً خاصاً، مستعجلاً.. سأذهب إلى هناك مباشرة».

«خذ هذا الدولار إذن، ولكن ضع الخطاب في قبعتك ولا تدع أحداً يراه.. ولا تحدث أحداً عنه..».

«حسناً، يا سيدتي.. لن أقول لأحد. سأذهب به الآن إلى مكتب البريد ثم أعود لك بعد ذلك ببقية نقودك..».

ووضع هومير الخطاب في قبعته واستعد للخروج ولكنها قالت له:

«لا.. لا تعد.. وأسرع.. هيا الآن.. وتذكر هذا.. لا تحدِّث أحداً عنه».

«لن أتكلم».

وخرج هومير مغادراً الغرفة، وما كاد يصل إلى الدرج حتى كانت الفتاة لحقت بالرجل الذي تركه هومير عند المنضدة الطويلة. فلما بلغ العتبة الأولى من الدرج التقى وجهاً لوجه بامرأة ضخمة أنيقة في حوالي الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمرها. وتوقفت المرأة عندما رأت الساعي وقالت له مبتسمة:

«أمعك برقية لي..؟ دوللي هوثورن؟».

«نعم يا سيدتي.. قد تركتها فوق».

«أوه.. إنك لظريف..!.. أنت ساع جديد، أليس كذلك؟..إنني أعرف السعاة جميعاً في الشركتين..وسترن يونيون.. والبوستال، وهم جميعاً طيبون.. ظرفاء معي.. وأنا كذلك أحبهم..».

وفتحت دوللي هوثورن حقيبتها الغالية المحلاة بالجواهر وأخرجت حوالي عشرين بطاقة من بطاقات الزيارة وناولتها لهومير قائلة: «خذ هذه..».

«ما هذا.. ماذا أفعل بها؟».

«إنك تذهب بالبرقيات إلى أماكن كثيرة.. كالبارات وما شابهها.. ولست أريد منك إلا أن تترك هذه البطاقات هناك في مكان ما.. على البار..أو في أي مكان آخر وأنت خارج.. أتركها إلى جوار المسافرين..من الجنود والبحارة الذين قد يحتاجون إلى غرفة يقضون فيها الليل. أليس علينا، وهذه الحرب دائرة، أن ندخل السرور على قلوب أولادنا ما داموا إلى جوارنا. إنني أعرف أفضل من أي إنسان آخر وحدة أولئك الجنود الذين لا يعرفون ماذا سيحدث لهم غداً ولا كيف يطلع عليهم النهار أحياءً أو أمواتاً».

«حسناً يا سيدتي».

ونزل هومير على الدرج خارجاً إلى الطريق، على حين صعدت دوللي هوثورن إلى تلك الغرف في فندق بيثل.

31



الرجل الآلـــي

سار ليونيل ويوليسيس بعد أن فرغا من مغامراتهما في المكتبة العامة يستكشفان إيتاكا، وألفيا نفسيهما مع غروب الشمس واقفين في مقدمة جماعة صغيرة من المتسكعين والمارة أمام نافذة متجر من المتاجر الصغيرة، يتفرجان على ذلك الرجل المعروض فيها. وبالرغم من أن الرجل كان بشراً فإنه كان يتحرك كالآلة تماماً. ويبدو وكأنه صنع من الشمع لا من اللحم البشري. وكان الرجل في الحقيقة ذا منظر بعيد عن البشرية وكأنه جثة لم تدفن، وضعت منتصبة ولا تزال قادرة على الحركة.

ولم يكن يوليسيس قد رأى في سنواته الأربع التي أمضاها في هذا

العالم شيئاً عجيباً أكثر غرابة من هذا الرجل ومن عينيه اللتين لا يشع منهما ضوء وشفتيه اللتين تبدوان كأنهما أغلقتا ولن تنفتحا أبدا.

كان الرجل يعمل ويتحرك بين لوحتين منهمكاً في الأعلان عن مُقَوًّ للدكتور برادفورد. وعلى إحدى اللوحتين وضعت الرسالة التالية «الرجل الآلي. النصف الآلة والنصف الإنسان..ميت أكثر منه حياً.. لك 50 دولاراً لو جعلته يبتسم، و 500 دولار لو جعلته يضحك». أما على اللوحة الأخرى فقد كان الرجل الآلي يضع بطاقات صغيرة يتناولها بطريقة آلية بحتة من هذه البطاقات طبعت رسالة مختلفة تستحث الناس أن يشتروا الدواء المسجل الذي اخترعه الدكتور برافورد حتى يصبحوا أكثر حياةً ونشاطاً. وكان الرجل الآلي إذا ما وضع البطاقة على اللوحة راح يشير إلى كل كلمة من كلماتها بمؤشر في يده حتى يفرغ من البطاقات العشر جميعاً، وعند ذلك ينتزعها كلها ويعيدها إلى المنضدة ليبدأ العمل من جديد..

وقال ليونيل لصديقه: «إنه رجل يا يوليسيس.. إني أرى ذلك تماماً.. ليس آلة أبداً.. أنظر إليه.. أنظر إلى عينيه.. أليس حياً؟».

وكان الرجل الآلي قد وضع على اللوحة بطاقة كتب عليها: «لماذا تبقى في الحياة نصف ميت.. تمتع بالحياة. تناول مقوي الدكتور برافورد لتشعر أنك رجل جديد».

وقال ليونيل: «وهذه بطاقة أخرى.. مكتوب عليها شيء..».

ولكنه أحس فجأة بالتعب والكلل والرغبة في العودة إلى المنزل، فقال لصديقه: «هيا يا يوليسيس.. نرجع.. لقد رأيناه يضع البطاقات كلها ثلاث مرات.. هيا نرجع إلى البيت.. فقد كاد يدركنا المساء»..

وأخذ بيد صديقه ولكن يوليسيس سحبها بعيداً من جديد.

فعاد ليونيل يقول: «هيا يا يوليسيس. لقد جعت ولا بد أن أعود للبيت».

ولكن يوليسيس لم يرد أن يتحرك بل بدا وكأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قال ليونيل، فاضطر ليونيل إلى أن يتحداه أخيراً قائلاً: «أنا ذاهب يا يوليسيس» وانتظر أن يعود صديقه معه ولكن الصبي لم يتحرك مطلقاً، فبدأ ليونيل يتحرك عائداً إلى البيت وقد دهش وتألم لخيانة يوليسيس في صداقته، ولكنه ظل بالرغم من ذلك يتوقف كل ثلاث خطوات أو أربع متوقعاً أن يلحق به صديقه. غير أن يوليسيس كان واضح الرغبة في البقاء والنظر إلى الرجل الآلي، فأكمل ليونيل رحلته وحيداً إلى البيت وقد جرحه يوليسيس جرحاً عميقاً، فراح يقول لنفسه: «هذا الذي كنت أحسبه خير صديق لي في هذا العالم».

وقف يوليسيس وسط ذلك النفر القليل ينظر إلى الرجل الآلي حتى لم يعد أمام المحل إلا هو ورجل هرم آخر. وظل الرجل الالي يلتقط البطاقات ويضعها على اللوحة مشيراً إلى كل كلمة من كلماتها، حتى انصرف الرجل الهرم ولم يعد على الرصيف إلا يوليسيس واقفاً يرقب ذلك الكائن الغريب. وتقدم الليل وأضيئت أنوار الطريق، وخلص يوليسيس من تلك النشوة التي أثارها الرجل الآلي في نفسه وكأنما كان قد نوّمه منظره تنويماً مغناطيسياً.

فلما استيقظ راح يتلفت حوله فرأى النهار قد انتهى وانصرف الناس جميعاً، وأحس أنه لم يعد حوله غير شيء لا يستطيع أن يسميه.. هو الموت.

وتلفت خلفه من جديد فوقع نظره فجأة على الرجل الآلي، وأحس كأنه ينظر إليه هو وحده، فامتلأ قلبه برعب بشع عاجل وانطلق فجأة يجري وأحس يوليسيس أن أولئك الأفراد الذين التقى بهم في الطريق هم موتى كالرجل الآلي، وأصبح منظرهم فجأة بشعاً قبيحاً لا محبباً جميلاً كما تعود أن يراهم.

وظل يوليسيس يجري ويجري حتى أنهكت قواه، فتوقف يجذب أنفاسه بصعوبة ويكاد يبكي متلفتاً حوله، مستشعراً برعب دائم صامت من الأشياء جميعا... وهو الرعب الذي يتمثل في الرجل الآلي... هو الموت!!، ولم يكن يوليسيس قد عانى من قبل أي لون من ألوان الخوف، فلما اعتراه هذا الشعور بالرعب كان من الصعب عليه جداً أن يعرف ماذا يفعل، ففقد سكينته كلها وبددها خوفه من أن يلحق به هذا الرعب، فعاد يجري من جديد قائلاً لنفسه وقد أوشكت الدموع تتساقط من عينيه: «بابا.. ماما.. ماركوس.. بس.. هومير.. بابا.. ماما.. ماركوس.. بس.. هومير!!».

ولا شك أن الحيلة كانت من قبل جميلة رائعة بما يجب أن يراه مرات عديدة، أما الآن فإنها لم تعد إلا شيئاً مفزعاً مرعباً، عليه أن يهرب منه وأن يتجنبه، لو يستطيع أن يعرف إلى أين يذهب وأين يتجه. إنه يريد لو يلتقي بأسرع ما يستطيع فرداً من أفراد أسرته، ولكنه يسير في هذا الاتجاه خطوات ويعود فيسير في الاتجاه الآخر، قد شله الرعب، مستشعراً في كل ما حوله بكارثة فظيعة خارقة لن يستطيع أن يخلصه منها إلا لقاء أبيه أو أمه أو أخته أو أحد أخويه. ولم يستطع يوليسيس أن يعثر على واحد من هؤلاء جميعاً، ولكنه رأى في آخر الطريق أوغست غوتليب رئيس عصابة أولاد الجيران.

كان بائع الجرائد واقفاً في زاوية الطريق المهجور يصيح بأعلى صوته مردّداً الأسطر الأولى، وكان المكان من حوله قد ملأه قوم حريصون على أن يعرفوا أخبار اليوم كلها. وكان يجد دائماً في الصراخ بأسطر الأخبار الأولى شيئاً سخيفاً مضحكاً، فهي لا تعدو أن تكون أبداً أخباراً عن جرائم قتل من هذا النوع أو ذاك، كما أنه لم يكن يرى أن من حسن الذوق أن يسير في شوارع إيتاكا رافعاً صوته هكذا في أوجه الناس العابرين. ولهذا كان الصبي يستشعر السرور كلما اكتشف أن الطرقات قد خلت من الناس، فيندفع دون وعي بما يفعل، رافعاً عقيرته، وهو ما لا يفعله أبداً، بأخبار النهار السيئة، صائحاً وسط شوارع إيتاكا الخالية، وكأنما ينعم شاكراً بتلك الفرصة التي أتاحها له سكان المدينة. فماذا عسى يفعل المرء بأخبار كل نهار..؟ ألا يستطيع أن يفعل إلا أن يبيع الجرائد وأن يكتسب هذه البنسات الضئيلة؟ ألا يستطيع أن يفعل غير ذلك؟ أليس من المضحك إذن أن يصيح المرء معلناً أخطار كل يوم وكأنها أنباء مفرحة؟ أليس من المخجل حقاً أن يظل الناس هكذا لا يدركون ولا يهتمون بطبيعة هذه الأخبار المتكررة كل يوم؟ إن بائع الصحف الصغير يرى نفسه أحياناً حتى في أحلامه وهو نائم، رافعاً صوته منادياً بأخبار العالم، ولكنه يستشعر دائماً إذ ذاك شعوراً صادراً من أعماق تجربته بالاستهزاء والاحتقار لهذه الأخبار ولطبيعتها.

وطالما رأى نفسه في أحلامه يصيح من مكان عال دائماً وقد شغل الناس من تحته بما ألفوه من جريمة وأخطار، فما يكادون يسمعون صوته مدوياً حتى يقف كل واحد منهم في طريقه ويتطلعون جميعاً إليه، وعند ذلك يصرخ فيهم صائحا: «إرجعوا الآن.. عودوا إلى بيوتكم.. كفى قتلاً.. إذهبوا فازرعوا

الشجر».. نعم كان أوغست غوتليب يحب دائماً فكرة زراعة الشجر.

رأى يوليسيس إذن أوغست غوتليب على زاوية الطريق، فتبدد شيء كثير من الفزع الذي ملأ قلبه، وبدأ يشعر من جديد أنه لن يضطر إلى الانتظار سنوات وسنوات طويلة قبل أن يجد الحب والخير في العالم مرة أخرى.

وحاول الصبي أن يصرخ منادياً أوغست ولكن صوته احتبس، فراح يجري بكل ما فيه من قوة حتى وصل إليه وألقى نفسه عليه محتضناً إياه بشدة مفاجئة كادت توقع أوجي على الأرض.

«يوليسيس!.. ماذا جرى؟.. لِمَ تبكي؟».

فرفع يوليسيس وجهه متطلعاً في وجه بائع الصحف الصغير ولكنه كان لا يستطيع النطق، فقال بائع الصحف:

«إنك خائف.. يا يوليسيس.. لا تخَش شيئاً.. ليس هناك ما تخافه.. يوليسيس.. لا تبك.. لا تخش شيئاً».

وظل الصبي ينشج، فعاد يقول له: «كفى.. كفى.. لا تبك».

وظل أوجي ينتظر أن يكف يوليسيس عن البكاء وحاول يوليسيس جاهداً ألا يبكي، فبدأ النشيج يُسمع على فترات متقطعة.

وقال له أوجي أخيرا: «تعال.. معي.. نذهب إلى هومير».

وما كاد يوليسيس يسمع اسم أخيه حتى تبسم وندت عنه نشجة أخرى، وكرر وراءه وكأنما غير مصدق:

«هومير؟».

«نعم.. أخوك.. هيا بنا..».

«نرى هومير؟!».

«طبعا.. إن مكتب التلغراف على الزاوية هنا».

وسار أوغست غوتليب ويوليسيس ماكولي حتى الزاوية التالية إلى مكتب التلغراف فوجد هومير جالساً على مكتب التوزيع. فلما رأى يوليسيس أخاه تحول وجهه تحولاً رائعاً وتبدد الرعب كله من عينيه، فلقد أحس أنه وصل أخيراً إلى البيت.

ورأى هومير أخاه فقام إلى الصبي ورفعه في يديه ملتفتاً إلى أوجي يسأله: «ماذا حدث... ما الذي أبقى يوليسيس في المدينة حتى الآن؟».

«أظن أنه قد تاه.. فقد وجدته يبكي..».

«يبكي؟!».. واحتضن هومير أخاه فخرجت منه نشجة أخرى فقال هومير: «كفى يا يوليسيس.. لا تبك.. سأعود بك على دراجتي إلى البيت.. كفى بكاء..!».

وراح توماس سبانغلر مدير المكتب يرقب الصبية الثلاثة، على حين توقف وليام جروجان العامل الهرم عن العمل، وظل هو الآخر يرقبهم متبادلين النظرات مرات عديدة. وأنزل هومير أخاه إلى الأرض وعرف أن الصبي قد اطمأن تماماً إذ رآه يتجه إلى مكتب التوزيع ليتأمل ما عليه من أشياء، فيوليسيس دائماً بخير ما دام اهتمامه قد استثير، وعاود حرصه على التطلع إلى الأشياء. ووضع هومير ذراعيه حول أوغست وقال:

«شكراً يا أوجي.. لا أدري ماذا كان يمكن أن يحدث إن لم يقابلك!».

ووقف سبانغلر واتجه إلى الصبية ثم قال: «مرحباً أوجي.. أعطنى الجريدة».

«ها هي ذي يا سيدي».. وهمَّ أوجي أن يؤدي حركاته المألوفة في طي الورقة وإعداد الصفقة، ولكن سبانغلر أوقفه ليدرك الجريدة قبله، وأخذها منه متطلعاً في أسطرها الأولى ثم ألقاها في سلة المهملات.

«هيه.. وكيف حال العمل يا أوجي؟».

«إنه جيد.. يا سيد سبانغلر.. لقد جمعت اليوم حتى الآن خمسة وخمسين سنتا.. ولكن ذلك لأني لم أبدأ العمل إلا في الواحدة بعد الظهر، وسأنتظر حتى يتجمع لي خمسة وسبعون ثم أعود إلى البيت..».

«ولكن لماذا.. لماذا الخمسة والسبعون السنت بالذات».

«لا أدري.. غير أنني أتصور أنه يجدر بي في يوم السبت أن أجمع هذا المبلغ. والبلد الآن يكاد يكون خالياً تماماً، ولكني أعتقد أني سأستطيع بيع بقية الصحف في ظرف ساعة أو ساعتين، فبعد قليل يبدأ الناس بالعودة بعد عشائهم.. ويتجمعون في زحام السينما».

«فليذهب زحام السينما إلى الشيطان.. أعطني بقية الصحف وعد إلى البيت.. خذ هذا، ربع دولار!».

وبالرغم من أن بائع الصحف قد أحس بالتقدير والاعتراف

بجميل هذه المكرمة من مدير المكتب، فإنه وجد فيها شيئاً لا يستطيع أن يرضى عنه بسهولة. أليس على المرء أن يبيع الصحف واحدة واحدة لأناس متعددين.. أليس عليه أن يقف في زاوية الطريق يصيح بالأخبار حتى يجعل الناس يرغبون في قراءتها. ولكنه مع ذلك فهو متعب يريد أن يعود للبيت ليتعشى.. ومستر سبانغلر هذا، إنسان لم يعرف مثله من قبل. ولقد تكون رغبته فى شراء هذه الصحف كلها دفعة واحدة وإلقاءها جميعاً في سلة المهملات هي أفضل خبر في هذا النهار بطوله. ولكن لماذا يتحمل مستر سبانغلر وحده ثمنها دون بقية أولئك النكرة في الطريق.! أوه قد لا يكونون نكرة.. ولكن لماذا يتحمل وحده ثمنها دونهم جميعاً أياً كانوا؟!!.

وأحس بائع الصحف أن عليه أن يحتج وأن يرفض هذه الصفقة فقال:

«ولكني لا أريد أن آخذ هذه الخمسة والعشرين سنتاً منك أنت يا سيد سبانغلر»..

«لا تفكر في هذا.. أعطني هذه الصحف وعد إلى البيت».

«ليكن يا سيدي.. ولكني أرجو أن تتيح لي الفرصة في يوم ما لكي أعوِّضك عن ربع الدولار هذا».

«أوه.. طبعاً.. طبعاً» وألقى الصحف في سلة المهملات.

وحُول أوجي نظره إلى يوليسيس الواقف عند مكتب التوزيع وقال لمستر سبانغلر: «هل عرفت أن يوليسيس قد تاه؟».

فقال سبانغلر: «نعم.. ولكنه ليس ضالاً الآن..» ورفع صوته مناديا: «يوليسيس» ... فالتفت الصبي إليه، وظل سبانغلر لحظة لا

يعرف ماذا يقول له، فسأله أخيرا: «كيف حالك؟» وتردد الصبي هو الآخر لا يجد ما يجيبه ثم قال: «بخير» وأحس كل منهما أن في نفس الآخر شيئاً غير ذلك قد قصد أن يقوله. وعلق هومير مجيباً عن يوليسيس «إنه بخير» مستشعراً أن في كلماته شيئاً من الخطأ، وأنها ليست ما يجب عليه أن يقول. وكرر أوجي مرتبكاً نفس هاتين الكلمتين وكأنه قد خرج عليهم بشيء جديد رائع.

كانوا جميعاً يستشعرن شيئاً من التحرج، ولكنهم مع ذلك في غمرة من السعادة والسرور وعلى الأخص سبانغلر، أما وليم جروجان فقد راح ينصت لهم وهم يتبادلون كلماتهم هذه، ثم أخرج زجاجته وأدار غطاءها وجرع منها جرعة كبيرة.

وهم أوجي مستديراً يريد العودة إلى البيت، فاستوقفه هومير قائلا: «أوجي، انتظر لحظة.. إني سأخذك على دراجتي إلى البيت.. هل تسمح لي يا مستر سبانغلر؟ فأنا ذاهب إلى مصانع إيتاكا أحضر برقياتهم من هناك، والمصنع في الطريق إلى البيت، فإذا سمحت لي فإني سأحمل أوجي ويوليسيس إلى البيت أولاً ثم أذهب إلى المصنع».

«طبعاً... طبعاً...» وعاد سبانغلر إلى مكتبه وأخرج البيضة المسلوقة التي يؤمن أنها تجلب له الحظ أو على الأقل تبعد الشرور والمصائب الكبيرة عنه.

وقال أوجي لهومير: «لا يا هومير... ليس هناك ما يدعو إن تحملني إلى البيت... إن حمل اثنين على الدراجة ليس بالشيء الهين... وأنا أستطيع أن أعود بسرعة ماشياً».

«لا.. لا.. سأحملك، إن البيت على بعد ثلاثة أميال تقريباً، وليس هذا بالشيء الهين.. ثم إني لن أجد صعوبة في حملكما معاً على الدراجة، فستجلس أنت أمامي ونضع يوليسيس في المقدمة.. هيا بنا..».

وخرج الصبية الثلاثة إلى الدراجة وانطلق هومير بحمله الثقيل، ولا سيما أن قدمه تؤلمه.. ووصل براكبيه سالمين إلى البيت. وأوقف هومير دراجته أولاً عند بيت أوجي إلى جوار سوق آرا، وهناك رأوا آرا نفسه واقفاً أمام باب محله وقد أمسك يد ابنه الصغير بيده وهما يتطلعان معاً إلى السماء. وعند نهاية الطريق إلى جوار الأرض الفراغ شاهدوا السيدة ماكولي واقفة في فناء بيتها تحت الشجرة الكبيرة تجمع غسيلها من الحبال وسمعوا غناء ماري وبيانو بس يتسلل خافتاً من غرفة الجلوس في المنزل.

فلما وصلوا إلى البيت نزل أوجي من الدراجة داخلاً بيته، على حين وقف هومير لحظة في الطريق ممسكاً بدراجته رافعاً نظره إلى السماء متطلعاً إلى بيت أسرة ماكولي أمامه. وبعد قليل عاد أوجي خارجاً من البيت وذهب إلى السيد آرا يسأله:

«كيف حال العمل اليوم يا سيد آرا؟».

«أشكرك يا أوجي.. أنا راضٍ بما كسبت».

فقال له أوجي: «معي الآن خمسة وسبعون سنتاً أريد أن أصرفها.. وأن أشتري بها لغداً الشيء الكثير».

«حسناً يا أوجي..».

والتفت البائع إلى السماء قبل أن يدخلا محله، وأشار إلى السحب

ثم قال لابنه: «انظر يا جون!.. لقد جاء الليل.. وبعد قليل نذهب إلى فراشنا وننام.. ننام طوال الليل.. فاذا ما طلع الصباح قمنا مرة أخرى.. في يوم جديد»..

ودخل الرجل وابنه وابن جاره إلى المحل، على حين كان يوليسيس يرقب أمه وهو جالس على مقعد الدراجة، وبعد قليل اعتلاها هومير ومضياً راكبين إلى البيت.

وفى الطريق استدار هومير متطلعاً إلى وجه أخيه قائلا: «ماما».

«طبعا.. هذه هي ماما.. في الفناء تحت الشجرة.. أتراها؟».

ولما اقتربا من المرأة الواقفة في الفناء تحت الشجرة، امتلأ وجه الأخ الأصغر بابتسامة مضيئة، وإن ظهرت على وجه الأم آثار حزن عميق، كما بدا الحزن في وجه الأخ الأكبر الممسك بمقدم الدراجة وهو يكاد يحتضن أخاه الصغير.

... واخترق هومير بدراجته الأرض الفراغ إلى فناء البيت حتى الشجرة الكبيرة، فنزل من فوق دراجته وأنزل أخاه، وعلى الأرض وقف يوليسيس يتطلع إلى أمه، وقد ذهب عنه إلى الأبد ذلك الرعب الذي أشاعه في قلبه الرجل الآلي.

وقال هومير: «لقد تاه يوليسيس يا ماما.. ووجده أوجي فصحبه إليّ في مكتب التلغراف. وجئت الآن أعيده إلى البيت فقط، فلن أستطيع أن أبقى، ولكنني سأدخل لأحيي بس وماري قبل أن أعود».

ونفذ هومير داخلاً إلى البيت ولكنه وقف في الظلمة في غرفة الطعام ينظر إلى أخته وفتاة أخيه حتى فرغت أنشودتهما، فدخل عليهما غرفة الجلوس قائلا: «مرحباً».

فاستدارت الفتاتان وحيته ماري «مرحباً يا هومير..» ثم انطلقت فجأة تقول له في سرعة وسعادة عظيمة:

«لقد وصلني اليوم خطاب من ماركوس».

«حقا.. يا ماري؟! وكيف حاله؟».

«بخير، ولكنه يقول انهم سيرحلون قريباً دون أن يعرفوا إلى أين، ويطلب منا ألا تقلق خواطرنا عليه إذا تأخرت رسائله قليلاً».

وقالت بس: «لقد كتب لنا جميعاً لماما.. ولي.. وحتى ليوليسيس».

«صحيح» وانتظر هومير أن تعلن له وصول خطاب له هو أيضاً، خائفا ألا يكون قد أرسل إليه، وسألها أخيراً بصوت خفوت: «وهل أرسل لي خطابا؟».

«أوه طبعاً.. خطابك أنت أضخمها جميعا.. كنت أظن أنك ستعرف أنه ما دام قد كتب لنا جميعاً فلا بد أن يكتب لك أنت أيضاً».

ورفعت من المنضدة خطاباً ناولته لهومير، فراح ينظر إليه دون أن يتكلم، فسألته أخته أخيرا: «لماذا لا تفتحه وتقرؤه؟.. أقرأه علينا..».

«لا يا بس.. أنا مضطر لأن أذهب الآن، وسآخذ الخطاب معي إلى المكتب لأقرأه بالليل، عندما يكون لدي وقت كافٍ».

فقالت بس: «لقد قضينا نحن النهار نبحث عن عمل.. ولكننا لم نجد شيئا..».

فأضافت ماري: «ولكننا على أية حال وجدنا الكثير من المتعة والتسلية في مجرد الدخول على الناس وسؤالهم عن عمل».

فأجابها هومير: «إنني سعيد على أية حال لأنكما لم تجدا عملاً، سواء كان هذا قد سركما أم لا. ويجب ألا تفكرا في هذا أبداً، فما أكسبه أنا يكفي لحاجاتنا جميعا.. ولأبيك يا ماري وظيفة في مصانع إيتاكا.. ولستما في حاجة إلى البحث عن عمل».

«لا.. يا هومير.. نحن فعلاً في حاجة إلى أن نبحث عن عمل، ولا شك أننا سنحصل عليه يوماً من الأيام.. بل لقد طلبوا إلينا العودة فعلاً في مكانين..».

فقال هومير وقد بدأ يظهر في صوته الغضب: «أقول لا تبحثا عن عمل.. فلست يا بس.. ولا أنت يا ماري في حاجة إلى هذا، وإذا كان هناك من يجب أن يعمل.. فالرجال هنا قادرون على القيام به.. إن مكان البنات هو البيت، وليس عليهن إلا أن يرعين الرجال.. يلعبن على البيانو ويغنين ويحاولن أن يظهرن جميلات ليراهن المرء كذلك إذا ما عاد إلى البيت.. هذا هو كل ما عليهن أن يعملنه..».

«وصمت لحظة ثم استأنف حديثه في حنان ملتفتاً إلى ماري: «فإذا ما عاد ماركوس يا ماري استأجرتما منزلاً صغيراً لكما وكونتما أسرة على نحو ما تريدان.. وأنت يا بس سيجيء اليوم الذي تلقين فيه شاباً تحبينه.. هذا هو العمل الذي يجب أن تفكرا فيه. أليس معنى أن العالم قد نشبت فيه الحرب أن يجن الناس جميعا.. إلزمي البيت، مكانك الطبيعي وساعدي ماما.. وأنت يا ماري التفتي إلى مساعدة أبيك».

وكان في صوته شيء من السيادة والسلطة، فشعرت أخته بالفخر به، فما رأته من قبل مهتماً بشيء كما تراه الآن.

«لا تنسيا هذا أبداً.. والآن.. اعزفا لي أنشودة أخرى قبل أن أذهب».

فسألته بس: «ماذا تريد أن تسمع؟».

«أي أنشودة..».

فبدأت بس تعزف وسرعان ما شاركتها ماري في الغناء، على حين ظل الساعي في ظلمة غرفة الجلوس يسمع، ثم انسحب منصرفاً في هدوء قبل أن تنتهي الأنشودة. وفي الفناء رأى يوليسيس عند خم الدجاج يتأمل بيضة.

نادى هومير: «أماه!» فلما التفتت إليه قال: «لنعقد العزم على الذهاب كلنا غداً إلى الكنيسة.. كلنا معاً.. ونأخذ معنا ماري».

«ماذا تقصد يا هومير؟.. نحن نذهب إلى الكنيسة تقريباً كل أحد.. وماري دائماً معنا..».

فقال هومير في عجلة: «نعم.. نعم.. أعرف ذلك.. ولكن لنعقد العزم على ذلك غدا.. وعلى أن تكون ماري معنا..» والتفت إلى أخيه يسأله: «ما هذا الذي في يدك يا يوليسيس؟».

فأجابه يوليسيس وكأنما ينطق باسم الرب: «بيضة».

واعتلى هومير دراجته وسلك طريقه راكباً إلى مصانع إيتاكا للنبيذ.

32



مستنداً إلى الأذرع الخالدة

بينما كان هومير يشق طريقه إلى مصانع النبيذ، كان قطار أميركي سريع يتحرك فى مكان بعيد تختلف فيه الساعة الزمنية عنها في إيتاكا. وكان القطار يطوي أرضاً أميركية ويخترق ليلاً أميركياً حاملاً شباناً أميركيين بينهم ماركوس وصديقه توبي، وقد ارتدوا جميعاً ملابس الجنود وأُعدوا للقتال ودُربوا عليه. ولكنك إذا ما نظرت في عيونهم ولمست أرواحهم العالية، واستمعت إلى أصوات الضحك والصياح والغناء الصادرة عنهم عرفت أنهم لا يمثلون جيشاً فحسب بل يمثلون أمة بأكملها، أمة كبيرة عظيمة. إنهم وإن كانوا قد تعلموا أن ينتظموا في الصف، متحركين في أوقات محددة

متخلين عن كل رغباتهم الشخصية في سبيل وحداتهم العسكرية فإن هذا كله لم يجعلهم مجرد آلات، بل ما زالوا أناساً طيبين تعتمل في نفوسهم ـ على الأقل ـ رغبات الناس ومقاصدهم العادية. إنهم حقاً مصدر ضجة وضوضاء كبيرة، وقد لا يبدو عليهم أنهم لا يدركون أهميتهم وقيمتهم، ولكنهم على أية حال لم يفقدوا أبداً شعورهم بكرامتهم... ولئن كان للمرء أن يتأكد أن هذه الضجة انما تنبع من خوف داخلي عميق، فإنهم مع ذلك ما زالوا جسورين لا يتهيبون شيئا. لقد تقبلوا هذه الضرورة التي أوجبت عليهم أن يطردوا الخوف من نفوسهم دون أن يكونوا بحاجة إلى التمسك بأسباب زائفة أو تعليلات وأقاويل مزوّقة، بل لقد ارتضوا قابلين أن يلقوا الموت إذا ما واجههم. إنهم جميعاً أولاد أميركا. ما زال معظمهم صبية صغاراً وإن كان بينهم من جاوز الأربعين: ما زال معظمهم صبية صغاراً جاؤوا من المدن الكبيرة أو القرى الصغيرة، من المزارع أو المكاتب، من أسر غنية أو فقيرة، انتزع بعضهم من عوالم واسعة كبيرة، وبعضهم الآخر من دنيا محدودة مغلقة، مخلفين وراءهم أحلاماً وأماني رائعة أو تاركين وراء ظهورهم أحلام حياة هادئة وادعة، بينهم الألمعي الذكي والغبي البطيء الفهم، وبينهم المتقلب والساكن الثابت. ووسط هذا التهليل والضحك، وفورة الانفعال والإضطراب والتلهف، وبين هذا المزيج الرائع من الجهل العميق والحكمة البعيدة. كان ماركوس ماكولي يتحدث هو وصديقه توبي جورج في صوت هادئ خافت.

وقال توبي: «ها نحن أولاً إذن في طريقنا».

«نعم»...

«أتعرف يا ماركوس؟.. أنني أعتبر نفسي محظوظاً، فلولا هذه الحرب لما التقيت بك ولما عرفت ما عرفته عن أسرتك».

أحس ماركوس بشيء من الارتباك ولكنه قال: «شكرا.. هذا شعوري أيضاً نحوك».

وتوقف لحظة عن الحديث ثم اتجه إلى صديقه بذلك السؤال الذي لا بد أن يتردد مراراً على بال كل رجل يحس أنه معرض لخطر مجهول لا يعرفه:

«أريد أن تقول لي الحق، هل ستنزعج حقاً لو حدث أن قتلت؟».

لم يستطع الآخر أن يجيب على السؤال مباشرة ولكنه استطاع أخيراً أن يحمل نفسه على أن يقول:

«طبعاً.. إنني أستطيع أن أخدعك وأن أتظاهر بأن هذا لن يهمني أو يزعجني... ولكن لا شك أني أخشى ذلك وأخافه وأنت ألا تحس بذلك؟».

«نعم... اني أخشى ذلك جدا... ولكني كنت أريد فقط أن أعرف».

وانتظر لحظة ثم استأنف حديثه يسأله: «فيم تفكر؟ وما هذا الذي تريد أن تعود إليه؟».

لم يكن توبي يعرف ما الذي يريد أن يعود إليه، فأجابه قائلاً: «لا أدري.. أظن أنني أريد أن أعود.. أن أعود.. إلى أي شيء كيفما

كان.. إني لست مثلك، فلا أسرة لي، وليس هناك من أعود إليه، ولكن أياً كان هذا الذي ألقاه عندما أعود فأنا راضٍ به. ليست لي فتاة كفتاتك «ماري» تنتظرني، ولكن بالرغم من ذلك أعرف أني أود العودة لو استطعت..».

«طبعاً..».

وساد بينهما الصمت من جديد حتى قطعه ماركوس قائلاً:

«كيف اتفق أنك أحببت الغناء؟».

«وكيف لي أن أعرف أنا هذا.. أنا أحب أن أغني، وهذا كل ما هناك».

وظلا لحظة يستمعان إلى صوت القطار وإلى الضجة في داخله ثم سأله توبي: «فيم تفكر؟».

ومضى بعض الوقت قبل أن يجيبه ماركوس:

«أفكر... في أبي وأمي. وفي أختي بس وأخويّ هومير ويوليسيس، أفكر في ماري وفي أبيها السيد أرينا، وفي كل جيرتنا بما فيها الأرض الفراغ والأولاد والبيوت وسوق آرا والسيد آرا نفسه! أفكر في عربات القطار التي تعودت أن أرقبها تمر، وفي مدرسة الأحد والكنيسة وحديقة المحكمة والمكتبة العامة ومدرسَتي القدامى.. وكل أولئك الأولاد الذين عرفتهم في حياتي.. وفي أولئك الذين ماتوا.. ماتوا.. لا في الحرب.. بل ماتوا موتاً طبيعياً».

«ماركوس.. قد يبدو ما أقول مضحكا.. وقد لا تستطيع أن

تفهمني.. ولكن أحس كأن إيتاكا هي وطني!».

وتوقف لحظة ثم قال: «لو أننا خرجنا سالمين.. لو أن هذا كله قد انتهى في خير، فهل ترضى أن تصحبني معك إلى إيتاكا..؟ هل ترضى أن تريني الأماكن التي عرفتها وتحدثني عنها، وأن تقص عليَّ ما حدث في هذا المكان أو في ذاك؟».

«طبعاً.. طبعاً.. أريد أن أفعل هذا.. بل أريد أيضاً أن تلقي أسرتي.. إننا قوم فقراء.. وكنا كذلك دائماً.. ولكن أبي كان رجلاً عظيماً.. لم يكن أبداً رجلاً ناجحاً، فهو لا يكسب في حياته من النقود إلاّ ما يكاد يسدُّ به حاجتنا».

«ماتيو ماكولي؟».

«نعم.. أبي.. ماتيو ماكولي. كان يعمل في حقول العنب، وفي مصانع الطعام المحفوظ ومعاصر النبيذ..كان يقوم بهذا العمل العادي اليومي، فلو رأيته في الطريق لما أحسست أنه يتميز بشيء عن أي إنسان آخر. كان في مظهره كبقية الناس، يعمل كأي واحد منهم، ولكنه بالرغم من ذلك، كان رجلاً عظيماً. إنه أبي وأنا أعرف أنه كان عظيماً، لم يكن يهتم بشيء إلا بأسرته.. بزوجته وأطفاله.. أذكر أنه راح يقتصد شهراً بعد شهر ويوفر النقود حتى استطاع أن يشتري بالتقسيط قيثارة.. نعم العزف على قيثارة، ولكن هذا كان ما أرادته أمي وما راح لأبي يقتصد من أجله ويسدد ثمنه بالفائدة حتى اشتراها لها.. وظل خمس سنوات يدفع ثمنها.. لقد كانت أغلى قيثارة يمكن للمرء أن يشتريها. لقد دخل في أذهاننا ونحن صغار أنه لا بد أن يكون في كل بيت قيثارة لمجرد أنه أصبح لدينا واحدة..

وبعد ذلك اشترى بيانو لأختي بس، ولكن هذا لم يكلفه مبلغاً كبيراً.. وأنا لم أكن أتصور وأنا صغير أن أبي وحيد في عظمته هذه. بل كنت أعتقد أن كل إنسان هو عظيم كذلك مثله.. حتى خرجت إلى الدنيا وعرفت بعضاً من أولئك الآخرين.. أنهم أناس طيبون.. لا عيب فيهم.. ولكني لا أظنهم عظماء، أو من يدري فقد يكونون كذلك، وأنا لا أعرفهم جيداً، فلا شك أن من الواجب أن تعرف الناس حقاً قبل أن تحكم إذا كانوا عظماء أو لا. فمن الناس من هم عظماء حقاً دون أن يتصور أحد ذلك.

«كم كنت أود لو أنني عرفت أحداً كأبيك، ولست أقصد بذلك طبعاً أن يكون أبي أنا، بل أن يكون موجوداً أستطيع أن أعرفه وأن ألقاه، ويخيل إلي على أية حال أنني كنت محظوظاً بأني لم أعرف أبي، فما زلت أستطيع، مادمت لم أعرفه، أن أعتقد أنه كان عظيماً.. كأبيك تماماً.

«من يدري.. ربما كان كذلك».

«ربما.. هذا ما أرجوه.. أتعرف أنني لم أدرك أن للأطفال آباء وأمهات حتى ذهبت إلى المدرسة وسمعت الأولاد يتحدثون عنهم..». وضحك توبي مرتبكاً ثم قال: «ولم أستطع إذ ذاك أن أفهم ذلك، فقد كنت أتصور لأن كل رجل إنما قد جاء إلى الدنيا وحده، مثلي، وحيداً بنفسه. وأظن أنني عندما عرفت هذا تألمت زماناً طويلاً، فقد جعلني أحس أنني وحيد.. أقصد.. جعلني أحس أكثر بالوحدة، ومن يدري فقد يكون هذا هو السبب الذي دفعني أن أحب الغناء، فإن المرء إذا غنى لا يعود يشعر بوحدته».

وتبدى في صوته خجل وتحرج وهو يقول لصديقه: «حدثني عن بس، كيف هي؟».

وأدرك ماركوس تحرج صديقه وهو يسأله هذا السؤال ولم يكن يريد له أن يحس بذلك فقال:

«لا ضير من هذا يا توبي.. إنك تستطيع أن تسألني عن أختي.. بل إنني أريد أن تلقاها واعتقد أنها ستحبك».

«أنا؟».

«نعم.. إنني أحس ستعجب بك جداً. وأريد أن أصحبك معي إذ ما عدنا إلى البيت لتبقى معنا هناك، فإذا ما أعجب أحدكم بالآخر.. نعم.. لا شك أن بس الآن على أية حال في سن الزواج.. وبالرغم من أنها أختي.. فإني أظن أنني أستطيع أن أقول هذا.. أنا متأكد.. وهذا هو المهم.. إنها ستعجب بك جداً».

وبدأت كلمات ماركوس تتعاقب في سرعة، فقد كان يحس أنه بالرغم من استحالة الكلام في مثل هذا الموضوع فإن عليه أن يحاول على أية حال. ولذلك راح يحاول أن ينطق الكلمات وأن ينقل ما يريده من معنى بأسرع ما يمكن حتى لا يطول تحرّجه واضطرابه. وقال لصديقه أخيرا: «تزوجها وعيشا في إيتاكا، فهي بلدة جميلة وستستطيع أن تكون سعيداً هناك. وسوف أعطيك الآن صورتها كي تحتفظ بها». وناوله صورة لأخته بس وهو يقول: «ضعها مع بطاقة شخصيتك كما أضع أنا صورة ماري».

وأخذ توبي صورة أخت صديقه وراح يتأملها وقتاً طويلاً،

على حين راح ماركوس يتأمله هو، ثم قال أخيراً:

«بس جميلة حقاً.. ولست أدري هل من الممكن أن يحب المرء فتاة لم يلقها من قبل، ولكني أحس الآن أنني أحب بس فعلاً.. أنا أحس مرض الحب حقاً. وأقول لك الحق لقد كنت متردداً قبل الآن.. أخشى أن أفاتحك في أمر بس.. ولكنني قلت لنفسي: «ما دمنا هكذا في طريق لا يستطيع أحد أن يتنبأ بعاقبته، فقد لا يزعجك أن أكلمك في هذا. وكنت أحس دائماً، ولا حيلة لي في هذا، أنني لا أملك من الحقوق ما للآخرين.. إنك تفهم ما أعني.. شاب مثلي أعطاه الملجأ اسمه ولم يأخذه عن أب أو أم.. شخص لا يعرف ماذا كانت جنسيتهما.. بل ما هي جنسيته هو. لقد سمعت بعض الناس يقولون إنني إسباني وفرنسي، وبعضهم يقول لا، إنني إيطالي ويوناني.. وآخرون غيرهم يقولون إنني إنجليزي وإيرلندي.. نعم.. يكاد كل واحد منهم ينسبني إلى جنسية تخالف ما ينسبني إليه الآخر..».

قال ماركوس:

«ولكن لماذا؟!.. إنك أميركي.. هذا كل ما هناك.. وكل إنسان يستطيع أن يرى هذا بوضوح..».

قال توبي:

«نعم.. نعم.. صحيح.. أعتقد أنني أميركي فعلاً.. ولكني ما زلت أريد حقاً أن أعرف أي أميركي.. أنا».

قال ماركوس:

«إنك الأميركي الذي اسمه توبي جورج.. وأعتقد أن في هذا الكفاية لأي إنسان. اسمع..احتفظ بالصورة.. فإننا سنعود إلى إيتاكا لتكوِّن أنت أسرة وأنشيء أنا أخرى، وسنتزاور بين الحين والآخر لنستمع إلى الموسيقى أو نغني.. وهكذا نقضي حياتنا».

قال توبي:

«ماركوس.. أتعرف أنني أصدقك.. إنني أحلف بالله إني أصدقك! ولست أظن أبداً أنك تقول لي هذا لمجرد أننا قد تعارفنا وأصبحنا أصدقاء.. لا.. إني أصدقك وليس هناك ما أتمناه في الدنيا أكثر من أن أعود معك، إني أريد أن أعيش هناك وأن أحقق كل هذا الذي تحدثني عنه».

وتوقف لحظة يفكر متصوراً ما قد يعوقه عن أن يحقق هذا، ثم قال: «وإذا لم ترض عني بس.. أو أحبّت شخصاً آخر.. أو وجدتها قد تزوجت عندما أعود.. فإنني على أية حال لن أعيش إلا في إيتاكا، لست أدري لماذا، ولكني أحس أن إيتاكا قد أصَبحت وطني أنا الآخر. إني أحس لأول مرة في حياتي أني أنتمي إلى مكان ما.. وأن أسرة ماكولي ـ إذا لم يزعجك هذا ـ إنما هي أسرتي.. فلو أنني خُيِّرتُ لما اخترت أسرة أخرى.. إنني أرجو من الله أن ترضى بي بس وألاّ تحب أحداً قبلي.. فأنا أعرف تماماً.. أنني.. الآن... أحبها..» وخفت صوته وهدأ، ولكن ماركوس بالرغم من ضجة القطار وما امتلأ به من صوت قد استطاع أن يسمعه وهو يقول: «بالرغم من أن بس لا تعرف هذا، فإنها قد أصبحت فتاتي، ومنذ الآن لن أتنفس إلا لكي أبقى، لأعود إلى إيتاكا، وإليها هي.. ستكون

إيتاكا وطني الذي أعيش فيه أموت فيه.. لو استطعت!!».

قال ماركوس:

«سنعود.. وسنجتمع في إيتاكا، أنا وماري وأنت وبس ومعنا أمي وهومير ويوليسيس.. ما عليك إلا أن تنتظر وسترَ».

صمت الصديقان وقتاً طويلاً، ثم قدم عليها الآخرون في القطار يحيونهما، وما لبثا أن اشتركا معهم في الصياح بل راحا يغنيان معهم أغنية قد ابتدعوها بأنفسهم عن نساء الطريق وما يُصنع بهن. وفجأة وفي وسط الأغنية وكأن ما يقوله إنما هو أمر مناسب تماماً. قال توبي لصديقه «أتصلي؟» فأجابه ماركوس سريعا: «نعم دائماً.. دائماً».

«لقد كانوا يجبروننا ونحن في الملجأ على الصلاة، فكنا نصلي أردنا ذلك أم لا».

قال ماركوس:

«ما أظن العرض سيئاً على أية حال.. ولكن الصلاة هي آخر ما يجبر عليه المرء، والصلاة المغتصبة ليست بصلاة...».

قال توبي:

«نعم.. أنا معك.. ولهذا تركت الصلاة منذ غادرت الملجأ، ولا أظن أني صليت منذ كنت في الثالثة عشرة..

ولكني أريد أن أعاود الصلاة من جديد من الآن.. واسمع.. هذه صلاتي..».

وانتظر لحظة ثم بدأ يصلي دون أن يغمض عينيه أو يحني رأسه أو

يطوي ذراعه، ولكن ما قاله كان، ولاشك في هذا، صلاة حقا.. قال:

«اللـهـم لا أريـد مـنك إلا أن تـردني لإيتـاكـا.. إذا كـان ذلك مستطاعاً.. فلتجرمشيئتك كما تريد عليّ، ولكن ردني إلى إيتاكا.. عد بي إلى وطني.. واحم الناس جميعاً.. وجنبهم الألم. هب للضالين البيت ورد غربة المسافر.. وعُد بي أنا إلى إيتاكا».

وأنهى صلاته ثم عاد يغني من جديد كلمات الأنشودة الفاخرة، ولكنه توقف فجأة صائحا: «آمين».

قال ماركوس:

«هذه صلاة صالحة.. أرجو أن تجاب».

وأحس اليتيم أنه ترك من صلاته شيئاً يريد أن يطلبه، فاستأنفها قائلا: «اللهم احفظ تلك المدينة وأنعم عليّ بالسير في طرقاتها. وارع هنالك أسرة ماكولي.. جميعاً، إحفظ لي بس ودعها تعرف أنني أحبها.. واحفظ لنا ماركوس وماري. وارع أمه وأخويه هومير ويوليسيس. واحم لنا البيت والأرض البور إلى جواره. واشمل القيثارة والبيانو والأناشيد بخيرك. وأحط برعايتك قضبان القطارات حتى أستطيع أن أرقبها عندما أعود. دع العالم يبقى كما هو، وامنحني فرصة العودة إلى هناك.. إلى إيتاكا.. حيث أريد أن أكون.. ردّني إلى إيتاكا.. إذا كان ذلك مستطاعاً فهذا كل ما أريد «ثم صاح من جديد: «آمين».

وكان الجنود قد اندفعوا ينشدون أنشودة جديدة صاغوها بأنفسهم أيضاً، ولكن الأنشودة في هذه المرة تتحدث عن فناء الأشياء جميعاً، وخاصة حب النساء، معجبين جميعاً بما في الأغنية من حكمة مستهترة متهكمة.

وشارك توبي وماركوس في الغناء ولكن توبي توقف فجأة يسأل صديقه: «وأنت يا ماركوس ماذا تطلب في صلاتك؟» فتوقف ماركوس هو الآخر عن الغناء مجيبا: «ما تصلي له أنت ذاته.. عين هذه الأشياء جميعاً». وعاد الصديقان من جديد يشاركان في الأغنية ذات الحكمة المستهترة المتهكمة!

وانتهت الأغنية وساد القطار الصمت، ولم يدر أحد سبباً لذلك، ولكنهم نزلت عليهم جميعاً لحظة سكنوا فيها ومسهم جد عميق. وتقدم أخيراً جندي اسمه جوهيغنز إلى ناحية ماركوس وتوبي قائلاً:

«ما هذا؟.. لماذا صمتنا هكذا جميعا؟.. ألا تغني لنا يا توبي؟ وأنت يا ماركوس لم لا تلعب على الأكورديون؟».

«وماذا تريد أن تسمع يا جو..؟».

«أوه.. أي شيء..لا أدري.. لقد غنينا كل أغانينا القَذِرة، وقد يكون من الأولى بنا الآن أن نغني واحدة من تلك الأغاني القديمة.. أنت تعرف ماذا أقصد.. أغنية جميلة طيبة..لم لا نغني شيئاً من أغاني الكنيسة..شيئاً من هذا الذي كنا نغنيه جميعاً ونحن صغار؟».

فقال ماركوس: «نعم.. لم لا.. ماذا تريد يا جو من أغاني الكنيسة؟».

«أريد.. اسمعوا.. لا تضحكوا مِنّي.. أريد أن أسمع» مستنداً «أتعرفها.. مستنداً إلى الأذرع الخالدة».

فالتفت ماركوس لتوبي يسأله: «أتعرف كلمات هذه الأغنية يا توبي.. أنا أعرفها وسأساعدك إن كنت تعرفها..».

«أعرفها؟!.. كيف؟.. أظن أنني غنيتها كل أحد في عشر سنوات طوال..».

«إذن.. هيا.. نغنيها لجو..».

والتفت ماركوس لجو يقول له: «وإذا كنت تريد يا جو أن تشترك في الغناء فلا تتردد.. فليس من المهم أن تحسن الغناء.. ليس عليك إلا أن تشاركنا..».

«أوه.. طبعاً.. سأغني..».

وبدأ ماركوس يعزف النغم القديم وسرعان ما شاركه توبي في الغناء:

«ما أجمـل الصحبة والفـرح الآلهي».
«مستنداً.. مستنداً إلى الأذرع الخالدة».
«ما أنعم البركة، وما أشمل ما أحس من سلام».
«مستنداً.. مستنداً إلى الأذرع الخالدة».

وارتفع صوت جو عالياً لا موسيقية فيه ولكنه مع ذلك محبب جذاب، يغنى مع توبي، في حين راح جميع من في القطار يستمعون إليهما، ولم يمض سوى قليل من الوقت، حتى تحلّق الجميع حول الثلاثة: ماركوس وتوبي وجو، مقتربين ما استطاعوا من كلمات الأنشودة القديمة الرائعة ونغماتها، واستمر جو وتوبي يغنيان:

«مستنداً، مستنداً، آمناً محفوظاً من كل شر».
«مستنداً.. مستنداً إلى الأذرع الخالدة».

وعند ذاك كان كل من اجتمع حول المغنيين قد اشترك معهما في الغناء.

33



خطاب ماركوس لأخيه هومير

كان ذلك الأحد من أطول الأيام في حياة هومير ماكولي وأكثرها أحداثاً. فقد بدأ يرى الأشياء الصغيرة كلها تكتسي رداء جديداً من الأهمية ويبدو لها معنى واضح يستطيع أن يفهمه ويدركه وأصبحت ليلة الأمس بما فيها من رقاد مضطرب مليء بالأسى جزءاً دائماً من يقظته وصحوه. لقد حاول جاهداً بالأمس أن يبعد رسول الموت عن إيتاكا وأهلها، ولكن هذا الذي كان حلماً بالامس لم يعد كذلك الآن.

إنه ما زال يحمل خطاب ماركوس معه، لم يفتحه بعد ولم يقرأه.

ودخل هومير مكتب التلغراف يعرج متعباً يتلهف على أن

يستريح، ولكنه راح أولاً ينظر إلى القائمة التي يسجلون فيها الطلبات فلم يجد شيئاً عليه أن يتسلمه فاتجه إلى حيث يعلقون البرقيات الجديدة فلم يجد شيئاً أيضاً. لقد انتهى العمل وحق له أن يستريح. فذهب إلى العامل الهرم وقال له:

«أتشاركني الليلة يا سيد جروجان في فطيرتين طازجتين.. من فطائر التفاح وجوز الهند بالقشدة؟».

وكان عامل البرق الهرم إذ ذاك نصف سكران. ولكنه قال له: «أناصفك الثمن يا بني.. ولكني لن أكل من الفطائر.. وشكراً لك على أية حال..».

«ولكن إذا كنت لن تأكل من الفطائر فلن آكل أنا أيضاً لقد كنت أظنك جائعاً، فأنا لا أحس أبداً برغبة في تناول الطعام، ولكن هذه هي أول لحظة أستطيع فيها أن أستريح طول هذا النهار، وإني لأتعجب حقاً أني لست جائعاً، فقد كنت أظن أن المرء بعد هذا العمل كلّه لا بد أن يجوع.. ولكني لا أحس شيئاً من هذا أبداً، بالرغم من أني لم آكل إلا صحناً من الشيلي[1] في السادسة!!».

«وكيف حال ساقك الآن؟».

«بخير.. لقد نسيتها تماماً.. فأنا على أية حال أتحرك بسهولة».

وراح هومير ينظر إلى عامل التلغراف الهرم في تمعُّن وتطلع ثم قال له بَصوْتٍ هادئ: «أنت سكران يا سيد جروجان؟».

(1) صحن مكسيكي وطني مكوّن من خضراوات مطبوخة مع اللحم وأبرز عنصر فيها هو الفلفل الأحمر واللوبيا الناشفة.

ألقى هومير سؤاله في جد وإخلاص فلم يجرح الرجل أو يتألم بل قال له: «نعم.. يا بني».

وذهب إلى مقعده فجلس هناك لحظة ثم رفع عينيه ينظر إلى الصبي الواقف أمامه على الناحية الأخرى من المنضدة وقال:

«عندما أسكر أشعر بتحسُّن كبير».

وأخرج زجاجته وشرب منها جرعة كبيرة ثم استأنف حديثه: «وأنا لن أقول لك يا بني اياك أن تمس الخمر.. لن أقول لك كما يقول بعض الحمقى.. انظر ماذا فَعَلت الخمر بي.. واتعظ. لن أقول لك هذا.. فلن يكون إلا سخفاً كبيراً. لقد خرجت إلى الدنيا الآن ورأيت أشياء كثيرة.. لم تكن قد رأيتها من قبل.. فدعني أقول لك الآن شيئا.. تمهل جداً وتأنَّ في كل ما يتعلق بالناس، فإذا رأيت فيهم ما توقن أنه خطأ فلا تثق كثيراً بيقينك، كن حريصاً جداً إذا ما تعلق الأمر بالناس.. وإني لأرجو أن تغفر لي إذا كنت مضطراً أن أكلمك، فأنت رجل أحترمه ولا يزعجني أبداً أن أقول لك إنه من الخطأ جداً بل من الحمق أن ينتقد المرء الناس وما هم عليه! إنني لا أعرف شيئاً البتة عنك.. لا من أنت، ولا من أين جئت.. ولا كيف أصبحت على ما أنت عليه الآن، ولكني مع هذا سعيد شاكر لهذا كله. فإن المرء كلما اقترب من خاتمة عمره ازداد عرفانه وشكره لأولئك الأفراد الطيبين الذين سيموت ويتركهم وراءه للحياة. إنني لو لم أكن سكراناً لما قلت لك شيئاً من هذا، وهذا وحده دليل طيب لك كي تعرف أن من الخطأ أن يكوّن المرء أحكاماً عن أولئك الناس الذين يفعلون ما يعتقد الآخرون جميعاً انه خطأ!! لقد كان من الضروري

بل من المهم أن أقول لك هذا وأن تسمعه أنت، أفليس من الخير إذن أني كنت سكراناً وأنني قلت لك ما قلت.. أتفهمني؟!».

«لا أظن ذلك يا سيد جروجان».

«إنني أريد أن أقول لك شيئاً قد يحرجك ويربكك، ولم أستطع أن أقوله لك لو لم أكن سكراناً.. أريد أن أقول لك أن تحمد نفسك وأن تعرف لها قدرها شاكراً.. نعم.. نفسك أنت، فأنا أريدك أن تفهم أن المرء بما هو عليه انما هو شيء يحق له أن يفرح به. بل إن من الواجب عليه أن يسعد به وأن يحمد الله عليه. فإنه كان خيراً، فليس هذا لنفسه فحسب، بل إنما كذلك لي أنا أيضاً، ولكل إخوانه جميعاً، وليس يخصه من هذا حقاً إلا حماية هذا الخير ونشره حولي أنا وكل الناس. وأنت يا بني لك في نفسك خير كبير عليك أن تشكر الله عليه، فلن يلقاك أحد إلا وهو يحمد الله مرحباً به، مدركاً ما فيك أول ما يلقاك».

ولسبب لا يدريه هومير تذكر فتاة فندق بيثل وطريقتها في الحديث إليه، ولكن الرجل الهرم استمر يتحدث إليه على حين راح هو يواصل تذكره للفتاة.

«إن الناس جميعاً سيعرفون لأول وهلة أنك لن تخدعهم أو تسيء إليهم، سيعرفون أنك لن تحتقرهم ولن تنكرهم، وإن كان العالم كله قد احتقرهم وأنكرهم، وأنك لن تعجز عن أن تتبين فيهم ما لم يقدر بقية الناس على تمييزه وتقديره. من الضروري أن تعرف أنت ذلك وألا تخجل أو ترتبك أمامه، إنك يا بني رجل عظيم من سنواتك الأربع عشرة. ولست أدري، بل لا يدري أحد ما الذي

جعلك هكذا عظيماً، ولكن عظمتك مع هذا حق لا باطل فيه، فاعرف أنها كذلك وتواضع أمامها، لا تغتر بها بل إحرص عليها واحِمها.. أتفهمني؟».

وأحس الساعي الصغير بحرج شديد ووجد صعوبة كبيرة في أن يقول:

«أظن ذلك يا سيد جروجان».

فواصل العامل الهرم حديثه قائلا:

«إني إذن أشكرك، لقد ظللت أرقبك صاحياً وسكران منذ جئت تعمل هنا، واستطعت دائماً في صحوي أو سكري أن أعرفك وأن أميز ما فيك، وكنت حريصاً وأنا في شبابي أن أرى الكثير من مدن العالم، واستطعت فعلاً أن أحقق هذا، وأينما ذهبت كنت أبحث طوال حياتي عنك، بل لقد وجدت منك في أماكن كثيرة غير متوقعة ولا مطروقة، وفي أفراد مجهولين لا يعرفهم أحد، بل إنني وجدت شيئاً منك في كل إنسان لقيته، ولكني لم أجد في واحد منهم كفايتي مما أبحث عنه.. والآن وأنا في إيتاكا وفي طريقي عائداً إلى حيث أستقر، هأنذا أجدك أنت أفضل وأعظم من كل من وجدت من قبل.. فلو أنك تستطيع أن تفهمني.. لاستطعت أيضاً أن تقبل شكري.. ما هذا الذي تحمله في يدك.. خطاب؟ لقد انتهيت من كلامي.. فهيا أنت يا بُني إقرأ خطابك».

«إنه خطاب من أخي ماركوس ولم تُتَح لي الفرصة قراءته من قبل».

«هيا افتحه إذن.. واقرأه بصوت عال.. أسمعني خطاب أخيك».

«أتحب أن تسمعه يا مستر جروجان؟».

«نعم، لو سمحت، فإني راغب في ذلك كثيراً».

وأخذ العامل الهرم جرعة جديدة من شرابه.

ومزق هومير مظروف خطاب أخيه واستخرج الخطاب ونشره، وبدأ يقرأ بصوت عالٍ ببطء شديد:

عزيزي هومير. قبل أي شيء آخر أريد أن أقول لك إن كل مالي في البيت هو ملك لك أنت الآن لكي تعطيه بدورك ليوليسيس إذا لم تعد بحاجة إليه.. كل ما لي من كتب وفونوغراف وأسطوانات وملابس حينما تستطيع أن ترتديها ؛ ودراجتي وميكرسكوبي وعدة الصيد ومجموعة الصخور التي جمعتها من بيدرا.. وكل شيء امتلكه هناك في بيتنا، إني أعطيها جميعاً لك أنت لا لبِس، فقد أصبحت أنت الآن رجل بيت ماكولي في إيتاكا وأنت تعرف طبعاً أنني أعطيت أمي أجري عن العمل أثناء العام الماضي في مصانع الطعام المحفوظ للمساعدة في البيت، ولكن هذا المبلغ لا يكاد يكون كافياً. وإني أتوقع أن تفكر أمي وبس سريعاً في الخروج للعمل. ولست أستطيع أن أطلب منك ألا أن تسمح لهما بذلك ولكنني أرجو ألا ترضى أنت من تلقاء نفسك بالسماح لهما، نعم إني أعتقد أنك لن ترضى عن ذلك كما كنت لا أرضى أنا. إن أمي طبعاً ستوافق على أن تعمل وكذلك بس، ولكن هذا نفسه أدعى لأن لا تسمح لهما بذلك. ولست أدري كيف تستطيع أن تجمع شمل

أسرتنا وأن تذهب إلى المدرسة في الوقت نفسه، ولكنني أعتقد أنك ستجد حلاً لهذا. إن ما يدفعه لي الجيش يرسل لأمي ما عدا بعض دولارات قليلة لا أستغني عنها، ولكنني أعرف تماماً أن هذا المبلغ لن يكون كافياً، وليس من السهل عليّ أن أنتظر منك هذا كله، على حين لم أذهب أنا للعمل إلا عندما بلغت التاسعة عشرة ولكنني، على نحو ما أؤمن أنك ستحقق ما لم أستطع أنا تحقيقه.

إنني أفتقدك طبعاً. وأفكر فيك دائماً، وأريد أن أقول لك إني سعيد، وإنني «وإن كنت لا أؤمن بالحروب بل أعتقد أنها حماقة حتى لو كانت ضرورة «إنني أحس شيئاً من الفخر لأني أخدم وطني الذي، هو كما أراه، إيتاكا وكل أفراد أسرة ماكولي. إني لا أستطيع أن أتصّور عدوي الذي أحاربه إنساناً، فلست أستطيع أن أرى كيف اتخذ من أي إنسان عدواً لي، ولكن أياً كان هذا العدو وأياً كان لونه ومدى خطئه فيما يعتقده، فإني أعتبره صديقي لا عدوّي لأنه لا يكاد يختلف عني أنا. ولست أعتقد أنني أحاربه هو بل أحارب فيه نفس هذا الذي أريد أن أحطمه في نفسي أنا أيضاً. ولا تظن أني أتصور نفسي بطلاً، فليست لي القدرة على تلبّس مثل هذه المشاعر، بل إنني لا أحس حتى بمشاعر الوطنية، أحببت دائماً وطني بناسه ومدنه، وعشقت دائماً بيتي وأسرتي. ولقد كنت أفضل ألاّ أكون في الجيش وألاّ تكون حالة حرب، ولكن ما دمت قد وجدت نفسي في الجيش ووجدت هذه الحرب قائمة فقد عزمت منذ أمد على أن أكون أفضل جندي أستطيع أن أكونه. إنني لا أعرف ماذا ينتظرني، ولكن أياً كان هذا فأنا أنتظره مستعداً له في خشوع وتواضع. ولا بد ان أقول لك

إنني خائف جداً، ولكنني واثق تماماً أنه إذا حان الوقت فسأؤدي ما هو متوقع مني، بل قد أجاوزه، على أية حال، وهذا ما أريدك أن تعرفه لن أكون مطيعاً في هذا كله إلا لما يمليه عليّ ضميري وصوت فؤادي. إن معي الآن إخوة من كل أنحاء أميركا، وآلافاً متعددة من مدن كإيتاكا، ويجب علي أن أقول لك في صراحة دون مواربة إنني قد أقتل في هذه الحرب، ولا شك طبعاً أني لا أحب التفكير في هذا، فليس أحب علي من العودة إلى إيتاكا وقضاء سنوات طويلة معك ومع أمي وأختي وأخي.. إني أريد العودة من أجل ماري، وما أريده لنفسي من بيت وأسرة.. ولكن من المتوقع جداً أن نسافر قريباً إلى جبهة القتال، ولا يعرف أحد أين يكون هذا، ولكن من المفهوم بيننا جميعاً أننا سنرحل قريباً. ولهذا قد يكون هذا الخطاب آخر خطاب لك، إلى حين، فأنا أرجو ألا يكون آخر خطاباتي جميعاً. على أنه إذا كان كذلك فاعمل على ألا يتفرق شملنا، وألا تتصور أبداً أني قد ذهبت إلى الأبد ولا تدع الآخرين يشعرون بذلك. لقد اتخذت لنفسي هنا صديقاً اسمه جورج توبي، وهو يتيم لقيط، ومن العجيب أن يصبح هو من بين الآخرين جميعاً صديقاً لي. وقد حدثته عن أيتاكا وعن أسرتنا، وأنوي في يوم من الأيام أن أصحبه معي إلى هناك...

أرجو منك ألا تحزن عندما تقرأ هذا الخطاب، فإنني سعيد إذ كنت أنا الذي أرسل للحرب من أفراد أسرة ماكولي وليس أنت، وإلا كان هذا خطأ يدعو للحزن حقاً. إني أستطيع أن أقول إنك أفضل أبناء أسرة ماكولي وإن عليك أن تظل كذلك وألا تدع شيئاً

يعوقك أو يوقفك. إنك الآن في الرابعة عشرة، ولكنك ستعيش ويجب أن تعيش حتى تبلغ العشرين والثلاثين والأربعين والخمسين والستين، يجب أن تعيش سني حياتك كلها إلى الأبد. بل إنني مطمئن أنك ستفعل. وسأظل أنا أرقبك دائماً، فأنت هو من نخوض الحرب من أجله.. نعم.. أنت أخي. كيف كنت أستطيع أن أقول لك مثل هذه الأشياء لو أننا كنا الآن معاً؟ فلو كنت إلى جانبك الآن لألقيت نفسك علي ولرحت تصارعني وأنت تتهمني بأني أحمق!! ولكن مع ذلك، فإن كل ما قلته أنا حق صحيح تماماً. سأكتب لك الآن اسمك هنا حتى تراه وحتى أذكرك من أنت: هومير ماكولي، نعم، هذا هو أنت. إنني افتقدك جداً ياهومير، ولا أكاد أستطيع أن أنتظر حتى أراك مرة أخرى. فإذا ما حدث هذا والتقينا من جديد، فسأتركك تعاركني وأدعك تلقيني أرضاً على ظهري في غرفة الجلوس أمام أمي وأمام بس ويوليسيس، بل حتى أما م ماري أيضا.. سأدعك تفعل هذا لأني سأكون سعيداً لمجرد أن أراك مرة أخرى. ليباركك الله، وإلى اللقاء..».

أخوك ماركوس.

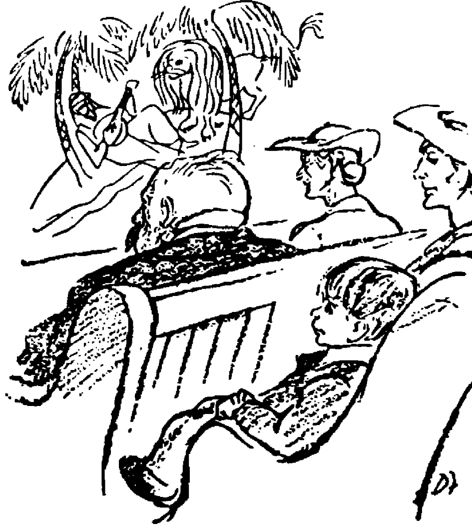
كان الساعي الصغير قد جلس أثناء قراءته للخطاب وراح ينطق الكلمات في بطء شديد مبتلعاً ريقه بين حين وآخر، مستشعراً، مرات عديدة، هذا المرض نفسه الذي فاجأه عندما كان في بيت الأم المكسيكية، وعندما بكى فى تلك الليلة التى جاب فيها إيتاكا على دراجته بعد العمل. فلما فرغ من قراءة الخطاب هب واقفاً، وقد ارتعشت يداه وراح يعض على شفتيه وينظر متطلعاً إلى الرجل الهرم

الذي لم يكن يقل انفعاله وتأثره بالخطاب عن هومير نفسه.

وبصوت خافت قال هومير: «لو قتل أخي في هذه الحرب الحمقاء.. فسأبصق على العالم كله.. سأكرهه.. ولن أكون طيباً بعد ذلك.. سأكون.. أشر من فيه، وأسوأ من عاش على هذه الأرض». وتوقف فجأة وقد صعدت الدموع إلى عينيه ثم أسرع إلى صندوقه وراء ذراع التيار فخلع رداء العمل وارتدى ملابسه العادية، وخرج يجري من غير أن ينظم هندامه.

وظل عامل البرق الهرم جالساً بعد ذلك وقتاً طويلاً، وساد المكان صمت وسكون، فهز الرجل نفسه أخيراً وجرع ما تبقى في زجاجته ثم قام واقفاً ينظر حوله.

34



إليك قبلة

تسير حياة الإنسان في إيتاكا بل في العالم كله على نحو قد يتوهمه المرء أول الأمر سخيفاً لا معنى له، فإذا ما مرت الأيام والليالي وتراكمت الشهور والسنون، أدركنا ما كان في هذا النحو القديم من جمال، وتورات معالم القبح التي كانت فيه مرتدية ثياباً من نعمة الحنان والحب، وأحسسنا أن قوى الخشونة والغلظة قد لطفت واستحالت إلى قوى جديدة أكبر وأعظم من التحبب والوداعة. وعند ذاك لا نكاد نميز لون الشر، فقد ضاع وتبدد في ضياء الخير المنير، وامتزجا معاً في لون جديد يفوق جماله على ما كان للخير وحده من ضياء.

عاد صندوق البرق يدق مرة أخرى فجلس السيد جروجان إلى آلته الكاتبة يدق رسائل الحب والأمل وأخبار الألم والموت آتية من العالم كله إلى أطفاله جميعا.. «عائد إلى البيت»، «ميلاد سعيد»، «تأسف وزارة الدفاع أن تبلغكم أن ابنكم...» «قابلني في محطة باسفيك الجنوب»، «إليك قبلة»، «أنا بخير»، «فليباركك الله».. وهومير دائماً يوصل هذه البرقيات جميعاً.

وفي غرفة الجلوس في بيت ماكولي شدت أوتار القيثارة وسمع صوت الغناء.. أما الجنود فقد ظلوا يتحركون سائرين على الأرض وفوق الماء أو في الهواء عابرين أماكن جديدة، تمر بهم الأيام والليالي إلى نوم جديد ولحظات جديدة غريبة قد ملأتها أصوات خارقة ومشاكل لم يسمع بها أحد، وأخطار بالغة لا يكاد يصدقها إنسان. ومع هذا كله.. تتغير وجوه البشر جميعاً على نحو خفي غير ملحوظ.. نعم وجوههم جميعا.. ماركوس، توبي، هومير، سبانغلر، جروجان، السيدة ماكولي، يوليسيس، ديانا، أوجي، ليونيل، بس، ماري، وفتاة فندق بيثل.. وروزالي سيمس، والسيد آرا وابنه جون، وكريس الضخم، والسيدة هيكس.. بل حتى الرجل الآلي.

وظل قطار البضاعة الذي يحمل الزنجي في عربته الأخيرة سائراً يطوي الأرض، والسنجاب الصغير يطل من جحره، واكتسب المشمش على شجرة هندرسون لوناً باسماً جميلاً من ضوء الشمس وحمرة خدود الصبية الذين جاءوا يسرقونه، وغادرت الدجاجة الراقدة قنّها، وخرجت وراءها جماعة الكتاكيت الصغار،

ويوليسيس.. ما زال كما هو دائماً يراقب ويتفرج، والعرج في ساق هومير قد شفي.. وجاء على إيتاكا أحد عيد الفصح، ومضى بعد العيد أحد آخر فثالث ورابع، وتعاقبت على إيتاكا الآحاد حتى جاء هذا الأحد الذي جلست فيه أسرة ماكولي كلها تصحبهم ماري أرينا في أولى كنائس إيتاكا البرسبتيرية. وكان بجلس يوليسيس على الممر وقد تصادف، وكأنما هي معجزة دينية، أن جلس أمامه مباشرة رجل أصلع الرأس، وبدا ليوليسيس أن الرأس موضوع رائع للفرجة، وأن شكله الذي يكاد يشبه البيضة يستحق الدراسة والنظر، كانت في الرأس الأصلع بضع شعيرات نمت منعزلة وحيدة في بطولة وجسارة، وانقشع الرأس عن معجزة من التخطيط بتجعيدة طويلة تمر في وسطه كما يمر خط الاستواء بالأرض. إن الرأس بدا ليوليسيس شيئاً رائعاً فاتناً حقاً.

وكان القس المبجل قد بدأ مع الحضور في الكنيسة حواراً ثنائياً دينياً عن الحياة المباركة، فقرأ القس أولاً من الإنجيل وأجابه الحضور في صوت قوي وحنون.

وتغنى الأب بالأية: (متى ـ الإصحاح الخامس ـ آية 1)

«ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل، فلما جلس تقدم إليه تلاميذه».

«ففتح فاه».

فأجاب الحضور، وعلمهم قائلاً:

«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات.

«طوبى للحزانى. لأنهم يتعزون».

«طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض».

«طوبى للجياع والعطاشى إلى البر، لأنهم يشبعون».

«طوبى للرحماء، لأنهم يُرحمون».

«طوبى لأتقياء القلب، لأنهم يعاينون الله».

«طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون».

«افرحوا وتهللوا ؛ أنتم ملح الأرض، أنتم نور العالم».

«فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات».

كان الحضور يجيبون القس بآيات الإنجيل ويوليسيس منهمك في فحصه للرأس الأصلع، وعلى حين حطت فجأة على موضوع درسه ذبابة وبدأت تجوب الرأس مستكشفة، فانتعشت روح الصبي الصغير وراح يوليسيس يرقب الذبابة برهة ثم مد يده يحاول أن يمسك بها، ولكن السيدة ماكولي قبضت بلطف على يده وظلت ممسكة بها. فاستمر يوليسيس يحملق في الذبابة على الرأس الأصلع وهو لا يفكر في شيء بالذات، وسرعان ما استغرقه حلم من أحلام اليقظة بعيداً عن كل شيء. رأى يوليسيس جلد الرأس الناعم كأنه صحراء واسعة، وشاهد في التجعيد الذى يمر بوسطه نهيراً صغيراً وفي السبع الشعيرات نخلات طويلة، وفي تلك الذبابة أسداً هصوراً. وحلم بنفسه أيضاً وقد ارتدى ملابس الأحد، ووقف على ضفة النهير يرقب الأسد على الناحية الأخرى، على حين التفت الأسد بدوره وراح ينظر إليه، وكانت قراءة آيات الإنجيل مستمرة متواصلة.

وتبين يوليسيس عن بعد أعرابياً في ثياب فضفاضة رقد نائماً على الرمل وإلى جواره ماندولين أو شيء آخر، ولكنه آلة موسيقية على أية حال، ثم إبريق صغير فيه ماء. ورأى الأسد يقترب في سلام ووداعة أشبه ما تكون بوداعة الرجل النائم، وانحنى على رأس الرجل يشمه دون أن يقصد به أي ضرر.

وانتهت القراءة من الإنجيل، وبدأ أرغن الكنيسة يتنفس في عظمة وروعة، وشرعت الجوقة والحضور جميعاً يغنون «صخرة العصفور».

وتلاشت رؤى الصحراء من عيني الحالم الصغير وبدا في مكانها محيط واسع، ورأى يوليسيس نفسه يتشبث بصخرة قد علت بضع أقدام فوق سطح الماء المنعزل الذي غمره كله إلا رأسه ويديه. وراح يتلفت حوله عن منقذ ولكنه لم يَر شيئاً غير الماء، إلا أنه ظل مع ذلك صابراً لم يفقد الأمل أو الإيمان، رأى كريس الضخم سائراً على الماء متجهاً إليه حتى وصل عنده ومد يده دون أن ينطق بكلمة، فرفعه من الماء. ولكن يوليسيس، بعد لحظة وقع من جديد وتناثر الماء حوله، فمد كريس الضخم مرة أخرى يده واستخرجه. ولما أعاده واقفاً على قدميه أمسك بيده وسارا معاً على الماء. ولاحت عن بعد أبراج مدينة بيضاء امتدت حولها الأرض وازدهر النبات وأخذ الرجل والصبي يسيران ميممين صوب المدينة البعيدة.

وانتهت الأغنية، وأحس يوليسيس أن أحداً يهزه فجأة، فصحا من حلمه مفزوعاً ليرى ليونيل يهزه وقد أمسك طبقاً يجمع فيه الحسنات للكنيسة، وعندما عثر أخيراً على الخمسة السنتات التي

معه وضعها في الطبق وانتقل من بعده إلى أمه وانحنى ليونيل على يوليسيس يهمس إليه في خشوع ورهبة غامضة: «يوليسيس؟ هل خلصت نفسك؟».

«ماذا؟».

«اقرأ هذا»..

وناول صديقه نشرة دينية مطبوعة. فبدأ يوليسيس يتفحصها ولكنه لم يستطع أن يقرأ ما عليها من حروف كبيرة كتب بها الكلمات التالية: «هل خلصت نفسك؟ إن الوقت لم يضع بعد».

واتجه ليونيل إلى الناحية الأخرى من الممر حيث يجلس رجل عجوز وكرر عليه السؤال نفسه: «هل خلصت نفسك؟».

فالتفت الرجل إلى الصبي بقسوة وهمس له نافد الصبر: «سر في طريقك أيها الغلام».

ولكن ليونيل لم يمشِ، بل قدم للرجل واحدة من نشراته، وكأنه من الشهداء القديسين، فثار الرجل الهرم وضرب النشرة فأوقعها من يد ليونيل، فأفزع الصبي وزاد في شعوره بأنه أحد الشهداء العظام.

وهمست زوجة الرجل الهرم: «ماذا حدث يا عزيزي..».

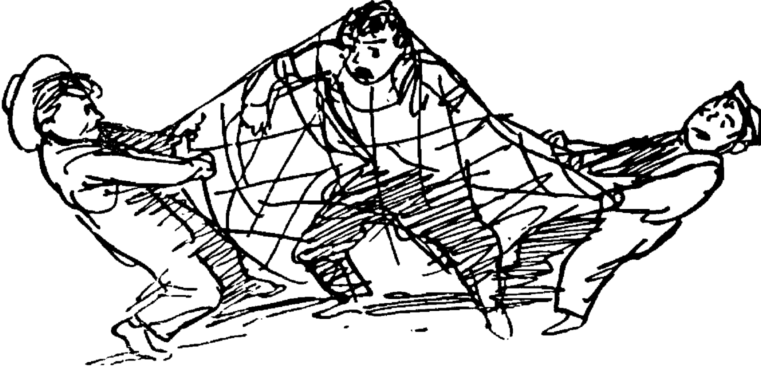
«هذا الغلام.. يسألني.. هل خلصت نفسي؟.. وبعد ذلك يناولني هذه..»! وانحنى الرجل فالتقط النشرة من على الأرض وناولها لزوجته قائلا: «ناولني هذه.. هذه النشرة». وبدأ الرجل

يقرأ في شيء من الثورة والحنق ما عليها من كلمات: «هل خلصت نفسك؟ أن الوقت لم يضع بعد».

وربتت الزوجة على يد الرجل الهرم قائلة: «هون عليك، لا شيء في هذا.. فمن أين يعرف الصبي أنك كنت مبشراً في الصين ثلاثين عاما؟».

وواصل الصبية عملهم الديني في جمع الحسنات على حين كان الأرغن يدق في رقة وعذوبة، وارتفع في الكنيسة صوت رفيع عالٍ يغني. كان ليونيل وأوجي وشاج ومعهم عدد آخر من صبيان إيتاكا قد وقفوا في آخر الممر الرئيسي وقد حمل كل منهم طبقاً يجمعون فيه الحسنات. وظل الصبية في مكانهم حتى فرغت الموسيقى فانحدروا في جد يسيرون في الممر وقد علاهم صمت عجيب ومضحك، متجهين مباشرة إلى أسفل المحراب، وهناك وضعوا أطباقهم واحداً فوق الآخر ثم عادوا إلى أماكنهم في جوار أهلهم.

35



ضحك الأسد

وقف أوجي غوتليب، بعد أن فرغ من زيارة الكنيسة ومن طعام الأحد، وسط فناء بيتهم الخلفي يرفع شبكة من شباك التنس القديمة آملاً أن يخرج منها شيئاً ذا نفع. ومر به نشيطاً أنوك هوبر، وهو صبي في عمره تقريباً ووقف إلى جانبه وراح يرقبه في خفة. وكان الصبي يمتلك كرة بيسبول قديمة قد ذهب غطاؤها ولكنه ظل مع ذلك يضربها بعنف على أرض الرصيف حتى تقفز الكرة عالية جداً، ثم يتلقفها ليعود ويضربها من جديد مرة بعد أخرى ـ كان أنوك هوبر أكثر صبية إيتاكا عصبية وقلقاً وأسرعهم حركة وأقلهم صبراً وأعلاهم صوتاً في الحديث.

«ماذا تفعل يا أوجي؟».

«شبكة».

«شبكة ماذا؟ للسمك؟».

«لا.. للحيوانات».

ولكن حتى هذا الحديث القصير كان قد أمّل أنوك هوبر فقال: «أوه.. هيا بنا.. هيا نلعب بيسبول..أو نذهب إلى خزان جوجنهيم لنتسلقه».

«لا بد أن أعد هذه الشبكة..».

فصاح أنوك نافد الصبر: «تعدها لماذا؟».

«لصيد الحيوانات».

«أين هي هذه الحيوانات التي تراها حولنا.. تعال.. هيا بنا إلى بحيرة مالقة لنستحم..».

«هذه الشبكة ستصطاد الحيوانات لا شك في ذلك».

«إنك لن تستطيع أن تصيد برغوثاً بشبكة التنس هذه.. هيا.. هيا بنا نلعب.. أو تعال نتسلل إلى سينما الجوهرة لنرى فليم طرزان».

«إنني سأصطاد بها في أول الأمر كلباً كي أجربها.. فإذا ما صلحت.. تعال إذن وتفرج»..

«هذه شبكة تنس قديمة ولن تستطيع أن تصطاد بها شيئاً.. تعال نذهب إلى حديقة المحكمة أو إلى سجن المدينة نحادث المساجين».

«لا بد أن أعد شبكتي أولاً.. وسأجربها اليوم.. فإذا وجدتها نفعت فغداً إذن.. غداً..!».

«ماذا، غداً..؟! هل ترى حيوانات هنا حولنا..؟ماذا.. بقرة؟ كلباً أو كلبين.. بضعة أرانب... دجاجا.. ماذا تصطاد بها؟».

«شبكتي هذه قوية.. إنها تصلح حتى لدب»..

«كفى هراء.. وهيا بنا.. ما هذا الذي تتخيل أن تمسكه بهذه الشبكة القديمة..؟ تقول أنها تصلح لدب؟ فلن تستطيع أن تمسك بها ولو دباً محشوا بالقش.. هيا.. هيا بنا نذهب إلى حي الصينيين لنسير هناك..».

فتوقف أوغست غوتليب لحظة عما في يده من عمل ليفكر في حي الصينيين ومن فيه، ثم رفع نظره إلى أنوك هوبر قائلاً: «أخائف أنت من الصينيين..؟».

فأجابه أنوك مخلصا: «خائف.. لا.. أنا لا أخاف شيئاً أبداً، فهم حتى وإن كانوا خطرين، فلن يستطيعوا أن يلحقوا بي أبداً.. أنا سريع جداً.. إذا ما أطلقت ساقيّ».

«أعتقد أن الأسد نفسه لا يستطيع أن يلحق بك».

«لا.. أنا سريع جداً.. ولن يجاريني الأسد أو أي شيء آخر.. الدببة أو النمور أو الصينيين، إنني أسرع منهم.. هيا.. الآن.. هيا بنا لنعبر سكة حديد جنوب الباسفيك وهناك نلاعب فرقة كوزموس».

«أعتقد أن صيدك في الشبكة أصعب من صيد الأسد!».

«ليس هناك شبكة في العالم تستطيع أن تصطادني.. تعال.. تعال

الآن نذهب إلى أراضي الملاعب المسواة لنتسابق ميلاً في الجري.. وسأعطيك مقدماً مائة ياردة أمامي..».

قال أوجي:

«إن أباك نفسه لا يستطيع أن يلحق بك».

«يلحق بي!.. لا.. إنه لا يستطيع.. أن يقترب مني.. ولو جرى ورائي لأعماه ترابي».

وعند ذاك قدم عليهما ليونيل قائلا: «ماذا تفعل يا أوجي؟».

«شبكة.. لصيد الحيوانات».

فقال أنوك: «إنه لن يستطيع أن يمسك برغوثاً بهذه الشبكة يا ليونيل.. هيا.. تعال معي إلى الأرض البور ترسل لي الكرة لأصدَّها.. ثم أرسلها أنا لك بعد ذلك.. ماذا تقول في هذا؟».

قال ليونيل: «أنا؟».

قال أنوك: «نعم، يا ليونيل.. هيا.. أرسلها لي بقوة.. وأنا سأرسلها لك سهلة جدا.. هيا.. هيا.. لقد كاد العصر ينقضي».

قال أوجي: «اتقفنا يا أنوك.. لكن تذكر ما قلت.. إنك سترسلها لي سهلة هينة.. فأنا لا أحسن صدَّ الكرة وأحياناً تضيع مني فتضربني في وجهي.. وقد أصابت مرة عيني وأصابت أنفي مرتين..».

قال أنوك: «لا تخش شيئاً..سأرميها سهلة جداً..هيا. هيا بنا..».

وعبر أنوك هوبر وليونيل كابوت الطريق إلى الأرض البور وعاد أوجي إلى عمله من جديد. وفرغ أخيراً من حياكة أجزاء شبكة التنس القديمة كلها حتى أصبحت لديه قطعة كبيرة مربعة تقريباً.

فراح يشدها من أطرافها ثم ثبت كل ركن من أركانها في عصا غرزها في الأرض وبدأ يتفرج على ما صنعت يداه.

وجاء شاج مانوجيان من ناحية سور الفناء الخلفي وسأل أوجي: «ما هذا؟».

فقال أوجي: «شبكة لصيد الحيوانات.. أتريد أن تساعدني في تجربتها..؟».

«نعم.. طبعاً.. ولكن كيف تجربها؟».

«هذا ما سأقوله لك.. إني سأمسك الشبكة وأختفي وراء محل آرا.. وأنت تنادي أنوك.. فهو هنا يلعب بالكرة مع ليونيل، وأنوك كما تعرف أسرع وأصعب في صيده من أي أسد، فإذا استطاعت هذه الشبكة أن تمسك به فلا شك أنها ستمسك بأي شيء آخر بعد ذلك.. اتفقنا.. لقد اختفيت.. أنا مستعد.. هيا فلتنادِ أنوك.. قل له إنك تريد أن تطلب منه شيئا..».

«ليكن».

وتطلع شاج إلى أنوك في الأرض البور ثم رفع صوته عالياً: «أنوك.. أنوك..».

فالتفت أنوك هوبر صارخاً وقد ارتفع صوته أضعافاً على صوت شاج: «ماذا تريد يا شاج..».

«تعال هنا.. أريد أن أسألك شيئاً..».

«ماذا تريد مني».

«سأخبرك إذا ما جئت..».

«حسناً».

وبدأ يجري ناحية شاج، وجاء وراءه ليونيل لا يعرف إذا كان يحسن به أن يجري أو أن يسير. وهمس أوجي «هذا ما يجب.. تعال الآن واختف هنا يا شاج.. إمسك طرف الشبكة، فإذا ما جاء قفزنا عليه أنا وأنت وهو يدور عند زاوية المحل واصطدناه!! هل فهمت».

وصاح أنوك وهو يجري مسرعا: «هيا بنا نذهب إلى بحيرة ملقة لنستحم.. لقد ضاع العصر ولم نفعل شيئا.. ماذا ننتظر هنا؟».

واستدار أنوك سريعاً عند زاوية المحل فقفز عليه أوجي وشاج ونشر الشبكة فوقه. ولا شك أن أوجي كان محقاً فيما توقع، فقد راح أنوك هوبر يتحرك كحيوان مفترس متوحش أشبه ما يكون بالأسد. وبذل الصائدان جهدهما كله إلا أن الشبكة لم تكن قوية كفاية، فسرعان ما خرج أنوك هوبر واقفاً منتصباً لم يصبه شيء، مسروراً جداً بنتيجة التجربة.

وضرب الكرة على الرصيف ثم قال: «أوجي.. هيا بنا.. إن هذه الشبكة لن تصطاد برغوثاً. هيا.. ماذا تنتظر؟..».

فقال أوجي وهو يلقي الشبكة في الفناء: «لا مانع.. هيا بنا إلى حديقة المحكمة نكلم المساجين.» وانحدر أوجي وأنوك وشاج في الطريق ووراءهم مباشرة ليونيل، متجهين جميعاً إلى حديقة المحكمة، ولم يمض وقت يسير حتى كان أنوك هوبر قد سبقهم جميعاً ناصِيَة بأكملها فتوقف يصيح فيهم: «هيا اسرعوا.. ما هذا البطء».

وهبط طائر أمامه من الشجرة فصوب كرته إليه ولكنه أخطأه.

36



الأشجار والكروم

خرج توماس سبانغلر وديانا ستيد في عربة قديمة مكشوفة يتنزهان عصر يوم الأحد حول كنجزبرج.

في الطريق أشار توماس إلى صف من الأشجار يحيط بالكروم وقال: هذه أشجار التين.. والكروم من ورائها عنب موسكاتي.. أنظري هناك.. أشجار الزيتون.. وهذا رمان.. والكروم هناك من عنب ملقة.. وبعد ذلك تكعيبة من أشجار الخوخ. وذاك مشمش.. هذا الوادي أجمل وديان العالم.. أنظري هذه.. شجرة جوز، وهذه شجرة برسيمون لا ترينها كثيرا! إن كل ما هو جميل رائع ينمو في هذا الوادي فقالت المرأة الشابة: «أوه..

يا حبيبي.. إنك تحب الأشجار.. أليس كذلك..؟».

«أنا أحب كل شيء.. ولكن لا تسأليني الآن.. إذا كنت أحبك.. فأنا أفعل.. أنا أحبك وأحب العالم أجمع وكل ما فيه!».

ورفع صوته وقال وهو يكاد يصيح: «لقد رأيت نهر الحياة صافياً كالبللور، ورأيـــت في المجرى وعلى الضفتين شجرة الحياة قد حملـــت ألواناً من الفاكهة، وجعلت أوراقها بلسماً للشعوب!».

انحنى سبانغلر على الفتاة فقبلها عند منتهى عينها.

«حبيبي.. أنت سعيد؟».

«طبعا.. طبعا.. إني لا أهتم كثيراً بمسألة السعادة هذه.. ولكن أياً كانت فلا شك عندي أنها شيء مثل الذي أنا فيه.. أنظري.. أشجار زيتون أخرى!!».

ولف ذراعه حولها وقال «إني لا أستطيع الانتظار لأعرف ماذا يكون.. وأظن أنني أفضل أن أكون فتاة صغيرة، وأني لأحب أن تتحرك حولي ابنة صغيرة تشبهك تماما.. وأحب أن أسمع صوت مثل هذه الفتاة..!!

وأضاف توماس في رقة: «أتعرفين.. لقد كنت أحسبك من قبل حمقاء». وقبلها على فمها ثم قال:

«أما الآن.. فلا شك أن من يستطيع أن يفعل هذا فهو ليس بالأحمق.. وها أنت قد استطعت».

«أوه يا حبيبي.. كم أردت ذلك.. وأنا لست خائفة أبدا.. لست خائفة على الاطلاق!».

وسارت العربة الصغيرة في موازاة نهر الكنجز مقتربة من الحدائق التي يخرج إليها الناس للنزهة، وهناك في عصر هذا الأحد تجمعت خمس جماعات كبيرة من الايطاليين.. ثم من اليونانيين ثم من الكرواتيين والصرب ثم من الأرمن ثم من الأميركيين وكلهم يغنون ويرقصون. وكانت كل جماعة تتغنى بموسيقاها وترقص رقصها الوطني، فراح سبانغلر يوقف عربته دقائق عند كل جماعة يستمع إلى الموسيقى ويتفرج مستكشفاً في كل منها ما يجب أن يعلق عليه وأن يحدث حبيبته.

«أنظري.. أولئك يونان.. إني أعرف هذا من الموسيقى فقد كنت أعرف قديماً أسرة من اليونانيين هل ترين هذه الفتاة التي ترقص؟ هكذا كانوا يرقصون في وطنهم القديم».

وسارت العربة قليلاً ثم توقفت من جديد.

«وهؤلاء من الأرمن، فإني أعرف هذا من القس والأطفال الذين معهم.. فهم يؤمنون بهذا.. بالله وكثرة النسل.. إنهم يشبهون اليونانيين شيئاً ما وفيهم بعد ذلك من الناس جميعاً شيء آخر.. أترين هذا الرجل الهرم وهو يرقص..؟ استمعي إلى الموسيقى».

وسارت العربة لتقف مرة أخرى عند جماعة جديدة.

«وأظن هؤلاء من الكروات والصرب.. وقد يكون بينهم آخرون من تلك المنطقة.. فهم جميعاً سواء» ولف ذراعه حول الفتاة

وقال لها في سرعة: «إني أريدها أن تكون فتاة صربية صغيرة.. ولم لا يكون فيها شيء من اليونان أيضاً.. أو من الأرمن.. أو الطليان أو الروس. بل إنني أريد أيضاً أن يكون فيها من الألمان والأسبان والفرنسيين كذلك.. نعم.. قليل من كل مكان..».

وعادت العربة تسير لتقف من جديد: «وهؤلاء.. أتعرفينهم؟. إيطاليون. قد يكون كوربيت هنا في مكان ما مع زوجته وأولاده.. أتسمعين غناءهم؟ أنشودة الحب؟».

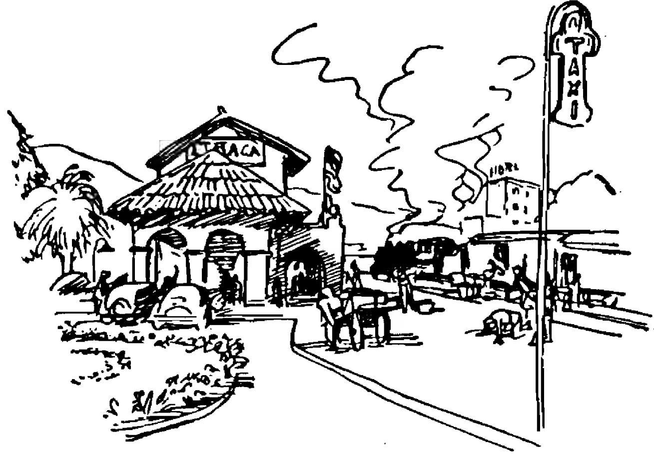
وسارت العربة حتى الجماعة الأخيرة من المتنزهين، فبدوا وكأنهم أروع الجماعات جميعاً ولكنهم لا شك أكثرهم حمية وانطلاقاً. كانت موسيقاهم هي الجاز والسوينج والبوجي - ووجي، ورقصهم في غاية العنف والشدة.

وصاح سبانغلر:

«أميركيون!.. أنظري إليهم.. أميركيون.. من اليونان والصرب والبولنديين والروس والأرمن والألمان والأسبان والبرتغاليين.. من الإيطاليين والحبش واليهود والفرنسيين. من الإنكليز الاسكتلنديين والإيرلنديين.. أنظري استمعي لهم..».

وظلا ينظران ويسمعان لحظة ثم استأنفت العربة سيرها مبتعدة..

37



إيتاكا.. وطني.. إيتاكا

عند العصر وصل قطار «سانتا فيه» للركاب قادماً من سان فرنسيسكو وتوقف في محطة إيتاكا لينزل منه تسعة ركاب كان بينهم جنديان شابان. وقبل أن يعاود القطار تحركه من جديد نزل منه جندي ثالث يعرج قليلاً بقدمه اليسرى وسار مبتعداً يتحرك في بطء.

ونظر الجندي الأول لصديقه وقال: «هذه هي إذن إيتاكا.. يا صديقي..لقد عدنا إلى بيتنا».

. فقال الجندي الثاني:

«يا إلهي.. أنظر إليها.. نعم دعني أشبع منها.. الله.. الله..

بيتي.. إيتاكا. إنني لا أعرف شعورك أنت الآن.. ولكن أنظر.. هذا ما أحس به» وانحنى الجندي على ركبتيه وقبل الحجر على أرض رصيف المحطة قائلاً:

«قبلة لك مني يا إيتاكا» وقبل الأرض وهو يقول: «وقبلة أخرى.. وأخرى».. وراح يقبلها من جديد.

فقال الجندي الأول:

«هيا بنا.. يا هنري.. قم، إن الناس ينظرون إلينا.. أتريد أن يقولوا أن الجنود مجانين..».

«لا.. أنا لا أحب أن يقولوا ذلك.. ولكن ماذا أفعل.. إني لا أستطيع أن أمنع نفسي.. يا إلهي.. وطني.. إيتاكا». وقام واقفاً وأخذ ذراع صديقه قائلا: «هيا بنا يا داني.. فلنذهب».

قال داني: «إنك تقول إن أهلك سيدهشون عندما يرونك؟! انتظر.. لترى ماذا يفعل أهلي أنا.. إني متأكد من أنهم لن يستطيعوا أن يصدقوا عيونهم من دهشتهم!!».

وسار الشابان معاً حتى الزاوية التالية من الطريق في الشارع نفسه الذي يقطنه مستر آرا وفيه محله. وتوقفا فجأة، وراحا يعدوان، أحدهما إلى شرفة منزل قريب.. والآخر إلى شرفة المنزل المجاور. وخرج آلف رايف من وراء أحد البيوت ووقف على الخضرة المزروعة بين البيتين يتفرج. وعندما فتح الباب في هذا البيت فتح الباب في البيت الآخر، وفي الوقت ذاته احتضنت المرأة التي فتحت الباب في كل من البيتين الصبي الواقف أمامها. ولم يلبث أن انضم

إليهما رجال وبنات وبنون، وراحوا جميعاً يقبلون الجنديين. ولكن آلف اكتشف أن هناك خطأ ما، وراح يصيح بأعلى صوته:

«ليس هو.. ليس هو.. انه داني بوث ابن الجيران.. لقد عاد.. انه يسكن في بيت الجيران. ودخل البيت خطأ. لقد كنا نحسبه لنا.. انه ابن السيدة بوث.. وهذا أخونا نحن يقبل السيدة بوث.. ليس هو.. يا أمي.. ليس هو..».

«وقالت السيدة رايف لداني بوث:» أوه.. مرحباً داني.. لقد حسبناك هنري»..

لا بأس يا سيدة رايف.. إنني ذاهب أقبل أمي هناك.. وأرجو أن تأتوا جميعاً أيضاً.

وعلى الشرفة في المنزل الآخر كان هنري رايف يقول:

«مرحباً.. سيدة بوث.. ألا تأتون إلى بيتنا.. جميعاً.. إنني مسرور جداً برؤيتكم يا سيدة بوث» وقبلها مرة أخرى قائلاً: «هذا داني يقبل أمي على شرفتنا..».

وتكاثر الناس على العشب الأخضر بين البيتين رائحين غادين فى ارتباك وبهجة محببة، على حين ظل آلف رايف يصيح مرة بعد أخرى: «ليس هو.. ليس هو.. لقد دخل البيت خطأ.. انه يسكن بيت الجيران.. هيه.. هنري.. ماما هنا.. هذه السيدة بوث.. دخلت خطأ.. يا هنري!».

38



إن الحب خالد
وأما الكراهية فتموت كل لحظة

كان هومير ماكولي وأخته بس وأخوه يوليسيس وصديقتهم ماري أرينا قد خرجوا جميعاً يتربضون في إيتاكا عصر يوم الأحد، فمرّوا في سيرهم بصف من الناس واقفين أمام دار السينما وتبينوا ليونيل بينهم. فتوقف هومير وقال: «مرحباً ليونيل، هل ستدخل السينما؟».

قال ليونيل: «ليس معي نقود».

فقال هومير: «لماذا تقف إذن في الصف؟».

قال ليونيل: «كنت مع أوجي وشاج وأنوك فى حديقة المحكمة

نكلم المساجين ولكنهم طردوني ولم أعرف أين أذهب ولما رأيت الناس أولئك واقفين جئت أنا الآخر ووقفت معهم..».

قال هومير: «وكم بقي لك هنا في الصف؟».

فقال ليونيل: «حوالى ساعة فيما أظن..».

قال هومير: «... ولكن هل تريد أن ترى الفيلم؟» وأخرج من جيبه بعض نقود، ولكن ليونيل أجابه:

«لا أدري... ليس هناك مكان أذهب إليه ولكنني لا أحب السينما كثيراً».

«قال هومير: «حسناً إذن... لم لا تأتي معنا... اننا نتفرج على واجهات المحلات... وسنسير قليلاً ثم نعود إلى البيت، فتعال معنا يا ليونيل...

ورفع الحبل الذى يصطف خلفه الناس وخرج ليونيل من تحته مغادراً الصف وهو يقول:

«شكراً... أنا كنت فعلاً قد تعبت من الوقوف على هذا النحو».

وبينما هم سائرون وقف يوليسيس فجأة وراح يشد ذراع أخيه هومير مرات عديدة مشيراً إلى أرض الرصيف، وهناك على الأرض كان أمام الصبي بنس معدني ملقى على وجهه المنقوش عليه صورة لنكولن.

فقال هومير: «إنه بنس.. خذه يا يوليسيس.. فهو يجلب الحظ، خذه واحتفظ به دائماً».

فالتقط يوليسيس القطعة المعدنية وراح يتطلع في وجوه من حوله متبسماً مسروراً بحظه السعيد. ومروا في سيرهم بمكتب التلغراف القائم على الناحية الأخرى من الطريق فتوقف هومير ليلقي نظرة على ما يجري في المكتب قائلاً لهم : «هنا أعمل... منذ شهور ستة تقريباً «وقطع حديثه لحظة يفكر ثم عاد يقول وكأنما يكلم نفسه: «وكأنها مائة سنة»..

ونظر إلى داخل المكتب قائلاً: «أظن أن هذا هو السيد جروجان، إنني لم أكن أعرف أنه يعمل اليوم» ثم التفت للآخرين يقول لهم: «انتظروني لحظة... سأعود حالاً...».

وعبر الطريق مسرعاً ودخل المكتب فرأى السيد جروجان أمام صندوق البرق والأسلاك تدق ولكن العامل الهرم لا يتلقى شيئاً من البرقية المرسلة. فجرى هومير إلى الرجل قائلاً: «سيد جروجان.. سيد جروجان» ولكن الرجل الهرم لم يجبه ولم يستيقظ.

فعاد الساعي مسرعاً يعبر الطريق إلى الآخرين الذين ينتظرونه وقال لهم: «إن السيد جروجان ليس بخير... ولا بد أن أعود لأهتم به، فعودوا أنتم إلى البيت وسألحق بكم بعد قليل».

فقالت بس: «حسناً يا هومير».

ولكن ليونيل سأله وهو لا يكاد يعرف عمن يتكلم: «ماذا جرى له يا هومير؟».

فقال هومير: «لا بد أن أعود بسرعة.. سيروا أنتم الآن، يا ليونيل... لم يجر شيء.. سوى أنه رجل هرم».

وعاد هومير مسرعاً إلى المكتب وراح يهز السيد جروجان مرات عديدة، ثم جرى إلى إناء الماء فملأ كوباً ورقياً ونثر على وجه الرجل الهرم؟ وفتح السيد جروجان عينيه، فقال هومير:

«هذا هو أنا.. يا سيد جروجان..» إنني لم أكن أعرف أنك ستقدم اليوم للعمل وإلا كنت جئت كما أفعل دائماً في الآحاد التي تعمل فيها. إني ذاهب بسرعة لأحضر لك القهوة..».

فهز الرجل الهرم رأسه ومد يده ليمسك بمفتاح صندوق البرق، وقطع التيار عن العامل في الناحية الأخرى من الخط ثم أخرج برقية بيضاء ووضعها فى الآلة الكاتبة وبدأ يدق الرسالة.

وخرج هومير عادياً من المكتب متجهاً إلى محل كوربيت على زاوية الطريق وطلب كوب القهوة.

فقال له بيت الواقف على البار: «انتظر دقيقة أو اثنتين يا هومير. فهو يصنع الآن قهوة طازجة».

فسأل هومير:

«أوليس عنده قهوة جاهزة ولو شيئاً قليلاً..؟».

فأجاب بيت:

«لقد فرغت كلها.. ها هو ذا يصنع الآن إبريقاً جديداً».

فقال هومير: «إن الأمر هام جداً، وسأذهب إلى المكتب الآن وأعود بعد لحظة فقد يكون أعدها..».

وعندما عاد وجد الأسلاك تدق حاملة البرقية والرجل الهرم لا

يكتب عنها شيئاً على الآلة الكاتبة. فراح هومير يهزه قائلاً: «سيد جروجان.. إنهم يرسلون برقية..وأنت لا تتلقاها.. أوقفهم يا سيد جروجان.. قل لهم أن ينتظروا لحظة.. إنهم يعدون قهوة طازجة في محل كوربيت وسأحضر لك كوباً هنا بعد دقيقة.. أوقفهم يا سيد جروجان.. إنك لا تتلقى شيئاً من البرقية»..

وخرج هومير عادياً من المكتب.

ونظر عامل البرق الهرم إلى البرقية التي كان يدقها على الآلة الكاتبة وعاود قراءة ما كتب منها:

«السيدة كات ماكولي

2226 طريق سانتا كلارا

إيتاكا، كاليفورنيا

تأسف وزارة الدفاع أن تخبركم أن ابنكم ماركوس...»

وحاول عامل البرق الهرم أن ينهض من مقعده ولكن الأزمة عاودته من جديد، فقبض بيده على قلبه وسقط بعد لحظة على وجهه فوق الآلة الكاتبة.

ودخل هومير المكتب وكوب القهوة في يده ومضى إلى الرجل العجوز فوضع الكوب إلى جانبه على المنضدة، وعند ذاك كان صندوق البرق قد توقف عن الدق وساد المكتب سكون عميق.

«سيد جروجان.. ماذا جرى؟».

ودفع الرجل إلى الخلف بعيداً عن الآلة الكاتبة كي ينظر إلى

وجهه، فوقع بصره على البرقية الناقصة في الآلة. وعرف هومير البرقية. ولكنه رفض أن يصدقها، وظل واقفاً كأنه قد شُل ممسكاً بالرجل الهرم:

«سيد جروجان ».

ودخل فيليكس الساعي في يوم الأحد إلى المكتب وراح يحملق في هومير وفي الرجل الهرم ويسأل:

«ماذا حدث يا هومير؟ ماذا جرى للرجل الهرم؟».

قال هومير: «لقد مات».

فقال فيليكس: «ماذا.. أجننت..؟».

ورن صوت هومير فيما يشبه الغضب وهو يقول:

«لا.. لقد مات».

فقال فيليكس: «سأدعو السيد سبلنغلر على الهاتف..».

وراح يدير قرص الهاتف ثم انتظر قليلاً وأعاد السماعة إلى مكانها قائلا: «إنه ليس في البيت.. ماذا نفعل؟».

وعبر فيليكس إلى الآلة الكاتبة لينظر هذا الذي يحملق فيه هومير هناك، فلما قرأ البرقية قال له:

«إن البرقية لم تنته بعد يا هومير.. وربما كان أخوك قد جرح أو فُقد فحسب..».

فنظر هومير إلى السيد جروجان ثم قال: «لا.. لقد سمع هو بقية

البرقية.. انه لم يكتبها ولكنه سمعها..».

«قد لا يكون يا هومير.. سأضرب الآن مرة أخرى للسيد سبانغلر، فقد يكون عاد إلى البيت..».

وتلفت هومير حوله في المكتب، وفجأة، بصق على الأرض في حنق واحتقار فظيع، ثم جلس ينظر محملقاً أمامه وليس في عينيه أثر لدموع.

وكان توماس سبانغلر قد فكر في أن يتجه بعربته إلى مكتب التلغراف بعد أن فرغ من نزهته في الريف حول المدينة، فلما وصل إلى باب المكتب نفخ النفير فخرج فيليكس إليه مسرعاً.

«سيد سبانغلر.. لقد كنت أحاول أن أتصل بك بالهاتف.. لقد حدث هنا حادث.. انه السيد جروجان.. هومير يقول انه مات..».

فقال سبانغلر لديانا ستيد: «عودي أنت إلى البيت.. وسأعود أنا متأخراً فلا تنتظريني للعشاء.. وقد يكون من الأفضل

أن تذهبي إلى أهلك وتمضي الليلة هناك..».

وقبلها ثم خرج من العربة وهي تقول له: «حسنا.. يا عزيزي..».

واسرع سبانغلر داخلاً المكتب وحدق في السيد جروجان ثم في هومير والتفت إلى الساعي الآخر قائلاً:

«فيليكس.. اتصل بالدكتور نلسون.. رقم 1133.. وقل له أن يأتي هنا حالا..».

وذهب سبانغلر فرفع الرجل من المقعد وحمله إلى أريكة في آخر

المكتب، ثم عاد إلى هومير ينظر إليه وقال له: «لا تحزن يا هومير.. إن السيد جروجان كان هرما.. وهذه هي النهاية التي كان يريدها لنفسه.. فكفى .. ولا تحزن هكذا كثيراً..».

ودق صندوق البرق، فذهب سبانغلر يجيب النداء، فلما جلس على مقعد السيد جروجان رأى البرقية التي لم تتم.. وظل ينظر فيها لحظة ثم عبر بعينيه إلى حيث يقف هومير، وعاد إلى الآلة يبرق للعامل الآخر على طرف الخط يسأله عن البرقية الناقصة. ورد عليه العامل فراح يدق البرقية كاملة ثم أبرق إليه طالباً أن يؤجل إرسال أي برقيات أخرى إلى حين. قام الرجل إلى مكتبة فجلس هناك يحملق في الفراغ.

وسقطت يده في كسل وتراخٍ على البيضة التي حفظها لتجلب له الحظ ووجد نفسه دون أن يشعر يدق البيضة على المكتبة في غير انتباه حتى تكسرت قشرتها، وعند ذاك بدأ في بطء يفرغ القشرة كلها، وفي ذهول يائس أكل البيضة. ولما اكتشف فجأة قشرها على المنضدة دفعها بيده إلى سلة المهملات وقال:

«فيليكس.. أدع هاري بيرك عامل البرق وقل له أن يأتي إلى هنا مباشرة، وإذا ما جاء الطبيب فقل له أن يهتم هو بالأمر كله بإنني سأتصل به بعد ذلك».

وتحرك هومير ماكولي أخيراً إلى الآلة الكاتبة، فنزع البرقية الناقصة، وأخذ صورتها فحفظها كالمعتاد وطوى الأصل ووضعه في مظروف ثم في جيب معطفه، ونهض سبانغلر ذاهباً إلى حيث يقف هومير فلف ذراعه حوله وقال:

«هيا يا هومير.. نتمشى معاً قليلاً».

وتركا مكتب التلغراف معاً وقطعا شارعين لا يتبادلان كلمة واحدة، حتى بدأ هومير أخيراً يتكلم في هدوء يكاد يكون فيه حنو ورقة:

«ماذا تظن على المرء أن يفعل؟ إنني لا أعرف من أكره بل لقد حاولت أن أعرف إذا كنت أكره أحداً فلم أجد.. إنني ببساطة لا أعرف. وهل تقول لي ماذا على المرء أن يفعل في هذه الحالة؟ ماذا أستطيع أن أفعل أنا فيماحدث هذا؟ ماذا أقول..؟ وكيف يستطيع المرء أن يظل حيا؟ ومن يحب؟

وقدم عليهم في الطريق أوجي وأنوك وشاج ونيكي فحيوا جميعاً هومير ورد هو عليهم تحيتهم واحداً واحداً بالأسم. واقترب المساء ومالت الشمس للغروب وشاعت الحمرة في السماء وبدأ الظلام يشمل المدينة، واستأنف هومير حديثه:

«من هو هذا الذي يكره المرء؟ إنني لا أعرف أحداً أستطيع أن أكرهه.. لقد صدمني بايفيلد وأوقعني وأنا أجري في السباق، ولكنني لم أكرهه، فهذه هي طبيعته هو. ولكني لا أفهم هذا الذي حدث ولا أعرف من الذي فعله.. ولست أستطيع، ولو جهدت، وأن أدركه. أنا لا أريد أن أعرف إلا ماذا حدث لأخي.. هذا هو كل ما أريد أن أعرفه.. لم يحدث لي شيء كهذا من قبل، حقاً لقد مات أبي ولكن هذا كان شيئاً آخر.. لقد مات أبي بعد أن عاش حياة طويلة طيبة واستطاع أن يكوّن عائلة، ولا شك أننا حزنا عندما مات، لكننا لم نحنق.. وأنا الآن أحس أنني حانق غاضب.. ولكنني

لا أدري على من.. أو ممن.. من هو العدو؟ أتعرفه يا سيد سبانغلر؟».

و مر بعض الوقت قبل أن يستطيع مدير المكتب أن يجيب ساعيه، ثم قال: «أنا أعرف على الأقل أن عدونا ليس هو الناس. فلو كانوا هم العدو لكنت إذن عدو نفسي. إن أولاد العالم أجمع كرجل واحد، فلو كره الواحد منهم الآخر فهم إذن يكرهون أنفسهم هم. بل إن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يكره الآخرين.. إنما هي نفسه دائماً التي يكره. وإذا ما حدث هذا للمرء.. إذا ما كره نفسه فليس أمامه إلا شيء واحد فحسب.. هو أن يرحل.. أن يغادر جسده وأن يترك العالم. وأن يبتعد عن الناس. ولكن أخاك لم يكن يريد أن يرحل، بل كان يريد أن يبقى.. وسيبقى ما دام قد أراد»..

سأل هومير: «كيف؟.. كيف يبقى؟».

قال سبانغلر: «أنا لا أدري كيف.. ولكني أؤمن أنه سيبقى.. لعله سيبقى فيك.. وفي أخيك الصغير يوليسيس.. أو لعله سيبقى في هذا الحب الذي تحفظه له».

قال هومير:

«لا.. هذا لا يكفي.. أريد أن أراه.. أن أراه ـ ولا حيلة في هذا ـ كما يريد يوليسيس تماماً أن يراه.. أريد أن يراه ويقف.. أريد أن أشمه وأن أحدثه وأن أسمع صوته.. ورنة ضحكه. أريد أن أعاركه.. كما كنا نفعل.. ولكن.. أين أجده الآن؟ إنني مهما نظرت حولي فلن أجده. لقد تغير العالم كله الآن، وتغير الناس جميعاً.. وإيتاكا نفسها..

تتغير الآن، فأخي لن ينظر إليها مرة أخرى!!

ووصلا في سيرهما إلى حديقة المحكمة فاخترقاها مارين بسجن المدينة حتى انتهيا إلى أرض الملاعب.

وقال سبانغلر: «أنا لن أحاول أن أواسيك فأنا أعرف تماماً أني لا أستطيع. ولكني أريدك فقط أن تتذكر دائماً أن الرجل الخيرّ لا يمكن أن يموت أبداً. إنك ستراه مرات كثيرة.. ستراه في الطرقات.. وفي البيوت.. وميادين المدينة.. ستراه في الكروم والبساتين.. في الأنهر والسحب، وفي كل ما يجعل هذا العالم مكاناً نعيش فيه.. إنك ستحسه وتلمسه في كل ما أنبته الحب وفي كل ما هناك ليُحب ويُعشق.. ستحسه في كل هذه الأشياء الوفيرة.. وفي كل ما ينمو ويكبر. ان جسد الإنسان قد يمضى أو قد يُحمل بعيدا.. ولكن أفضل جزء فيه يبقى دائماً أبداً. إن الحب خالد يحوّل كل شيء إلى عناصر خالدة.. أما الكراهية فتموت كل لحظة. قل لي... هل تجيد اللعب بحدوات الخيل.. هل تحسن رميها على العصي؟».

قال هومير: «لا يا سيدي.. قليلاً جداً..».

قال سبانغلر: «ولا أنا أيضاً.. ولكن أتحب أن تلاعبني قليلاً قبل أن يعم الظلام؟».

قال هومير:

«ليكن يا سيدي..».

39



النهاية والبداية

كان الجندي الأعرج الذي وصل في القطار نفسه الذي حمل داني بوث وهنري ريف إلى بيتهما في إيتاكا، قد بدأ يجول في المدينة في خطوات بطيئة يتأمل كل شيء ويحدث نفسه:

«تلك هي إذن إيتاكا.. هذه هي المحطة إلى سانتا فيه.. وسماء إيتاكا من فوقها. وهذه هي دار السينما وناس إيتاكا الأفاضل يصطفون في صف أمامها. وتلك هي المكتبة العامة.. والكنيسة البرسبتيرية.. والمدرسة العليا... وأرض الملاعب.. وهذا طريق سانتا كلارا... وسوق آرا.. والبيت هذا هو.. بيتي!».

ووقف الجندي يحملق في البيت مدة طويلة ثم قال:

«أمي وبس.. وهومير ويوليسيس.. وفي البيت المجاور ماري وأبوها مستر أرينا» ولم يكن ما يقوله إلا أفكاراً تمر برأسه. «إيتاكا.. أوه.. إيتاكا.. وهذه حديقة المحكمة.. وسجن المدينة.. والمساجين من وراء نوافذ.. واثنان من رجال إيتاكا يلعبان بحدوات الخيل..».

وسار الجندي بطيئاً ناحية الرجلين ووقف مستنداً على عصا السور يرقبهما. وكان هومير ماكولي وتوماس سبانغلر ما زالا يلقيان الحدوات على العصا في صمت، وقد أغفلا حتى عد النقط التي يكسبها الواحد منهما، ولكنهما على أية حال يلعبان بالرغم من الظلام الذي اشتد. وفزع هومير عندما لحظ الجندي معتمداً على السور. وأحس لسبب لا يعرفه أنه يعرف هذا الجندي.. فمضى إليه وراح ينظر في وجهه ثم يقول:

«معذرة..لأنني أحملق في وجهك..فقد ظننت أني أعرفك..».

«أوه.. لا بأس».

فقال هومير: «أتحب أن تشاركنا اللعب.. تعال وخذ محلي.. لقد أظلمت الدنيا حقا.. ولكن..».

فقال الجندي: «لا.. شكرا.. استمروا أنتم.. فإني أفضل أن أرقبكما».

قال هومير: «لا أظن أني رأيتك من قبل.. أتسكن إيتاكا؟».

قال الجندي:

«نعم... عدت.. لأبقى فيها..».

قال هومير:

«أتعني أنك لن تذهب للحرب مرة أخرى..».

قال الجندي:

«لا.. لقد أعادوني إلى الوطن نهائياً.. ووصلت إلى هنا بالقطار منذ ساعتين تقريباً كنت أجوس فيهما خلال المدينة.. أنظر إلى كل شيء مرة أخرى».

«ولِمَ لم تعد إلى بيتك..ألا تريد أن تعرف أسرتك أنك هنا؟».

«سأعود.. أنا طبعاً أريدها أن تعرف.. ولكني سأعود إلى بيتي على مهل فإني أريد أن أرى أكثر ما أستطيع من إيتاكا أولا.. ولست أكتفي أبداً من النظر.. إنني لا أصدق أني هنا.. وسأعود لأتمشى قليلا.. ثم أرجع لبلدتي..».

ومضى الجندي في بطء يعرج وهومير يلاحقه بنظراته متعجبا! ثم التفت إلى سبانغلر قائلاً: «لا أدري.. يخيل إلي أني أعرف هذا الشخص.. سيد سبانغلر.. قد اكتفيت من اللعب الآن. وصمت لحظة ثم عاد يقول: ماذا أفعل؟.. ماذا أقول لهم؟ أنا أعرف أنهم ينتظرونني الآن.. لقد قلت أني عائد للعشاء فكيف أدخل البيت وكيف أنظر إليهم؟ إنهم سيعرفون بمجرد أن يروني.. أنا أريد أن أقول لهم.. ولكنني متأكد أنهم سيعرفون...

فوضع سبانغلر ذراعه حول هومير وقال:

«إنتظر.. لا تذهب الآن.. اجلس هنا وانتظر قليلاً.. فهذا يحتاج لوقت..».

وجلسا في هدوء على مقعد من مقاعد الحديقة لا يتكلمان. وبعد قليل سأله هومير «ولكن ماذا أنتظر؟».

قال سبانغلر:

«تنتظر..!.. إنك تنتظر أن يموت فيك هذا الجزء الذي مات منه.. هذا الجزء الذي ليس إلا مادة الجسد.. تلك التي تأتي وتروح. هذا الموت يا هومير يؤلمك الآن.. فانتظر قليلاً، إنتظر حتى يموت الألم ويتركك، وعندذاك يصبح ما بقي أخف وأفضل مما كان أبداً. وهذا يستغرق بعض الوقت، وسيظل طالما أنت حي، يأخذ منك بعض الوقت مرة بعد أخرى، ولكنه سينصرف عنك دائماً وقد تركك أقرب مما كنت لخير الإنسان. فلتصبر على محنتك، فستعود إلى البيت بعد ذلك وليس فيك من أثر لموت.. إنتظر وسأجلس هنا حتى يذهب هذا الأثر!!».

قال هومير:

«ليكن ياسيدي..».

وجلس مدير مكتب التلغراف وساعيه على المقعد بحديقة المحكمة في إيتاكا ينتظران.

* * *

وفي بيت ماكولي كانت القيثارة الآن تمسح بنغمات أوتارها الألم عن الأشياء جميعاً، وقد أضاء وجه من تعزف عليها قوياً مليئاً بالحب. أما الفتاة على البيانو فصبية جادة بريئة، والآخرى التي تغني حلوة وديعة الروح. وهناك أيضاً جلس الصبي الصغير وكأنما يسمع

بآذان الأحياء جميعاً ويرقب بعيون مليئة بالإيمان والحب. وعلى درجات السلم الهابط من الشرفة جلس الشاب الجندي الذي عاد إلى بيته في مدينة لم يرها من قبل، وإلى بيت لم يدخله أبداً وإلى أسرة لم يعرفها في حياته.. كان الجالس هناك.. هو الناس جميعا.. أي إنسان، قد عاد إلى البيت إن إيتاكا هي مسقط رأسه، وهذا المنزل هو البيت الذي نشأ فيه، وتلك الأسرة في الداخل هي أسرته هو.

ووقف يوليسيس ماكولي فجأة عند الباب المفتوح مشيراً بأصبعه، فانحنت أخته بس لترى ما ينظر إليه ثم التفتت إلى أمها قائلة:

«ماما.. هناك أحد يجلس على درجات شرفتنا»..

«حسنا.. اذهبي إليه يا بس واسأليه أن يدخل.. أياً كان.. فليس ما يدعو أن تخافي».

وخرجت بس ماكولي إلى الشرفة للجندي: «ألا تدخل.. أمي يسرها أن تتفضل فتدخل..».

فالتفت إليها الجندي في بطء وراح ينظر إليها ثم قال في هدوء:

«بس.. اجلسي هنا إلى جواري.. اجلسي إلى جواري حتى أهدأ وأستطيع أن أقف، إن ساقي ترتجف ولو أني حاولت أن أقف لوقعت.. بس.. اجلسي» فجلست الفتاة إلى جواره على الدرج وسألته في لطف:

«كيف عرفت اسمي؟.. ومن أنت؟»..

قال الجندي: «أنا لا أعرف من أنا.. ولكني أعرفك أنت.. وأعرف أمك وأخويك.. بس.. اجلسي بقربي حتى أهدأ».

قالت بس: «هل تعرف ماركوس أخي؟».

قال الجندي: «نعم.. لقد وهبني أخوك حياتي.. ووهبني منبتا.. وأسرة.. نعم أعرفه.. فهو أخي أنا أيضاً».

قالت بس:

«وأين ماركوس؟ ولـم لم يعد معك؟».

فأجابها الجندي وهو يناولها خاتماً أعطاه له ماركوس ماكولي:

«بس! أرسل لك ماركوس هذا».

فصمتت بس لا تتكلم لحظة ثم سألته في صوت مكتوم لا انفعال فيه:

«هل مات ماركوس؟».

قال الجندي: «لا.. صدقيني يا بس.. وانحنى الجندي على الفتاة وقبلها في فمها وهو يقول: لا إنه لم يمت!».

ورأت بس أخاها هومير قادماً يهبط الطريق فجرت إليه صائحة:

«هومير.. لقد أرسله ماركوس.. كانا صديقين.. وجاء فجلس على سلمنا..» واستدارت تجري ودخلت البيت.

ووقف هومير ماكولي ينظر إلى توبي جورج ثم قال:

«توبي؟.. لقد قلت لنفسي إنني أعرفك عندما تحادثنا في الحقيقة».

وانتظر لحظة ثم عاد يقول:«لقد جاءت البرقية عصر اليوم.. أنها في جيبي.. ماذا نفعل؟».

قال الجندي: «مزقها يا هومير.. إرمها.. أنها باطلة.. مزّقها».

فأخرج هومير البرقية من جيبه وبدأ يمزقها بسرعة، ثم أعاد القصاصات إلى جيبه.. ليحفظها.. إلى الأبد.

وقال الجندي: «أرجوك أن تساعدني على النهوض.. وسندخل البيت معاً...».

فانحنى هومير ماكولي على توبي جورج اليتيم الذي عاد إلى البيت أخيراً، فأمسك الجندي بأكتاف الساعي وقام في بطء واقفاً على قدميه.

وعلى نحو ما استطاع هومير أن يرفع الآن صوته وأن يقول مخلّصاً لهجته وكلماته من آثار الحزن:

«أمي.. ماري.. بس.. اعزفوا لنا وغنوا.. لقد عاد الجندي للبيت..فهيّا رحبوا به»..

وبدأت الموسيقى مباشرة.

وقال الجندي: «دعني أقف هنا لحظة أستمع..» ووقف هومير ماكولي وتوبي جورج يستمعان إلى الموسيقى، وعلى شفة الجندي بسمة من الألم الحنون، وعلى شفة الساعي بسمة من سعادة لم يفهمها بعد.

وبدأت ماري أرينا تغني، وخرج يوليسيس ماكولي من البيت فأمسك بيد الجندي. وعندما انتهت الأغنية خرجت السيدة ماكولي ومعها بس وماري إلى الباب المفتوح، ووقفت الأم تنظر إلى ابنها الذي مات، ابتسم وفهم، وتبسمت له كما كانت ستبتسم لماركوس تماما.

وعند ذاك أخذ الجندي أخويه وسار متجهاً إلى الباب وإلى ما في البيت من نور ودفء.



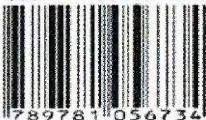
الكوميديا الإنسانية

وليم سارويان، كاتب مهاجر من أصل أرمني أحد أشهر الأسماء التي لمعت في سماء الأدب الأميركي في القرن التاسع عشر، فأضفى عليه من سحر الشرق وحرارته وعبقه، وترك بصماته واضحة عليه، بقصصه القصيرة التي اشتهر بها، والتي أصابها من النجاح في العالم الجديد. ما جعلها تتصدر رفوف المكتبات المتخصّصة.

القصة التي نحن بصددها هي أول قصّة طويلة تنشر للكاتب.. وهي تتناول حياة أسرة أميركية في زمن الحرب..

المواقف الإنسانية التي تشملها، تحفر عميقاً في النفس البشريّة وتملأها بالحرارة وهدوء النفس، ما جعلها في مصاف القصص العالمية التي يقبل القارئ عليها، ويتفاعل بها ومعها... فهي، في خلال سياقها، تتناول الإنسان من خلال الحدث والنفس البشرية من خلال التاريخ... وفي ذلك ما يكرّس عالميتها عبر الأجيال.

ISBN 9781056734-8



دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان - بلوك ب طابق 3 - شارع الكويت - المنارة - بيروت 6308 2036
لبنان - تلفاكس 009611-740110 E-mail.alkhayal@inco.com.lb